شرح الطحاوية

فى العقيدة السلفية

تأليف

علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي

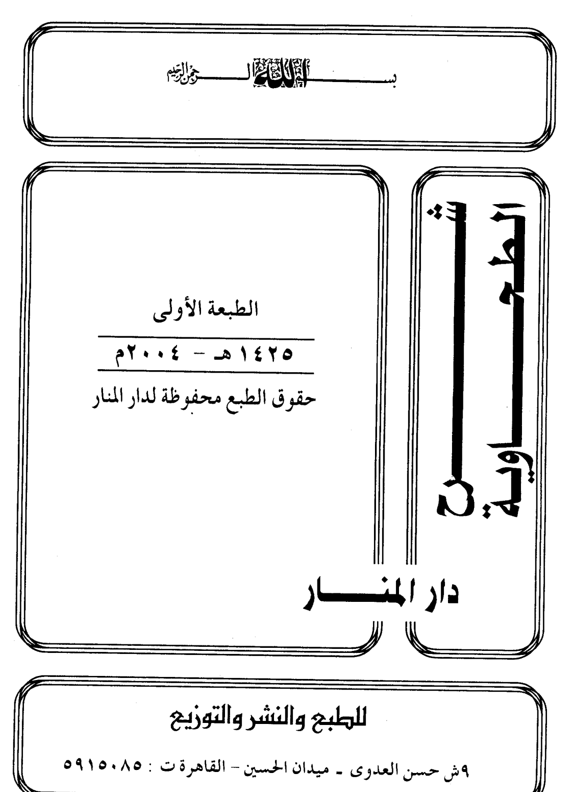
تحقيق وتعليق مع مقدمة في أسباب الاختلاف

الدكتور

عبد الرحمن عميرة

الجزء الأول

دار المنار



بسم الله الرحمن الرحيم

متن الطحاوية

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

دار المنار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ش حسن العدوى - ميدان الحسين - القاهرة ت : ٥٩١٥٠٨٥



مقدمة المحقق

نحمد الله تعالى حمد العارفين، ونشكره شكر المؤمنين القانتين على نعمة الظاهرة والباطنة علينا، وعلى عباده الذين اصطفى لحمل رسالته والدعوة لدينه، وبيان كلمة الحق وإظهارها.

ونسأله جلت قدرته أن يصلى ويسلم على جميع أنبيائه ورسله، وفي مقدمتهم - محمد - ﷺ - الذى خصه بالصلاة والتسليم ومعه ملائكته الأبرار بقول تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم متّعْني بجواره، وأسعدني بقربه، واجعلني من خدم رسالته. اللهم واجعله إمامي وقدوتي، وانفعني به ونجني مما أخاف ببركته. اللهم ثبتني على دينك، وامنحني رضوانك، ولا نخيب فيك يا إلهي رجائي، أنت ربي لا إله إلا أنت سبحانك ربي وإليك المصير. اللهم اجعل الحق هدفي من كل أعمالي، واجعل الصدق شيمتي والإخلاص للحق ديدني، والقرآن حجتي.

آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد - ﷺ - نبياً ورسولاً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت على كل شيء قدير.

وبعد: فإن هذه المقدمة تشمل النقاط الآتية:-

أولاً: عوامل الاختلاف بين الأفراد والأمم.

ثانيا: عملنا في هذا السفر الجليل.

ثالثا: التعريف بالإمام الطحاوي.

رابعاً: التعريف بالشارح ونبذة مختصرة عن حياته وعصره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد

عوامل الاختلاف بين الأفراد والأمم

لماذا اختلفت البشرية فيما بينها قديماً وحديثاً..؟

ولماذا تباينت أفكارها وآراؤها..؟

ألان ذلك شيء في طبيعتها وجبلتها..؟

إن الله سبحانه وتعالى يقرر: أن البشرية أصلها واحد لا اختلاف فيه ولا تباين في عنصرها الذي خلقت منه.

قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ** ﴾

[ص: ٧١]

وإذا كان الأصل واحداً، وطبيعة الأرض لا تباين في عنصرها ولا تفاوت فلماذا اختلفوا..؟

وماهي أنواع التباين وأسباب الاختلاف..؟ وهل في مقدورنا أن نحدد ذلك ونحصره..؟

إننا نستطيع أن نقول: إن الناس دائماً يختلفون فيما بينهم في آرائهم وأفكارهم، ويختلفون في نزعاتهم وتصوراتهم.

ويختلفون على عروض التجارة وأسباب الرزق.

ويتباينون في امتلاك الأرض وحيازة متطلبات الحياة.

بل إن الخلاف أعمق من ذلك، ولا يمكن حصره في شيء معين، أو التعبير عنه بموضوع من الموضوعات.

وهذا الاختلاف في الآراء وتباين وجهات النظر شغل الكثير من العلماء والمفكرين على مدار التاريخ، وأدلى بعضهم برأيه في هذا الميدان، وحاول أن يوضح ما ذهب إليه بأدلة متتابعة، وآراء متلاحقة.

ومع ذلك كان يبقى فى النهاية شىء لا يمكن الوصول إليه، أو الكشف عن حقيقته وجوهره، لانه من الأمور التى اختص الله سبحانه وتعالى بها، ولذا يقول فى محكم كتابه:

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

ويطيب لنا أن نستعرض بعض آراء مفكرى المسلمين، علنا نضع أيدينا على ما يوضح لنا الطريق، ويبين لنا بعض المسالك فى هذه القضية.

فمثلاً نرى الشهرستانى صاحب كتاب «الملل والنحل» يقرر أن أول شبهة وقعت فى الخليقة هى شبهة إبليس - لعنه الله - ومصدر الشبهة هو استبداده بالرأى فى مقابلة النص، واختياره الهوى فى معارضة الأمر.

واستكباره بالمادة التى خلق منها - وهى النار - على مادة آدم عليه السلام وهى الطين.

وانشعبت من هذه الشبه سبع شبهات، وسارت فى الخليقة حتى صارت مذاهب بدعة وضلال.

وشبهات فرق الزيغ والكفر ولا تعدو الشبهات السابقة التى أثارها إبليس، وإن اختلفت العبارة وتباينت الطرق.

وهى بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور، وترجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق.

وإلى الجنوح إلى الهوى فى مقابلة النص.

هذا ومن جادل الأنبياء وجماعة الرسل من بعده، راجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم وجحدهم أصحاب الشرائع.

إذا لا فرق بين قولهم: ﴿ **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** ﴾ [التغابن: ٦].

وبين قوله: ﴿ **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾ [الإسراء: ٦١].

وعن هذا صار مفصل الخلاف.. قال تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٤].

فبين أن المانع من الإيمان هو هذا المعنى كما قال في الأول: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال المتأخر من ذريته كما قال المتقدم: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف: ٥٢]. ومن يتعقب أحوال المتقدمين يجدها مطابقة لأقوال المتأخرين.

قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال: ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يونس: ٧٤].

فاللعين الأول لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل لزمه أن يجرى حكم الخالق فى الخلق، أو حكم الخلق فى الخالق.

والأول: غلو.

والثانى: تقصير.

فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية، والمشبهة والغلاة من الروافض، حيث غلوا فى شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الجلال.

وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية، والجبرية، والمجسمة، حيث قصروا وصفه تعالى بصفات المخلوقين.

فالمعتزلة: مشبهة الأفعال.

والمشبهة: حلولية الصفات.

وكل واحد منهما أعور بأى عينيه شاء.

فإن من قال إنما يحسن منه ما يحسن منا، ويقبح منه ما يقبح منا فقد شبه الخالق بالخلق.

ومن قال: يوصف البارى تعالى بما يوصف به خلقه، أو يوصف الخلق بما يوصف به البارى تعالى، فقد اعتزل عن الحق.

وأصل مذهب القدرية: طلب العلة فى كل شيء، وذاك من أصل اللعين الأول إذ طلب العلة فى الخلق أولاً.

والحكمة فى التكليف ثانياً.

والفائدة فى تكليف السجود لآدم عليه السلام ثالثاً.

عن هذا نشأ مذهب الخوارج، إذ لا فرق بين قولهم: لا حُكْمَ إلاَّ لله وَلا يحكم الرجال، وبين قوله: «لا أسجد إلا لك».

﴿ لمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صَلْصَالٍ ﴾ [الحجر: ٣٣].

فالمعتزلة غلوا فى التوحيد – بزعمهم – حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات.

والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام.

والروافض: غلوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول.

والخوارج: قصروا حيث نفوا تحكيم الرجال.

وكل هذه الاختلافات والتباين فى الآراء ناشئة من شبهات إبليس الذى قال:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].

ولقد حذر الله سبحانه وتعالي من قولة إبليس هذاوبين أنه لا يريد لنا الصلاح والخير قال تعالى:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وشبه النبي - ﷺ - كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السابقة[1]. فقال: «القدرية مجوس هذه الأمة»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لتسلكن سبل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[3].

إذا هذه الخلافات التى ابتُليت بها الأمة الإسلامية، والأمم السابقة قبل ذلك تعود إلى ما قاله «إبليس» اللعين الذى أغوى آدم عليه السلام فأخرج مع زوجه من الجنة.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ [طه: ١١٦ - ١٢٢].

فإذا أردنا أن نتعرف على رأى ابن تيمية العالم السلفى فى حقيقة الخلاف نراه يقول:

«إن الاختلاف على ما ذكره الله تعالى فى القرآن قسمان: الأول: أنه يذم الطائفتين جميعاً قال تعالى:

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف. وكذلك قوله تعالى:

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٦ - ١١ بتصرف تحقيق الأستاذ أحمد فهمى محمد.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى المقدمة رقم ٣٥ بلفظ «إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم».

(٣) رواه الترمذى فى باب الإيمان برقم ٨ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٤ - ١٢٥، ورواه ابن ماجه فى الفتن ١٧.

﴿ ذلك بأنَّ اللَّهَ نزَّلَ الْكتَابَ بالْحَقِ وإنَّ الَّذينَ اخْتَلَفُوا في الْكتَاب لَفي شقَاق بعيد ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وكذلك قوله تعالى:

﴿ وما اخْتَلَفَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ إلاَّ من بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْعلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ووصف اختلاف النصارى بقوله تعالى:

﴿ فأغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إلَىٰ يَوْمِ الْقيَامَة وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

ووصف اختلاف اليهود بقوله تعالى:

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إلَىٰ يَوْمِ الْقيَامَة كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحبُّ الْمُفْسِدينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وكذلك النبي- ﷺ- لما وصف أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة قال: «كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة».

فبين أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة.

ثم يوضح لنا ابن تيمية- رحمه الله- الأسباب التى تجعل الاختلاف من الطرفين مذموماً بقوله: تارة فساد النية لما فى النفوس من البغى والحسد، وإرادة العلو فى الأرض بالفساد ونحو ذلك، فيجب لذلك ذم قول غيره أو فعله، أو غلبته؛ ليتميز عليه، أو يجب قول من يوافقه فى نسب أو مذهب أو بلد، أو صداقة أو نحو ذلك لما فى قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له.

وما أكثر هذا فى بنى آدم.

وتارة يكون سببه جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذى يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذى يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق فى

الحكم أو فى الدليل، وإن كان عالما بما فى نفسه من الحق حكماً أو دليلاً، والجهل والظلم هما أصل كل شر، كما قال تعالى:

﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأما القسم الثانى من الاختلاف المذكور فى كتاب الله، فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين، وهم المؤمنون، وذم فيه الأخرى كما فى قوله تعالى:

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فقوله: «ولكن اختلفوا فمنهم من آمن، ومنهم من كفر»، حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذم الأخرى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

مع ما ثبت فى الصحيح عن أبى ذر- رضى الله عنه- أنها نزلت فى المقتتلين يوم بدر، على، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، والذين بارزوهم من قريش وهم عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة.

وأكثر الاختلاف الذى يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول، وكذلك آل إلى سفك الدماء، واستباحة الأموال، والعداوة والبغضاء، لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك.

وكذلك جعل الله مصدر الاختلاف البغى فى قوله تعالى:

﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾ [البقرة: ٢١٣].

لأن البغي مجاوزة الحد، وقد ورد في القرآن لفظ البغي على خمسة أجه:

الأول: بمعنى الظلم: قال تعالى: ﴿ **وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ [النحل: ٩٠].

الثاني: بمعنى المعصية والزلة: قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [يونس: ٢٣. وقال: ﴿ **فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ** ﴾ أي يعصون.

الثالث: بمعنى الحسد: قال تعالى: ﴿ **بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ١٤] أي حسدا.

الرابع: بمعنى الزنى: قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ [النور: ٣٣].

الخامس: بمعنى الطلب: قال تعالى: ﴿ **وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ [الأعراف: ٤٥]. أي يطلبون لها اعوجاجاً.

وقريب من هذا الباب قول الرسول- ﷺ: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فاءتوا منه ما استطعتم»(١).

وهكذا نجد أن ابن تيمية يكاد يحصر أسباب الخلاف في الآتي:

١- الجهل بأنواعه.

٢- الظلم وأسبابه.

٣- البغي ودواعيه.

٤- والاختلاف على ما جاء به الأنبياء والرسل- صلوات الله وسلامه عليهم.

فإذا أردنا أن نتعرف على رأي الإمام الشافعي- رضي الله عنه- في أسباب الخلاف بين المسلمين نجده يقول: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس».

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة رقم ٢.

فماذا يقصد الإمام الشافعي بتركهم لسان العرب..؟

هذا النص من الإمام الشافعي – رضي الله عنه– يبين لنا أن هذا الإمام الجليل يفرق. ككل ذوي البصائر المشرقة بين مصدرين من مصادر المعرفة، لكل منهما طريقته ونسنته، ولكل منهما أسلوبه وجوه.

أما أحدهما: فهو المصدر الإلهي، إنه الوحي.

وأما الثاني: فهو المصدر البشرى عقلياً كان أو حسياً.

وللمصدر الإلهي ميدانه إنه عالم الغيب، وعالم الأخلاق.

وللمصدر البشرى ميدانه إنه عالم الطبيعة، إنه العالم المادى المحس.

وحينما تسير أمور الإنسانية على ما ينبغي أن تكون عليه، فإنها تسلم نفسها لله في كل ما يتعلق بالدين، عقيدة كانت أو شريعة أو أخلاقاً.

ولكن العهد اليوناني لم يفعل ذلك ولم يسلم أموره لله، وأخذ الإنسان منهم يقيم من نفسه رسولاً كذباً وادعاء وافتراء على الله، وأخذ يقيم من نفسه مشرعاً، وليس معه إلا الجهل والضلال المبين، وأخذ بمذهب الأخلاق، وهو أعجز أن يصل فيها إلى الفيصل الحق.

وكانت نتائج هذه النزعة تتبين شيئاً فشيئاً. ذلك أن كل فيلسوف كان يختلف عن سابقه، وكل مفكر يبتعد فيما وصل إليه عن الآخرين. لقد اختلف «إنكسمندر» عن «طاليس» واختلف «هرقليط» عنهما، وهكذا إلى أن وصل الأمر إلى «أرسطوا» الذى أراد أن يعصم الذهن عن الانحراف والضلال، فاخترع المنطق وهو– على حد تعريفه– آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير.

بيد أنه بعد أن اخترع المنطق، وبعد أن استعمله فى عصمته هو، لاحظ عليه معاصروه والذين أتوا بعده أخطاء لا حصر لها.

وأخذت البشرية تنحرف عن مصدر الوحى إلى مصدر العقل إلا من عصم ربى واستمر تيار الانحراف الذى قاد الإنسانية فيه أرسطو سائراً يتخطى القرون

قرنا بعد قرن، حتى وصل إلى الجو الإسلامى فى عهد العباسيين الأول، بل وقبل ذلك.

وأخذ المسلمون يختلفون بعد اتفاقهم، ويتفقون بعد تجمعهم، وبرز الاتجاه العقلى فى عالم الغيب، عالم ما وراء الكون، وما وراء المحس.

وهذا الميدان لا تتأتى المعرفة فيه بإنعام النظر، وإعمال الفكر، إذ أن إنعام النظر، وإعمال الفكر لا يتأتى إلا فى المجالات التى تمدنا فيها الحواس بالأساس، وبالأصل الذى نبنى عليه ونستنتج منه ونبحث فيه.

وبدون هذا الأساس الحسى، والأصل المادى، لا يقوم بناء عقلى ولا رأى نظرى سليم.

والإلهيات أو عالم الغيب، ليس مادياً،وهو إذن لا يقع تحت الحس، وليس للحس فيه مجال.

يقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ.

«إن الله ليس كمثله شيء فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر».

وإذا ما حاول الإنسان إذن أن يصل إلى عالم الغيب: عالم المجردات بإنعام النظر، فإنه يحاول السير فى طريق مغلق، إنها محاولة الجاهل، إنها محاولة بنيت على أساس خاطىء، فكل ما تصل إليه من نتائج، إنما هو تخبط وجهل، وكلما أمعن الإنسان فى الطريق العقلى محاولاً معرفة عالم الغيب، فإنه لا يزداد بذلك إلا حيرة وجهلا.

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال

قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

والرسول الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى: أرسله بلسان قومه، أرسله بكتاب يتضمن كل ما يحتاج الإنسان إلى معرفته من عالم الغيب وهو كتاب ﴿ **أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١].

وهو كتاب أيضاً: ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وليس من المحتم أن يكون لسان أرسطوا خاصاً باليونان فقط، فإن كل نزعة في البحث فيما وراء الطبيعة والأخلاق تتخذ من العقل أساساً هي نزعة « أرسطية » إنها لسان « أرسطوا » .

ولسان أرسطوا إذن عنوان على كل تأليف يقوم على العقل وحده . وأولى المحاولات من هذا النوع حدثت في الإسلام في عهده الأول، حينما أراد بعض الناس أن يتحدث في القدر بعقله- فنهى الرسول- ﷺ- عن ذلك نهياً حازماً حاسماً .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله- ﷺ- على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال :

« يا قوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه بعضاً، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه بعضاً، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به »[(١)] .

وكان الخلفاء الراشدون- رضوان الله عليهم- ينفرون مما كان ينفر منه الرسول- ﷺ .

فقد حدث في عهد عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- أن أخذ رجل يسمى « صبيغ بن عسل » يسأل عن المتشابه فطلبه عمر وأخذ يضربه بعراجين النخل- حتى دمى رأسه .

فقال : حسبك يا أمير المؤمنين، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى، يريد بذلك أنه قد تاب، وأن نزعاته قد ذهبت بها عراجين النخل، ولكن الفاروق لم يكتف بذلك بل نفاه إلى البصرة، حتى استيقن من صلاح حاله .

ونعود مرة أخرى إلى كلمة الإمام الشافعي- رضى الله عنه- « ما جهل الناس

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٢ - ١٩٦ .

ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان: «أرسطوا». وما يقوله الإمام الشافعي يحتاج إلى بيان.

فإن كان يقصد الاختلاف في الأصول، فقد أصاب الإمام الكبير المحز كما يقولون، ونطق بعين الصواب، ويكون قوله هذا هو الحق المجرد.

هذا الاحتمال غير وارد، لأن الشافعي كان يقصد خلاف أهل الكلام ولذلك ورد عنه وحولهم كلام كثير وقوى.

أما إن كان يريد مطلق خلاف، فإن حقائق التاريخ تثبت لنا أنه كانت خلافات بين الصحابة - رضوان الله عليهم.

خلافات في الفروع. وخلافات في شؤون الحياة اليومية.

أو قل اجتهادات فيما ليس فيه نص قاطع، أو وحي من الله تعالى. والقارىء لأى كتاب من كتب العقائد يلحظ هذه الأشياء التي حصرها مؤلفو بعض هذه الكتب، ومن هذا ما يقوله الشهر ستانى في كتابه الملل والنحل:

«وأما الاختلافات الواقعة في مجال مرضه عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته بين الصحابة - رضى الله عنهم فهي اختلافات اجتهادية - كما قيل - كان غرضهم منها إقامة مراسم الشرع وإدامة مناهج الدين.

فأول تنازع وقع في مرضه عليه السلام - فيما رواه الإمام البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنه قال:

«لما اشتد بالنبي - ﷺ - مرضه الذي مات فيه قال: إيتوني بدواة وقرطاس، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدى».

فقال عمر - رضى الله عنه - إن رسول الله ﷺ - قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط فقال النبي - ﷺ - قوموا عنى لا ينبغي عندى التنازع»[1].

الخلاف الثاني في مرضه: أنه قال: «جهزوا جيش أسامة - لعن الله من تخلف عنه»، فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره، وأسامة قد برز من المدينة».

---

(١) الحديث رواه البخاري في الجهاد ومسلم في الوصية ٢ وأحمد بن حنبل ١ - ٢٢٢.

وقال قوم: قد اشتد مرض النبي - ﷺ - فلا تسع قلوبنا مفارقته، والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر أي شئ يكون من أمره..؟

الخلاف الثالث: في موته عليه السلام: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من قال إن محمداً قد مات قتلته بسيفي هذا، وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى عليه السلام.

وقال أبو بكر - رضي الله عنه -: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله سبحانه وتعالى حي لا يموت. ثم تلا:

﴿ وما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتلَ انقَلَبْتُمْ علَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلبْ عَلَىٰ عَقبَيْه فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٤].

فرجع القوم إلى قوله، وقال عمر- رضي الله عنه- كأني ما سمعت هذه الآية حتى قرأها أبو بكر- رضي الله عنه.

الخلاف الرابع: في موضع دفنه عليه السلام. أراد أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكة، لأنها مسقط رأسه، ومأنس نفسه، وموطيء قدمه، وموطن أهله، وموقع رحله.

وأراد أهل المدينة من الأنصار، دفنه بالمدينة لأنها دار هجرته ومدار نصرته، وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- ومنه معراجه إلى السماء.

ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة لما روى عنه، عليه الصلاة والسلام «الأنبياء يدفنون حيث يموتون».

الخلاف الخامس: في الإمامة، وأعظم خلاف بين الأمة الإسلامية خلاف الإمامة. إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان. وقد سهل الله تعالى ذلك في الصدر الأول، فاختلف المهاجرون والأنصار فيها.

فقالت الأنصار منا أمير، ومنكم أمير، واتفقوا على رئيسهم «سعد بن عبادة الأنصاري».

فاستدركه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى الحال، بأن حضرا سقيفة بنى ساعدة وقال عمر: كنت أزور فى نفسى كلاماً فى الطريق، فلما وصلنا إلى السقيفة أردت أن أتكلم. فقال أبو بكر: مه ياعمر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ما كنت أقدره فى نفسى، كأنه يخبر عن غيب، فقبل أن يشتغل الأنصار بالكلام مددت يدى إليه فبايعته، وبايعه الناس وسكنت الفتنة.

الخلاف السادس: فى أمر «فدك» والتوارث عن النبى – ﷺ – ودعوى فاطمة عليها السلام، وراثة تارة، وتمليكاً أخرى حتى دفعت عن ذلك بالرواية، المشهورة عن النبى ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1].

الخلاف السابع: فى قتال مانعى الزكاة فقال قوم: لا نقاتلهم قتال الكفرة، وقال قوم: بل نقاتلهم. حتى قال أبو بكر – رضى الله عنه: «ولو منعونى عقالاً مما أعطوا رسول الله – ﷺ – لقاتلتهم عليه» ومضى بنفسه إلى قتالهم، ووافقه الصحابة بأسرهم.

الخلاف الثامن: فى تنصيص «أبى بكر» على «عمر» بالخلافة وقت الوفاة، فمن الناس من قال: قد وليت علينا فظاً غليظاً وارتفع الخلاف بقول أبى بكر: لو سألنى ربى يوم القيامة لقلت: وليت عليهم خير أهلهم.

الخلاف التاسع: فى أمر الشورى واختلاف الآراء فيها، واتفقوا كلهم على بيعة عثمان – رضى الله عنه – وانتظم الأمر، ولكن وقعت فى زمانة اختلافات كثيرة.

الخلاف العاشر: فى زمان «أمير المؤمنين» على – رضى الله عنه – بعد الاتفاق عليه، وعقد البيعة له وظهر فى زمانه الخوارج عليه. وكذلك ظهر فى زمانه الغلاة فى حقه.

ومن الفريقين ابتدأت البدعة والضلالة، وانقسمت الاختلافات بعده إلى قسمين: –

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الخمس ١، وفضائل أصحاب النبى ١٢، ورواه مسلم فى الجهاد ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ورواه أبو داود فى الإمارة ١٩ والترمذى فى السير ٤٤، وأحمد بن حنبل ١– ٤، ٦، ٩، ١٠.

أحدهما : الاختلافات فى الإمامة .

الثانى : الاختلافات فى الأصول .

وبعد : هل نستطيع أن نحصر الأسباب التى جعلت البشرية فيما بينها تتنازع وتتباين، أم أن ذلك شيء لا يحصره عقل، ولا يحيط به فكر؟ أنذهب إلى ما ذهب إليه الشهرستانى من أن أسباب الاختلاف ترجع فى المقام الأول إلى الشبهة التى أثارها إبليس وأصر عليها؟ .

أم أنها ترجع إلى الجهل، والظلم والبغى، وعدم فهم اللغة وتباين معارف الناس كما قال ابن تيمية؟ .

أم أننا نقول ما قاله الشافعى من أن أسباب الاختلاف ترجع أولاً إلى الآراء المضللة، والأفكار المسفسفة، التى جاءت إلى الأمة الإسلامية عن طريق الفكر اليونانى، والفارسى، ويدخل فى ذلك كل الأفكار والآراء التى لا تستند إلى وحى السماء، وهداية الرسل؟ .

أم أننا نترك كل هذه الآراء ونردد قول الله تعالى :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [هود : ١١٨، ١١٩] .

إننا نميل إلى أن هذه الأسباب مجتمعة، هى عوامل أساسية فى اختلاف البشرية وتطاحنها وتباينها، فى كثير من الآراء والاتجاهات .

وإذا كان ذلك كذلك – فعلينا أن نقطع شوطاً آخر فى البحث وهو : عملنا فى هذا السفر الجليل . وعلى الله قصد السبيل .

* * *

عملنا فى هذا السفر الجليل

لماذا قمنا بإعادة تحقيق هذا الكتاب؟

وهل الكتاب بهذه الصورة فى حاجة إلى إعادة تحقيقه مرة أخرى، وتجلية ما فيه، بعد أن عكف على العمل فيه مجموعة من العلماء، شهد لهم أهل الفضل بالعلم والتثبت؟

ونقول: إن الكتاب فعلاً كان فى حاجة إلى النظر فيه مرة أخرى، لتقييم بعض نصوصه التى كانت فى حاجة إلى تقويم، والتعريف بإعلامه، وتخريج أحاديثه التى لم تخرج فى المرات السابقة.

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يحظ بما حظيت به كتب التراث التى حققت من التبويب والتفصيل، ووضع الفهارس له، وغير ذلك من الأشياء التى تلزم الكتاب المحقق.

ولقد اعترف الشيخ أحمد شاكر محقق الطبعة الثانية بالقصور الذى لمسه فى الطبعة الأولى. والقصور الموجود فى طبعته هو ووعد مشكوراً بتلافيه فى مرة أخرى، إذا أمكنه الله سبحانه وتعالى من إعادة النظر فى هذا السفر الثمين.

يقول الشيخ أحمد شاكر: «عنى بتصحيحه والإشراف على طبعه لجنة من المشايخ والعلماء برياسة العلامة الكبير الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ رئيس القضاء فى الحجاز (حالاً) فبذلوا جهداً عظيماً فى تصحيحه، ولكنه لم يخل من أغلاط كثيرة، وكل عمل فى أوله عسير. وهم مشكورون على ما أتقنوا من تصحيحه مأجورون إن شاء الله – على ما اجتهدوا.

وقد قرأت الكتاب عند ظهوره قراءة عابرة، فلم أتقن معرفته ولم أتعمق فى دراسته.

ثم يقول: ولعلى – بهذا – أكون قد أديت الأمانة فى حدود مقدورى واستطاعتى، ولكن لا أزال أرى هذه الطبعة مؤقتة أيضاً، حتى يوفقنا الله إلى

أصل محفوظ «للشرح، يكون عمدة فى التصحيح. فنعيد طبعه ونتقنه ونخرجه إخراجاً سليماً، إن شاء الله ذلك وييسره وكان فى العمر بقية»(١).

ولكن أستاذنا أطال الله عمره – لم يف بما وعد به حتى كتابة هذه السطور. نرجو الله سبحانه وتعالى له التوفيق والسداد.

ويقول صاحب الطبعة الثالثة: الأستاذ زهير الشاويش: «هذا وقد قمنا بمقابلة مخطوطتنا على مطبوعة مكة، ومطبوعة الشيخ أحمد شاكر، وبما أننا قد جعلنا مخطوطتنا هى الأصل، فكل زيادة فى إحدى المطبوعتين أثبتناه ضمن معترضين هكذا كما أننا قمنا بترقيم الآيات، والعناية بالطبع والتصحيح، ومراجعة النصوص من أصولها، وضبط ما أشكل منها قدر المستطاع. وقد قام أستاذنا الجليل المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى بتخريج ما فيها من الأحاديث. الخ».

ومع ذلك فعند مراجعتنا لنصوص الكتاب وجدنا أشياء كثيرة تحتاج إلى تعليق أو تحقيق أو بيان. فمثلاً:-

(أ) الاعلام لم تترجم ولم يعرَّف بها وهذا شيء له قيمته عند حكمنا على أقوالهم التى وردت فى الكتاب.

(ب) ما ذكره الشارح من الكتب والمرجع بقى كما هو لم يعرَّف به ولم يدل عليه.

(جـ) الكتاب فى حاجة إلى تقسيمه إلى أبواب وفصول – حتى تسهل مهمة قراءته والانتفاع به. وهذا لم يحدث من الذين تولوا تحقيقه وطبعه فى المرات السابقة.

(د) وجود بعض التحريفات فى أسماء الأعلام والرجال الذين ورد ذكرهم فى الكتاب.

(هـ) وجود بعض التحريفات فى الآيات القرآنية فى النسخ المطبوعة ونقدم بعض النماذج على ذلك.

---

(١) مقدمة طبعة الشيخ أحمد شاكر ص٤، ٥ وكان ذلك عام ١٣٧٣هـ.

١- نسخة الشيخ أحمد شاكر ص٤٤ س١٥ جاءت الآية «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم (عين) الحق ولا تتبعوا أهواء قوم» والصواب: غير الحق: الآية ٧٧ سورة المائدة.

٢- نسخة الشيخ أحمد شاكر ص٤٥ س١٥ جاءت الآية «وبشرناه بغلام عليم». والصواب: «فبشرناه بغلام حليم».

وسنرفق بمشيئة الله فى نهاية الكتاب ثبتاً «بتبويب» الآيات المحرفة فى الطبعات السابقة.

٣- نسخ الاستاذ زهير الشاويش ص٢٧٦ س١٧ جاءت الآية «وما كان ربكم نسيا» والصواب: «وما كان ربك نسيا».

٤- نسخة الاستاذ زهير الشاويش ص٢٨٤ ص١ جاءت الآية «ولقد اخترناهم على علم العالمين» والصواب «ولقد اخترناهم علي علم على العالمين».

وأيضاً سنرفق بمشيئة الله فى نهاية الكتاب ثبتاً بتصويب الآيات فى هذه الطبعة.

(و) ولقد وفقنا الله على العثور على مخطوط لهذا الشرح النفيس بمكتبة جلال الدين السيوطى بمحافظة أسيوط بصعيد مصر وقد تكون هذه المخطوطة أكثر النسخ المخطوطة دقة، ووضوح ألفاظ. فجعلنا نسخة الأستاذ زهير الشاويش هى الأصل ورمزنا لها بحرف «أ» ونسخة مكتبة جلال الدين السيوطى هى التالية ورمزنا لها بحرف (ب) وقارنا بين النسختين وأثبتنا الفروق بالهامش. هذا مع الاستفادة بنسخة الشيخ أحمد شاكر، وكان العمل فى هذه النسخة على الوجه التالى:

١- قمنا بمراجعة الأحاديث النبوية فى كتب السنة وأثبتنا الفروق بين الأحاديث. والزيادة والنقصان - وقمنا بتخريجها على حسب الطاقة.

٢- عملنا على ترقيم الآيات القرآنية - ومراجعة كل آية على مكانها فى المصحف.

٣- تناولنا الأعلام التى جاءت فى هذا الكتاب وتثبتنا من صحتها وقمنا بالترجمة لها ترجمة مختصرة على أن تكون وافية بالغرض.

٤- أشرنا إلى الكتب التى جاء ذكرها فى الكتاب وبحثنا عنها فى مظانها - وعرفنا بها وبأماكن وجودها سواء كانت هذه الكتب مطبوعة أو مخطوطة.

ومن أمثلة ذلك - كتاب الحيدة للإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنانى المكى - المتوفى سنة ٢٤٠ والذى قام بتصحيحه والتعليق عليه فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصارى - وقام بنشره وتوزيعه - رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

٥- قمت بتقسيم الكتاب إلى مجموعة من الأبواب والفصول على النحو التالى :-

الباب الأول: حقيقة التوحيد.

ويشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: التوحيد ومعانيه: وفيه مباحث.

(أ) توحيد الألهية والربوبية.

(ب) التوحيد المطلوب.

(جـ) أنواع التوحيد الذى دعت إليه الرسل.

(د) آراء العلماء فى قوله تعالى «ليس كمثله شىء».

الفصل الثانى: صفات الله تعالى وأسماؤه: وفيه مباحث:

(أ) صفات الله تعالى وأسماؤه.

(ب) التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية سبيل أهل السنة والجماعة.

(جـ) صفات الذات وصفات الفعل.

(د) الرد على الجهمية والمعتزلة فى الصفات.

(هـ) الواجب فى باب الصفات إثبات ما أثبته الله ورسوله، ونفى ما نفاه الله تعالى ورسوله.

الفصل الثالث: وجوب الإيمان بنبوة محمد رسول الله - ﷺ : وفيه مباحث:

(أ) محمد - ﷺ - عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى.

(ب) خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين.

(جـ) المبعوث إلى الإنس والجن وعامة الورى بالحق والهدى.

الباب الثانى: القرآن، والرؤية والجدل وعلم الكلام ويشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: القرآن كلام الله تعالى: وفيه مباحث:

(أ) مذهب أهل السنة فى كلام الله تعالى والرد على مخالفيهم.

(ب) كلام الله تعالى ليس مخلوقاً.

(جـ) الرد على الأدعياء القائلين بخلق القرآن واتفاق أهل السنة على أنه كلام الله ليس مخلوقاً.

(د) كفر من زعم أن القرآن كلام البشر.

الفصل الثانى: رؤية الله تعالى: وفيه مباحث:

(أ) رؤية الله تعالى حق لأهل الجنة.

(ب) الآيات القرآنية الدالة على رؤية الله تعالى.

(جـ) الرد على من أنكر أو تأول رؤية الله تعالى.

الفصل الثالث: حكم الجدل وعلم الكلام: وفيه مباحث:

(أ) النهى عن التكلم فى الدين بغير علم.

(ب) الإضلال وأسبابه.

(جـ) وقوع علماء الكلام فى الحيرة والشك.

(د) التأويل فى كلام المفسرين.

(هـ) التأويل فى كلام المتأخرين.

الباب الثالث: الإسراء والمعراج والشفاعة والميثاق ويشتمل على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: حقيقة الإسراء والمعراج وفيه مباحث:

(أ) الإسراء والمعراج حق.

(ب) المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى.

(جـ) الحوض وذكر الأحاديث الواردة فيه.

الفصل الثانى: الشفاعة وأنواعها وفيه مباحث:

(أ) الشفاعة العظمى.

(ب) شفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

(جـ) حكم الاستشفاع بالرسول وغيره فى الدنيا.

(د) الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر.

الفصل الثالث: الميثاق الذى أخذه الله من آدم وذريته وفيه مباحث:

(أ) الاقرار بالربوبية أمر فطرى والشرك طارىء.

(ب) علم الله أزلاً بأهل الجنة وأهل النار.

(جـ) الأعمال بالخواتيم.

الباب الرابع: القدر والعرش والكرسى، وفيه فصلان:

الفصل الأول: القدر وفيه مباحث:

(أ) أصل القدر سر الله فى خلقه.

(ب) ما يرضى من المقضى وما يسخط.

(جـ) الرد على من يقول: إن التوكل ينافى تعاطى الأسباب.

(د) القدرية مجوس هذه الأمة.

(هـ) القدر يتضمن أصولاً عظيمة .

الفصل الثانى : العرش والكرسى : وفيهما مباحث :

(أ) بحث الفوقية .

(جـ) بحث كون السماء قبلة الدعاء .

(جـ) اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكلم الله موسى تكليماً .

الباب الخامس : الإيمان واختلاف الناس فيه، وفيه فصول :

الفصل الأول : تعريف الإيمان واختلاف الناس فيه وفيه مباحث :

(أ) الكلام فى زيادة الإيمان ونقصانه .

(ب) أقوال العلماء فى مسمى الإيمان .

(جـ) حكم الاستثناء فى الإيمان .

(د) أركان الإيمان .

(هـ) الإيمان بالقدر خيره وشره .

الفصل الثانى : الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة وفيه مباحث :

(أ) حقيقة قول الفلاسفة أنه لم يؤمنوا بالله ولا كتبه ولا رسله .

(ب) كلام الناس فى المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر .

(جـ) أولو العزم من الرسل .

(د) لا نجادل فى القرآن ونشهد أنه كلام الله ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله .

الفصل الثالث : البحث فى الروح والنفس وعذاب القبر وفيه مباحث :

(أ) الإيمان بملك الموت .

(ب) الإيمان بعذاب القبر .

(جـ) الدور ثلاثة : دار الدنيا، ودار البرزخ ودار القرار .

(د) اختلاف الناس فى مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة .

(هـ) الإيمان بالبعث والجزاء ومعاد البدن .

(و) العرض والحساب، والصراط، والميزان والجنة والنار .

الباب السادس : أفعال العباد وفيه فصلان :

الفصل الأول : أفعال العباد خلق لله وكسب من العباد والرد على القدرية والمعتزلة .

الفصل الثاني : العبد فاعل لفعله حقيقة، ولكنه مخلوق لله .

الباب السابع : الخلفاء والأولياء والكرامات وفيه فصول .

الفصل الأول : الخلفاء الراشدون : وفيه مباحث :

(أ) خلافة أبي بكر الصديق وثبوتها بالنص .

(ب) خلافة عمر الفاروق .

(جـ) خلافة عثمان ذي النورين .

(د) خلافة على بن أبي طالب – رضى الله عنه .

(هـ) العشرة المبشرون بالجنة .

الفصل الثاني : الأولياء وكراماتهم : وفيه مباحث :

(أ) لا نذكر علماء السلف من السابقين ومن بعدهم إلا بالجميل .

(ب) نبي واحد أفضل من جميع الأولياء .

(جـ) الإيمان بكرامات الأولياء .

(د) لا نصدق كاهناً ولا عرافاً .

(هـ) لا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا نعتقد في البله وأمثالهم أنهم أولياء .

(و) أقوال العلماء في السحر .

الباب الثامن : الأمور المتنازع فيها بين الأمة وفيه فصول :

الفصل الأول : رد المتنازع فيه إلى الله والرسول . وفيه مباحث :

(أ) أنواع الاختلاف والافتراق .

(ب) دين الله واحد فى الأرض والسماء .

الفصل الثانى : دين الإسلام وحقيقته وفيه مباحث :

(أ) هو بين الغلو والتقصير .

(ب) وبين التشبيه والتعطيل .

(جـ) وبين الجبر والقدر .

الفصل الثالث : بعض الفرق الزائغة عن الحق وفيه مباحث :

(أ) من انحرف من العلماء .

(ب) من انحرف من العباد .

(جـ) طريقة الفرق الضالة فى الوحى .

(د) خاتمـــة .

* * *

شارح العقيدة الطحاوية

هو على بن على بن محمد بن أبى العز الحنفى الدمشقى، فقيه كان قاضى القضاة بدمشق ثم بالديار المصرية[1].

ولقد كانت وظيفة القضاة فى عصر ابن أبى العز تقلد لصاحبها بإرادة السلطان وكان لها دور هام فى الحياة العامة.

وكان الشخص الذى يقع عليه الاختيار ليكون قاضيا يمثل بين يدى السلطان بالقلعة، ويكتب له كاتب الإنشاء أمراً «أو تقليداً» بتوليته القضاء، يذكر فيه عادة الأسباب التى أدت إلى اختياره، والصفات الممتازة التى يتحلى بها وأهليته لهذا المنصب، ثم يلى ذلك بعض الوصايا والنصائح التى يجب على هذا المرشح لوظيفة القضاء أن يتبعها حتى تتحقق على يديه العدالة والإنصاف بين الناس، ويخلع عليه السلطان خلعة هذا المنصب «التشريف» وينزل بهذه الخلعة من القلعة فى موكب حافل.

وكان العصر الذى عاش فيه ابن أبى العز من الجانب السياسى سيئاً إلى درجة كبيرة وضعيفاً إلى غاية شديدة، إذ أن البلاد الإسلامية كانت فى ذلك الوقت عبارة عن ممالك صغيرة يحكمها أمراء من العجم والمماليك، ولم يكن للخلافة فى ذلك الحين غير الإسم والرسم، وإنما السيادة الفعلية كانت للمتغلبين من العجم والمماليك يعزلون من يشاؤون ويولون من يريدون.

ومن أجل ذلك قل الإنتاج العلمى، وركدت الأذهان وأخذ الناس يقلدون من سبقهم فى الأصول والفروع، وعمد العلماء فى ذلك العصر إلى الجمع من كتب السابقين، والسير على نظامهم فى التأليف، وسلكوا مسلكاً حسناً فيه

---

(١) راجع شذرات الذهب جـ٦ ص٣٢٦ طبعة بيروت، والدرر الكامنة لشيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى تحقيق محمد سيد جاد الحق جـ٣ ص١٦٠، وهداية العارفين جـ١ ص٧٣٦.

فجمعوا المباحث المتعلقة بكل فن في سلك واحد، وكتبوا في ذلك المؤلفات الضخمة أحياناً والمختصرة أحياناً أخرى.

ولكن ليس معنى ذلك أن الضعف العلمي والجمود الفكري قد وصل إلى غاية لا يرجى معها نهوض، ولا توثب لبعض العلماء النابهين الذين يوجدون دائماً في كل عصر. كلا فقد وجد في ذلك العصر بعض العلماء الذين تأثروا بمنهج ابن تيمية وابن القيم وابن كثير، واستطاعوا في هذا الظلام الحالك أن يضيئوا الشموع ويبهروا العقول بما قدموه من علم وثقافة.

ومن هؤلاء العالم الجليل علي بن علي بن محمد بن أبي العز الذي قدم العديد من كتبه ومؤلفاته بفكر العالم وعقل القاضي وقلب الأديب، فأثرى المكتبة العربية والإسلامية. فجزاه الله خيراً بمقدار ما قدم وأسكنه فسيح جناته، وكانت وفاته في ذي القعدة عام ٧٩٢هـ[١].

* * *

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ١٤ ص١٧٦، وتاريخ مصر لابن اياس جـ١ ص١٢٩.

الإمـام الطحـاوى

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدى الطحاوى[١]. ولد فى بلدة «طحا»[٢] التى تقع شمال صعيد مصر، والتى تتوسط رقعة فسيحة من الأرض، معتدلة المناخ، طيبة الهواء، ساطعة الشمس.

وعلى النيل العذب الزاخر بالخير، الحامل للبركة، والمتدفق نحو الشمال فى قوة وصخب حيناً، وفى سهولة ويسر حيناً آخر فتح عينيه.

وفى بيت عرف بالعلم والفضل، وفى بيئة احترفت الزرع والحرث وتعودت الصبر والترقب فى انتظار خيرات الأرض، راصدة أماكن الخصب والنماء كانت نشأته.

وبين لداته وأترابه فى قرية «طحا» أبناء الشعب الطيب المسالم، الذى اهتدى إلى توحيد الخالق وعبادة الواحد الأحد، قبل أن تتنزل الديانات السماوية الكبرى إلى الأرض. كان الطحاوى منفرداً بينهم بقوة حافظته وسرعة بديهته واستظهاره القرآن الكريم.

ولا عجب فى استظهار الفتى «الطحاوى» لكتاب ربه مبكراً، وتفوقه على أقرانه، وإنما العجب ألا يكون كذلك، وهو ناشىء فى تلك البيئة العلمية الصالحة المتفقهة فى علوم الشريعة.

لقد كان والده – محمد بن سلامة – أحد العلماء الأجلاء الذين كانوا يقطنون صعيد مصر، وكان له باع طويل فى علم الفقه والأصول.

وخاله: إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى[٣]. قال عنه الإمام الشافعى– رضى الله عنه: المزنى ناصر مذهبى.

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات الاحناف ج١، ص١٠٤.

(٢) طحا: بالفتح – الطحو والدحو بمعنى البسط، وطحا: كورة بمصر شمال الصعيد، فى غرب النيل.

(٣) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى – صاحب الشافعى: من أهل مصر، نسبة إلى مزينة من مصر – من كتبه الجامع الصغير والكبير ١٧٥ – ٢٦٤هـ.

ويصور قوة حجته فى العلم، وسلامة منطقه فى مجادلة العلماء بقوله: «لو ناظر المزنى الشيطان لغلبه».

الطحاوى فى مدرسته الأولى

ومدرسة الطحاوى الأولى التى تلقى فيها مبادىء القرآن الكريم والكتابة هى حلقة الإمام أبى زكريا يحيى بن محمد بن عمروس والذى كان يقول عن نفسه «ليس فى الجامع سارية إلا وقد ختم أبو، زكريا عندها القرآن»(١).

وأبو زكريا هذا: رجل علم وفقه، استظهر كتاب ربه، وتفقه فى دينه وتأدب بآداب نبيه - ﷺ، وطبع طلابه بطابعه، وخرَّجهم على شاكلته باتباعهم لأوامره التى كانت دائماً تتصف بالصرامة والجد فى طلب العلم. والاعتناء بكتاب الله تعالى، والتفقه فى الدين.

وضاقت على الفتى الطحاوى حلقة أبى زكريا، ولم تعد تشبع تطلعه ورغبته فى الاستزادة من طلب العلم، فأخذ ينتقل بين حلقات العلماء فى قريته كالنحلة الدؤوب فى جمع رحيق الثمر، وعصارة الزهر، لتخرجه للناس عسلاً فيه حياة ونماء.

فجلس فى حلقة والده، واستمع منه إلى مبادئ الفقه، وآراء العلماء وحجج المعارضين.

ولكن كل ذلك لم يرض تطلعه، ولم يحقق طلبته، وقرر الذهاب إلى القاهرة دار العلم والفتوى، وملتقى العلماء والفقهاء، وفى حلقة خاله التى كانت تعقد فى بيته القريب من فسطاط عمروبن العاص - رضى الله عنه - استمع إلى سنن الإمام الشافعى، وإلى علم الحديث ورجاله، وكانت هذه الحلقة تعقد عادة فى الصباح، أما فى المساء فكانت لخاله حلقه أخرى فى مسجد عمرو بن العاص - هذا المسجد العتيق الذى كان مُنتدَى رجال الفقه والحديث قبل أن يشيد الجامع الأزهر، وكانت هذه الحلقة على الأخص تعنى بفقه الإمام الشافعى القديم والحديث.

---

(١) لسان الميزان جـ١، ص٢٨١.

وكان الطحاوى يستمع إلى خاله فى منزله فى مجلس الحديث، ويتبعه كظله فى حلقة المسجد لا تغيب عنه كلمة ولا تبعد عن فكره مسألة[١].

ثم ماذا..؟

تأتى فترة من الوقت تفقد الحلقة والمجلس الفتى الطحاوى، ويظل مكانه أمام خاله شاغراً، لا يشغله طالب، ولا يقترب منه إنسان.

انتقال الطحاوى إلى مذهب الأحناف

لماذا انتقل الطحاوى من حلقة خاله؟

ولماذا اختار مذهب الأحناف؟

تختلف الروايات التاريخية فى أسباب هذا الانتقال اختلافاً كبيراً، وتتضارب الآراء فى ذلك تضارباً بيناً.

ولن نستطيع فى هذه العجالة أن نستعرض كل ما قيل من آراء، لكننا نكتفى برواية ظاهرة كثر ترددها فى كتب التاريخ والطبقات.

ونعنى بها الرواية التى تنسب إلى القاضى أحمد بن عبد المنعم والتى تقول:

«كان أبو جعفر الطحاوى يقرأ على المزنى فقال له: «والله لا يجىء منك شىء»[٢] فغضب وتركه واشتغل على أبى جعفر بن أبى عمران الحنفى[٣]».

هذه هى إحدى الروايات، وقد يكون هذا حدث فعلاً بين المزنى والطحاوى، ولكننا لا نميل كثيراً إلى تصديق أن تكون هذه الكلمة هى السبب المباشر فى انتقاله إلى مذهب الأحناف، وترك المذهب الشافعى الذى هو مذهب الأسرة كلّها.

---

(١) الجواهر المضيئة فى طبقات الأحناف، ج١، ص١٠٥.

(٢) البداية والنهاية للإمام ابن كثير جـ١١، ص١٧٤، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١، ص٥٣.

(٣) أبو جعفر أحمد بن عمران الفقيه المحدث لأصحاب أبى حنيفة، كان يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق، والإيمان قول وعمل يزيد وينقص» مات سنة ٣٣١هـ.

ونقول: إن الذى يقوى الشك لدينا عن هذه الحادثة، ما ترويه كتب التاريخ فى ذلك العصر، وتصويرها طلاب العلم بالتواضع والألفة المتبادلة بينهم وبين أساتذتهم. فالأستاذ يحب طلابه، ويحدب عليهم كأبنائه ويسهر الليالى الطويلة بينهم ليقدم لهم الرأى النافع والقول المفيد، والزاد العلمى المثمر الذى يغذى عقولهم، ويرضى تطلعاتهم، وكان الطلاب يبادلون أساتذتهم حباً بحب، ووفاء بوفاء.

بل لا نغالى إذا قلنا بأن الطالب يحتفظ لأستاذه فى قلبه بالمكانة العالية والتقدير الكبير، حتى أن الواحد كان لا يقدم على فعل من الأفعال، أو يتخذ قراراً من القرارات قبل الرجوع لشيخه، والاستئناس برأيه، والنزول على مشورته.

وهذه الكلمة التى رويت عن المزنى ليست من الأمور التى تجعل طالباً من طلاب العلم فى ذلك العصر، ينفر من أستاذه، ويقاطع حلقته، ويحرم نفسه من علمه، فما بالك إذا كان هذا الطالب – كالفتى الطحاوى – خُلقاً وديناً وحسن أحدوثة.

إننا نعتقد أن العامل الأساسى فى انتقاله إلى مذهب الأحناف، هو أن الصورة التى بدأت تتكون لديه عن هذا المذهب – أن أصحابه فى ذلك العصر كانت لهم صورة طيبة فى أذهان الناس لما كانوا يتمتعون به من سماحة فى الرأى، وقوة فى الحجة، ومن إثراء للمسائل، فى الفروع، وافتراض لما يجدّ من الأحداث، ووضع الحلول لها.

ومما يؤيد رأينا هذا: الحديث الذى دار بين الإمام الطحاوى، وبين الشيخ محمد بن أحمد الشروطى – والذى سجله أبو يعلى الخليلى فى كتابه الإرشاد. قال الشروطى: قلت للطحاوى: لم خالفت خالك واخترت مذهب أبى حنيفة؟ فقال: لأنى كنت أرى خالى يديم النظر فى كتب أبى حنيفة فلذلك انتقلت إليه[1]. لقد رأى الفتى الطحاوى خاله – قدوته وشيخه – يقرأ كتب الأحناف ويديم النظر فيها، وهذا لا يمنع أن يستعرض فى حلقته مع طلابه بعض مسائلهم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص٥٤.

– وهو رجل له خُلق ودين – فلابد أنه كان يثنى على آرائهم، ويظهر أيضاً استحسانه على بعضها الآخر، هذه واحدة.

والثانية: أن يد الفتى الطحاوى كانت تمتد إلى خزانة كتب خاله هذه، ويختار منها ما يلائم فكره، ويقبله، وأعتقد أنه قد وجد طُلبته فى بعض هذه الكتب التى تحويها الخزانة من كتب المذهب الحنفى، الأمر الذى جعله ينفر من مذهب الشافعية، وينضم إلى مذهب الأحناف.

وهناك ثالثة: لا يمكن للباحث المدقق أن يُسقطها من الحساب وهى أنه وفد على مصر فى تلك الفترة الإمام الجليل أبو جعفر أحمد بن عمران، والذى تولى قضاء مصر فى تلك الفترة.

وكان أبو جعفر رجل علم وفضل، واستطاع فى فترة وجيزة من بقائه فى مصر أن يهيىء لنفسه مكانة فى قلوب الناس، وأن يستحوذ على مشاعرهم، لما كان يتمتع به من غزارة علم، ومن رجاحة عقل، ومن تواضع جم.

وكان لهذا القاضى أيضاً مجلس فقه وحديث، ويجلس إليه فيه طلاب العلم والأصول، فكان يدرس لهم الفقه الحنفى من عرض آراء المذاهب الأخرى فى المسألة الواحدة، ويبسطها أمام طلابه فى أمانة وصدق، وفى سهولة ويسر، ويقارن بين مذاهب الفقهاء بعقلية العالم الذى قضى عمره فى التعرف على العلم ومدارسته، ويفصل بينها بحيثيات القاضى النزيه الذى لا يميل مع الهوى أو الغرض، فبهر طلابه بعلمه، ووضح لهم ما استغلق على أفهامهم بعقله، ووضع لهم بذلك أسس التفكير الإسلامى المتزن.

وكان الطحاوى أحد هؤلاء الطلاب الذين جمعتهم حلقة هذا القاضى الجليل فعبَّ من علمه، ونهل من فقهه، وأعلن مبايعته له على مذهبه.

شيوخ الطحاوى واكتشافهم لمواهبه

هل اكتفى الفتى الطحاوى بهؤلاء العلماء الفضلاء الذين جلس إليهم واستمع إلى علمهم وفقههم؟.

إن كتب التراجم تحدثنا عن مجموعة أخرى من العلماء، ممن جلس إليهم

أو التقى بهم، أو استقى من علمهم، ويذكر بعضهم أن عددهم أربى على ثلاثمائة شيخ، وكان شديد الملازمة لكل قادم إلى مصر من أهل العلم والفضل من شتى الأقطار، حتى جمع إلى علمه ما عندهم من العلوم[1] من هؤلاء العلماء:

١- يونس بن عبد الأعلى.

٢- هارون بن سعيد الأيلى.

٣- محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم.

٤- بحر بن نصر.

٥- عيسى بن وهب. وغيرهم من علماء عصره، ومن أصحاب ابن عيينة وابن وهب[2].

ثم التقى بعد هؤلاء بأبى عبد الله محمد بن عبدة القاضى[3]، وكان رجلاً سمحاً جواداً يحب طلاب العلم، ويحدب عليهم فاستكتبه أبو عبيدة وأعجب به، فأغدق عليه الكثير من ماله، ولم يبخل عليه بعلمه.

كان لهذا القاضى مجلس علم وفقه وأدب، وكان من عادته أن يجلس كل ليلة مع رجل من أهل العلم والفضل يدارسه فى أمور الدين، ما عدا ليلة الجمعة فإنه كان يخلو فيها مع نفسه.

فكان يجلس فى الليلة الأولى من كل أسبوع مع العالم الجليل منصور ابن إسماعيل المصرى.

وفى الليلة الثانية: مع أبى جعفر أحمد الطحاوى.

والثالثة: مع محمد بن الربيع الجيزى.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ترجمه الإمام الطحاوى ص٩ تحقيق جماعة من العلماء.

(٢) لسان الميزان لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ جـ١ ص٢٧٤.

(٣) محمد بن عبده حرب المصرى أبو عبد الله من كبار القضاة ولى النظر فى المظالم بمصر أربع سنين، ورحل إلى العراق فمات هناك، كان سخياً مفضالاً قوى النفس جباراً مهيباً ٢١٨ - ٣١٣هـ.

والرابعة: مع عفان بن سليمان.

والخامسة: مع الإمام السجستانى.

والسادسة: مع جمع حافل من الفقهاء ورجال العلم.

وكان من عادة الإمام الطحاوى أن يتصدر هذه الحلقات بجوار أستاذه وشيخه أبى عبيدة الله.

وفى يوم من الأيام دخل رجل الحلقة فوجد الطحاوى فى صدرها، وكان دقيق العظم، نحيف البدن، ولم يتخط مرحلة الشباب بعد، فبادره بأسئلته، ليعجم عوده، ويتعرف على علمه، إن كان عنده علم، أو ينتحى عن الصدارة لمن هو أغزر مادة وأكثر فقهاً؟

ولكن الطحاوى بهر الرجل بقوة حافظته، وسلامة فهمه، وتنظيم عقله، فبادره بسؤاله الأخير قائلاً:

«إيش روى أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أمه عن أبيه؟

قال الطحاوى: فقلت حدثنا بكار بن قتيبة، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن عبد الأعلى الثعلبى، عن أبى عبيدة، عن أمه عن أبيه، أن رسول الله – ﷺ – قال: «إن الله ليغار للمؤمن فليغر»(١).

تدرى ما تقول؟ تدرى ما تتكلم به؟ قلت: ما الخبر؟

قال: رأيتك العشية مع الفقهاء فى ميدانهم، وأنت الآن فى ميدان أهل الحديث، وقلَّ من يجمع ذلك.

فقلت: هذا من فضل الله وإنعامه.

الطحاوى محدثاً

وكيف لا يكون الطحاوى محدثاً وقد فتح عينيه على كتب السنن والأحاديث، وسمع من خاله المزنى كتاب السنن روايته عن الشافعى – رضى الله

---

(١) لسان الميزان جـ١ ص٢٧٦.

عنه، وسمع الحديث أيضاً من أهل عصره، حتى صار له خبرة ودراية بعلم الحديث ورجاله، ومع ذلك لم يسلم من النقد والاتهام.

ففى كتاب «المعرفة» للبيهقى نجد فصلاً للنيل من الطحاوى، ورميه بالجهل فى هذا الميدان، ونص عبارته:

«إن علم الحديث لم يكن من صناعته، وإنما أخذ الكلمة بعد الكلمة من أهلها ثم لم يحكمها»[1].

وهذا الكلام الذى ينال به البيهقى من الطحاوى، لا يقبل منه، لأنه ليس له دليل يدعمه، ولا برهان يُثبت ما ادعاه عليه، وخصوصاً، بعد ما شهد للطحاوى جمع غفير من العلماء بالحفظ والتثبت.

منهم على سبيل المثال لا الحصر. ابن عبد البر الأندلسى المالكى – رحمه الله – وهو أعلم من البيهقى بحاله كما يقرر صاحب شذرات الذهب. ومنهم أيضاً أبو سعيد بن يونس المصرى مؤرخ مصر، ولا شك أنه أعلم من البيهقى بحال علماء مصر على الأقل، فإن صاحب البيت أدرى بمن فيه وهذان العالمان الجليلان، أقرب زماناً بالطحاوى من البيهقى، إذا كان ذلك كذلك فبماذا نفسر ما قاله الإمام البيهقى على رجل شهد له الكثير بالعلم والفضل؟.

أيكون لتحول الإمام الطحاوى إلى مذهب الأحناف دخل فى هذا الهجوم؟ بعض الروايات التاريخية تقول ذلك[2].

وليس هناك من الأدلة غير هذه الرواية التى يرويها ابن حجر العسقلانى فى كتابه: لسان الميزان، وإن كانت طريقة الهجوم من الإمام البيهقى، تجعل احتمال هذا الاتهام قائماً حتى نعثر على غير هذه الرواية مما ينقص هذا الاحتمال. إن الإمام الطحاوى له قدم ثابتة فى علم الحديث، وكتابه «شرح معانى الآثار» الذى اتفق كثير من المنصفين على أنه من خيرة الكتب التى صنفت فى الحديث خير شاهد على ذلك.

وهو كتاب يعرض فيه الأبحاث مقرونة بدليلها ويذكر فى غضون بحثه

---

(١) المصدر السابق. (٢) لسان الميزان جـ١ ص٢٧٦.

المسائل الخلافية، ويناقشها، ثم يرجح ما استبان له من الصواب منها[١]. ومن النماذج التى تدل على تثبيته فى الرواية والأسانيد، ما يرويه صاحب طبقات الشافعية عنه بقوله:

قال الطحاوى: حدثنا المزنى قال: سمعت الشافعى يقول:

«دخل ابن عباس على عمرو بن العاص – وهو مريض – فقال: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت وقد أفسدتُ دنياى كثيراً وأصلحت من دينى قليلاً فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزتُ. ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبتُ ولو كان ينجينى أن أهربَ هربتُ فعظنى بموعظة أنتفع بها ابن أخى.

فقال: هيهات يا أبا عبد الله.

فقال: اللهم أن ابن عباس يقنطنى من رحمتك فخذ منى حتى ترضى»[٢]

وعن عمر التنوحى: قال سمعت أبا جعفر الطحاوى قال: «حدثنا يزيد بن سنان، حدثنا يزيد بن بيان، عن أبى الرجال، عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا قيَّض الله له عند سنه من يكرُمه»[٣].

وعن أبى محمد الجوهرى إملاء، حدثنا ابن المظفر، حدثنا الطحاوى حدثنا المزنى، حدثنا الشافعى، حدثنا مالك عن أبى النضر، عن أبى سلمة عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله – ﷺ – يصوم حتى نقول: لا يُفطر، ويُفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله، استكملَ صيام شهر قطٌ إلا رمضان، وما رأيته أكثر صياماً منه فى شعبان»[٤].

إذن كان الطحاوى، محدثاً وراوية، ولم يكتف بما حصلّه من خاله، وقراءته سنن الشافعى عليه، ولكنه استمع أيضاً إلى المحدث إبراهيم بن أبى داود الضريس الذى كان يقال عنه انه من الحفاظ المكثرين.

ولقد ساعد الطحاوى على ذلك، حافظة واعية، وذاكرة قوية تعى ولا تهمل، وتحفظ ولا تنسى.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: طبع المكتب الإسلامى المقدمة ص١١.
(٢) طبقات الشافعية ج٢ ص٩٧ تحقيق عبدالفتاح الحلو، ومحمود محمد الطناحى.
(٣) تذكرة الحفاظ جـ٣ ص٨١١.
(٤) المصدر السابق جـ٣ ص٨١٣.

«من ذلك أنه ذهب شاهداً أمام محمد ابن عبد الله قاضى مصر فى ذلك الوقت، فأكرمه غاية الإكرام، وبعد الإنتهاء من شهادته سأله القاضى عن حديث كتبه عنه رجل من ثلاثين سنة فأملاه عليه»(١).

سياحة الطحاوى فى طلب العلم

كان من عادة العلماء فى ذلك العصر السياحة فى أقطار الأرض طلباً للعلم، وبحثاً عن المعرفة، وقلّما نجد عالماً من علماء المسلمين إلا وكانت له رحلة، ومن هذا المنطلق سافر الصحاوى إلى الشام، بحثاً عن المعرفة ومفتشاً عن أصحابها، فسمع منم علماء بيت المقدس، ومن فقهاء غزة وعسقلان، وألقى رحله بدمشق عند قاضيها الثبت المحقق أبى حازم عبد الحميد بن جعفر الذى تولى القضاء للخليفة المعتضد، ثم من بعده للخليفة المكتفى(٢).

ثم ماذا؟

أذهب الطحاوى إلى بلاد أخرى بعد رحلته إلى الشام؟

هل اتجه إلى مكة والمدينة، اقتداء بالعلماء الذين كانوا يولون وجوهَهم إلى هاتين المدينتين المكرمتين طلباً للعلم وعباً من ينابيعه؟

أم اتجه إلى بغداد، وكانت أيضاً كعبه القُصَّاد والعلماء من أقطار الأرض فاطبة.

ليس لدينا من الأدلة ما يشير إلى ذلك، أو يدل عليه، على كثرة المراجع التى رجعنا إليها فى هذا الصدد.

عودته إلى مصر، وذكر بعض العلماء الذين تخرجوا على يديه

لقد عاد الطحاوى إلى مصر ليتصدر مجالس العلماء والفقهاء(٣)، ويربى

---

(١) لسان الميزان جـ١ ص٢٨٢.
(٢) الجواهر المضيئة لابن أبى الوفا جـ١ ص٢٩٦، وراجع كتاب الأعلام للزركلى جـ١ ص٩٧.
(٣) المصدر السابق جـ١ ص١٢١.

جيلاً من أبناء المسلمين، فى أنحاء الأرض قاطبة ممن كانت الرغبة تدفعهم للاتجاه إلى الديار المصرية. هذا الجيل الذى انتشر بعدها فى البلاد الإسلامية، وكان لهم ذكر وعمل.

وهم عدد يجل عن الحصر والعد، ويطيب لنا أن نذكر بعضهم على سبيل المثال. منهم:

١- أبو بكر أحمد بن محمد بن منصور، الذى انتقل إلى بغداد، واستمع إلى الإمام الكرخى، ولما أصيب الكرخى جعل الفتوى إليه دون أصحابه فأقام ببغداد زمناً طويلاً يحدث عن الطحاوى ويفتى بأقواله.

٢- ومنهم أبو محمد عبد العزيز محمد التميمى الجوهرى قاضى الصعيد.

٣- وأحمد بن القاسم بن عبد الله البغدادى المعروف بابن الخشاب الحافظ.

٤- وأبو بكر على بن أحمد بن سعدويه البردعى.

٥- وأبو القاسم عبد الله بن على الداودى القاضى شيخ أهل الظاهر فى عصره.

٦- وأبو الحسن محمد بن أحمد الأخميمى.

٧- وأبو القاسم مسلمة بن القاسم بن إبراهيم القرطبى.

٨- وأبو بكر محمد بن إبراهيم بن على المقرى الحافظ، وسمع منه كتابه «معانى الآثار».

٩- أبو الحسن على بن أحمد الطحاوى «ابنه».

١٠- أبو بكر محمد جعفر بن الحسين البغدادى.

١١- ميمون بن حمزة العبيدلى روى عنه العقيدة[١].

مؤلفاته وآثاره

ترك الإمام الطحاوى مجموعة من الكتب والمصنفات، لا ينكر منصف أنها

---

(١) يمكن الرجوع إلى تراجم هؤلاء الاعلام فى طبقات الاحناف، وإلى كتاب الولاة والقضاة، وقد ترجم لبعضهم الزركلى صاحب كتاب الاعلام، وأيضاً كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان.

أثرت المكتبة العربية، وقامت بدور ملحوظ فى خدمة طلاب العلم والمعرفة، من ذلك :

١- العقيدة الطحاوية - وقد تناولها كثير من العلماء بالشرح والتعليق وطبعت عشرات الطبعات، ويدرسها «طلاب كليات الشريعة وأصول الدين» بالمملكة العربية السعودية.

٢- أحكام القرآن فى نيف وعشرين جزءاً.

٣- شرح معانى الآثار فى الحديث، وهو مجلدان، ويعتبر هذا الكتاب أول تصانيفه.

٤- بيان مشكل الآثار- وهو آخر تصانيفه، واختصرها ابن رشد المالكى.

٥- المختصر فى الفقه، وولع الناس بشرحه، وعليه الآن عدة شروح.

٦- شرح الجامع الصغير، والجامع الكبير.

٧- شروط الكبير، وشروط المتوسط، وشروط الصغير.

٨- المحاضر والسجلات والوصايا والفرائض فى الحديث وهى أربعة أجزاء.

٩- كتاب نقض كتاب المدلَّسين على الكرابيسى.

١٠- كتاب العزل.　　　١١- المختصر الكبير والمختصر الصغير.

١٢- كتاب التاريخ الكبير.

١٣- كتاب فى مناقب أبى حنيفة رحمه الله.

١٤- كتاب النوادر الفقهية فى عشرة أجزاء.

١٥- كتاب النوادر والحكايات فى نيف وعشرين جزءاً.

١٦- كتاب حُكم أراضى مكة وقسم الفىء والغنائم.

١٧- كتاب الرد على عيسى بن أبان فى كتابه الذى سماه خطأ الكتب.

١٨- كتاب الرد على أبى عبيدة فيما أخطأ فيه فى كتاب النسب.

١٩- كتاب اختلاف الروايات على مذهب الكوفيين.

توليه القضاء وأقوال العلماء فيه

وبعد عام السبعين والمائتين تولى الإمام الطحاوى قضاء مصر بعد وفاة قاضيها محمد بن عبدة. وصار رئيساً لمذهب الأحناف وذلك فى عهد الدولة العلولانية، فسار فى الناس سيرة حسنة وكان موضع تقدير العامة والخاصة، لما كان يأخذ نفسه به من الاعتماد على ربه والاستمساك بأوامر دينه ومن كان كذلك أجمع بين الحسنيين الدنيا والآخرة، ولهذا أسند إليه منصب القضاء فلم يكن له معارض وأسندت إليه رياسة المذهب الحنفى فاستقبل الخبر من الجميع بالقبول والارتياح.

قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازى فى طبقات الفقهاء: انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة فى مصر.

وقال عنه صاحب كتاب شذرات الذهب: شيخ الحنفية الثبت، وصنف التصانيف منها العقيدة السنية، وبرع فى الفقه والحديث[١].

وقال ابن يونس: كان ثقة ثبتاً، فقيهاً عاقلاً لم يخلف مثله.

وقال سلمة الأندلسى فى كتبه «الصلة» كان الطحاوى ثقة جليل القدر عالماً باختلاف العلماء بصيراً بالتصانيف، وكان يذهب مذهب أبى حنيفة، وكان شديد العصبية فيه لا يرى حقاً فى خلافه[٢]. وقال ابن عبد البر فى كتاب العلم: كان الطحاوى من اعلم الناس بسير الكوفيين، وأخبارهم وفقههم مع مشاركته فى جميع مذاهب الفقهاء[٣].

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٥٠٩.

(٢) هذا لا نوافق عليه – صاحب كتاب الصلة لأن الطحاوى فى كتابه (معانى الآثار) يرجح مما لم يقل به إمامه، ومما يؤيد ذلك ما قاله ابن زولاقة: سمعت أبا الحسن على ابن أبى جعفر الطحاوى يقول: سمعت أبى يقول وذكر فضل أبى عبيد وفقهه فقال كان يذاكرانى فى المسائل فأجبته يوماً فى مسألة فقال لى: ما هذا؟ قول أبى حنيفة فقلت له أيها القاضى أوَكل ما قاله أبو حنيفة أقول به؟ فقال: ما ظننتك إلا مقلداً: فقلت له وهل يقلد إلا عصبى فقال لى: أو غبى فطارت بمصر حتى صارت مثلاً وحفظها الناس.

(٣) طبقات الأحناف جـ١، ص١٠٥.

قال : وسمع أبو جعفر الطحاوى منشداً ينشد :

إن كنت كاذبةً الذى حدثتنى ... فعليك إثم أبى حنيفة أو زفر

فقال أبو جعفر، وددت لو أن علىَّ إثمهما وأن لى أجرَهما(١).

الطحاوى فى أيامه الأخيرة

كان للإمام الطحاوى مكانة كبيرة فى قلوب العلماء والفقهاء، واستمرت هذه المكانة فى حياته وبعد مماته، ومن دلائل ذلك ما كان يفعله معه العلماء ورجال الفقه والقضاء، ومن أمثله ذلك القاضى عبد الرحمن بن إسحاق بن محمد بن معمر الجوهرى، كان لا يركَب إلا بعد أبى جعفر، ولا ينزل إلا بعد نزوله، فقيل له فى ذلك..

فقال : هذا واجب لأنه عالمنا وقدوتنا، وهو أسن منى بإحدى عشرة سنة ولو كانت إحدى عشرة ساعة، لكان القضاء أقل من أن أفتخر به على أبى جعفر.

هذه هى أخلاق السلف الصالح منهم علماء هذه الأمة، كانوا يحرصون دائماً على التخلق بالأخلاق الفاضلة، ويطبقون القرآن على كل سلوكياتهم وأعمالهم، ويتأدبون بآداب النبوة، ويقتدون بأفعال الرسول - ﷺ - فى كل ما يأتون من أمر أو ينتهون من نهى، وكانوا يقعِّدون لأنفسهم قواعد يلتزمونها ويحددون حدوداً لا يتعدونها، لا فرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم، عالمهم ومتعلمهم.

ومن الرجال الذين كانوا يلازمون الإمام الطحاوى فى أيامه الأخيرة القاضى أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد، ليستمع منه، ويتعلم على يديه، ويتزود منه بكل ما يحتاج إليه من فقه أو حديث.

وفى يوم دخل مجلس الإمام الطحاوى رجل من عامة الشعب يسأل عن مسألة فقهية وكان القاضى يجلس معه.

---

(١) لسان الميزان ج١ ص٢٧٦.

فقال الطحاوى مجيباً السائل من مذهب القاضى أيده الله كذا وكذا.

فقال له: يا هذا من مذهب القاضى ما قلت لك، فأعاد الرجل القول.

فقال القاضى: أفته أعزك الله.

فقال: إذا أذن القاضى، قال قد أذنت فأفتاه[١].

وهذا يدل على الأدب الجم، والتواضع الكبير من عالم العلماء، وشيخ الفقهاء وأستاذ المتكلمين.

ولا غرو فى ذلك، فإن القرآن أدبهم أحسن الأدب، واقتداؤهم بأخلاق الرسول - ﷺ - هذب مشاعرهم، وأقامهم على ظهر الأرض قادة ومعلمين.

وفاة الإمام الطحاوى

وإذا كان لكل بداية نهاية، ولكل أجل كتاب، فإن الإمام الطحاوى قد استوفى عمره وأجله، بعد أن ملأ الدنيا دوياً بعلمه وفقهه، وترك بصماته على تاريخ هذه الأمة وتراثها، ولا زالت آثاره المخطوطة والمطبوعة تمد طلاب العلم والمعرفة بالزاد الذى لا ينضب وبالفهم العميق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله.

وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[٢]، ويكاد يكون هذا التاريخ الذى أجمع عليه كتاب السير، ما عدا محمد بن إسحاق بن النديم. الذى يقرر فى كتابه الفهرست[٣] أنه سنة اثنتين وعشرين بعد الثلاثمائة وقد بلغ الثمانين رحمه الله - رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين.

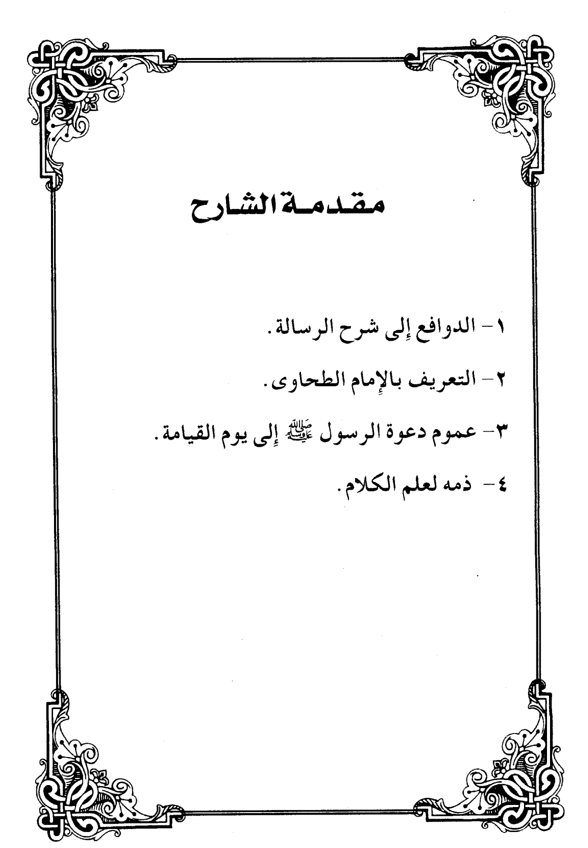
* * *

أ.د/ عبد الرحمن عميره

---

(١) المصدر السابق جـ١، ص٢٨١.   (٢) المنتظم لابن الجوزى جـ٦، ص٢٥٠.

(٣) الفهرست لابن النديم ولسان الميزان ج١، ص٢٧٧.



مقدمة الشارح

١- الدوافع إلى شرح الرسالة.

٢- التعريف بالإمام الطحاوى.

٣- عموم دعوة الرسول ﷺ إلى يوم القيامة.

٤- ذمه لعلم الكلام.

مقدمة الشارح[١]

الحمد لله، نحمده ونستيعنه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضللْ فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفرع، ولهذا سمى الإمام أبو حنيفة[٢] - رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه فى أوراق[٣] أصول الدين: «الفقه الأكبر» وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب[٤]، ولا نعيم ولا طمانينة، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله. ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه.

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تُبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها.

---

(١) هو على أرجح الأقوال: على بن على بن أبى العز الحنفى مولده ٧٣١هـ وتوفى سنة ٧٩٢هـ، الدرر الكامنة جـ٣ ص١٥٩.

(٢) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت، إمام الحنفية، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، قيل أصله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة، عن الإمام الشافعى «الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة» له مسند فى الحديث جمعه تلاميذه، والمخارج فى الفقه، توفى ببغداد عام ١٥٠ هـ «وفيات الأعيان جـ٢ ص١٦٣».

(٣) فى المطبوعة بزيادة (من).

(٤) فى ب: لانه حياة القلوب.

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريف الطريق الموصل إليه، وهى شريعته المتضمنة لأمره ونهيه .

والثاني : تعريف[1] السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم .

فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى الله ما أنزل[2] على رسوله روحاً، لتوقف الحياة الحقة عليه، ونوراً لتوقف الهداية عليه . فقال الله تعالى :

﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ [غافر : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** ﴾ [الشورى : ٥٢، ٥٣] .

ولا روح إلا فيما جاء به الرسول[3]، ولا نور إلا فى الاستضاءة به، وهو الشفاء كما قال تعالى :

﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ [فصلت : ٤٤] .

فهو وإن كان هدى وشفاء مطلقاً، ولكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنون خُصوا بالذكر . والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، لا هدى إلا فيما جاء به . ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل فى تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل فى تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعاء[4] إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين، فهو واجب على الكفاية منهم .

وأما ما يجب على أعيانهم، فهذا يتنوع بتنوع قُدرهم[1]، وحاجتهم

---

(١) فى المطبوعة تعريب : وهو تحريف .
(٢) فى ب : ما أنزله .
(٣) فى ب (الرسل) .
(٤) سقط من « أ » والدعاء .

ومعرفتهم، وما أمر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم، أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتى المحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

وينبغى أن يعرف أن عامة من ضل فى هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق، فإنما هو لتفريطه فى اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى:

﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

قال ابن عباس[٢] رضى الله عنهما «تكفَّل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، أن لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة» ثم قرأ هذه الآيات. وكما فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره عن على رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن»[٣].

قلتُ: فما المخرج منها يا رسول الله..؟ قال «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى[٤] غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن ولا تنقضى

---

(١) بضم القاف وفتح الدال: جمع قدرة.

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى، حبر الأمة، الصحابى الجليل، ولد بمكة ٣ق. هـ ولازم رسول الله - ﷺ، وشهد مع على - رضى الله عنه - الجمل وصفين، وكف بصره فى آخر عمره فسكن الطائف وتوفى بها سنة ٦٨هـ له فى الصحيحين وغيرهما ١٦٦ حديثا. (الإصابة ت ٤٧٧٢).

(٣) الحديث رواه الدارمى فى فضائل القرآن والترمذى فى ثواب القرآن ١٤.

(٤) فى «أ» «من».

عجائبه ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم(١)».

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى.

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً يدينون به إلا أن يكون موافقاً لدينه الذى شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام.

وقد نزّه الله نفسه عما يصفه به العباد، إلا ما وصفه به المرسولن بقول سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد.

ومضى على ما كان عليه الرسول - ﷺ خيرُ القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصى به الأول الآخر، ويقتدى فيه اللاحق بالسابق. وهم فى ذلك كله بنبيهم محمد - ﷺ - مقتدون، على منهاجه سالكون، كما قال تعالى فى كتباه العزيز:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فإن كان قوله: (ومن اتّبعنى) معطوفاً على الضمير فى (أدعو) فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله. وإن كان معطوف على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم وكلا المعنيين حق.

---

(١) قال الألباني: هذا حديث جميل المعنى، ولكن اسناده ضعيف، فيه الحارث الأعور وهولين، بل اتهمه بعض الأئمة بالكذب، ولعل أصله موقوف على على - رضى الله عنه - فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبى - ﷺ.

وقد بلغ الرسول - ﷺ - البلاغَ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين وسلك سبيله خيرُ القرون.

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر الصادق - ﷺ - «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم»[1].

* * *

---

(١) الحديث رواه البخاري في الاعتصام ١٠ ومسلم في الإيمان ٢٤٧ وأبو داود في الفتن ١ والترمذي في الفتن ٢٧، ٥١ وابن ماجه في المقدمة ١، وفتن ٩، وأحمد بن حنبل جـ٥ ص٣٤، ٢٦٩.

عموم دعوة الرسول إلى يوم القيامة ووجوب طاعته

ومن قام بهذا الحق من علماء المسلمين الإمام أبو جعفر أحمد بن الأزدى الطحاوى، تغمده الله برحمته، بعد المائتين فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفى، وصاحبيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميرى الأنصارى[1]، ومحمد بن الحسن الشيبانى[2] – رضى الله عنهم – ما كانوا يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين.

وكلما بعد العهد، ظهرت البدع، وكثر التحريف، سماه أهله تأويلا ليقبل وقلَّ من يهتدى إلى الفرق بين التحريف والتأويل. إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ فى الجملة تأويلاً، وإن لم يكن ثَمَّ قرينة توجب ذلك، ومن هنا فإذا سموه تأويلاً قُبِل وراج على من لا يهتدى إلى الفرق بينهما. فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة، ودفع الشبه الواردة عليها. وكثر الكلام والشغب «وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شُبه المبطلين وخوضهم فى الكلام المذموم»[3] الذى عابه السلف، ونهوا عن النظر فيه، والاشتغال به والإصغاء إليه، امتثالاً لأمر ربهم، حيث قال:

---

(١) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصارى، صاحب الإمام أبى حنيفة وتلميذه ولد سنة ١١٣ هـ ولى القضاء ببغداد أيام المهدى والهادى والرشيد ومات فى خلافته ببغداد سنة ١٨٢هـ من كتبه الخراج، وأدب القاضى، وغير ذلك.

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد، من موالى بنى شيبان، أو عبد الله، إمام بالفقه والأصول وهو الذى نشر علم أبى حنيفة، أصله من قرية «حرستة» فى غوطة دمشق، وولد بواسط سنة ١٣١ هـ ونشأ بالكوفة، ولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه فمات بالرى سنة ١٨٩هـ، من كتبه «المبسوط» «الحجة على أهل المدينة» الفهرست لابن النديم جـ١، ص٢٠٢.

(٣) ما بين القوسين سقط من ب.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فإن معنى الآية يشملهم.

وكل من التحريف والانحراف على مراتب: فقد يكون كفراً وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأً.

عموم دعوة الرسول إلى يوم القيامة ووجوب طاعته.

فالواجب اتباع المرسلين، واتباع ما أنزله الله عليهم. وقد ختمهم الله بمحمد - ﷺ - فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت[١] به حجة العباد على الله.

وقد بين الله به كل شيء، وأكمل له ولأمته الدين خبراً وأمراً[٢] وجعل طاعته طاعة له، ومعصيته معصية له، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول، وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله صدوا صدودا، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً، كما يقول كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحس[٣] الأشياء بحقيقتها، أى ندركها ونعرفها، ونريد التوفيق بين الدلائل التى يسمونها العقليات - وهى فى الحقيقة جهليات، وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول، أو نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة، وكما يقول كثير من المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة: إنما نريد الأعمال بالعمل الحسن، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل

---

(١) فى ب (وانقضت).

(٢) قال العلامة الشيخ عبد الله بن حسن: الخبر: هو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. والأمر: هو توحيد الألوهية. انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين» الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٣) فى المطبوعة: نحسن.

الذى يسمونه: حقائق، وهى جهل وكما يقوله كثير من المتكلمة والمتأثرة، إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة، والتوفيق بينها وبين الشريعة، ونحو ذلك.

فكل من طلب أن يحكِّم فى شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول، ويظن أن ذلك حسن، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه، فله نصيب من ذلك، بل ما جاء به الرسول كاف كامل يدخل فيه كل حق، وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليه، فلم يعلم ما جاء به الرسول فى كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ولا فى كثير من الأحوال العبادية، ولا فى كثير من الامارات السياسية أو نسبوا إلى شريعة الرسول - بظنهم وتقليدهم - ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم، وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم، كثر النفاق، ودرس كثير من علم الرسالة.

بل إنما يكون البحث التام، والنظر القوى والاجتهاد الكامل، فيما جاء به الرسول - ﷺ، ليعلم ويعتقد، ويعمل به ظاهراً وباطناً، فيكون قد تُلى حق تلاوته، وأن لا يهمل منه شيء.

وإن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائماً به، وأن لا يؤمن ببعضه ويشرك[1] ببعضه، بل يؤمن بالكتاب كله، وأن يُصان عن أن يدخل فيه، ما ليس منه من رواية أو رأى، أو يتبع ماليس من عند الله اعتقاداً أو عملاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٢].

وهذه كانت طريقة السابقين الأولين، وهى طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأولهم السلف القديم من التابعين الأولين، ثم من بعدهم، ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط[2] بالإمامة.

---

(١) فى ب (ويترك بعضه).
(٢) الوسط هنا: خيار الناس وعدولهم كما فى قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾.

العلم بالكلام هو الجهل

فعن أبى يوسف – رحمه الله تعالى – أنه قال لبشر المريسى[١]: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً فى الكلام قيل: زنديق، أو رمى بالزندقة[٢]، أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه، أو ترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله، فيكون عليماً بهذا الاعتبار. والله أعلم.

وعنه أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء[٣] أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب.

وقال الإمام الشافعى[٤] رحمه الله تعالى: حكى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم فى العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب[٥] والسنة وأقبل على الكلام.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى شعراً:

كلُّ العلومِ سوى القرآن مشغلةٌ

إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين

---

(١) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة عبد الرحمن المريسى. فقيه معتزلى عارف بالفلسفة يرمى بالزندقة، وهو رأس الطائفة «المريسية» القائلة بالإرجاء وإليه نسبها أخذ الفقه عن القاضى أبى يوسف وقال برأى الجهمية، قيل كان أبوه يهودياً له تصانيف وللدارمى كتاب: النقض على بشر المريسى. توفى سنة ٢١٨هـ.

(٢) الزندقة: يقول الخوارزمى: إن كلمة زنديق تعريب للكلمة الفارسية التى كانت ينسب بها إلى كلمة (زند) وهى اسم كتاب «مزدك» فى تأويل كتاب «الا فستا» لزرادشت، ويرى الإمام أحمد بن حنبل أن الجهمية والمعتزلة الذين يقولون: إن القرآن مخلوق هم الزنادقة. ويقرر الإمام البخارى فى كتابه «خلق أفعال العباد»: أن الجهمية هم الزنادقة.

(٣) الكيمياء: مثل السيمياء اسم صنعة وهو عربى. مختار الصحاح.

(٤) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى، ولد سنة ١٠٥هـ أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة حمل إلى مكة وهو ابن سنتين وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفى بها سنة ٢٠٤هـ قبره معروف بالقاهرة. من مؤلفاته كتاب الأم، والرسالة فى أصول الفقه، وأدب القاضى، وغير ذلك، وللحافظ عبد الرؤوف المناوى كتاب «مناقب الإمام الشافعى».

(٥) سقط من ب (الكتاب). (٢) فى ب: المغتدى بالغين المعجمة.

العلم ما كان فيه قال : حدثنا
وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب فى الفتاوى، أنه لو أوصى لعلماء بلده : لا يدخل المتكلمون.

وأوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم، فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام، ذكر ذلك بمعناه فى «الفتاوى الظهيرية».

لن يتم الوصول بغير اتباع ما جاء به الرسول

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول . . ؟!

ولقد أحسن القائل :

أيها المغتدى[1] ليطلب علماً كل علم عبدٌ لعلم الرسول
تطلب الفرع كى تصحح أصلا كيف أغفلت علم أصل الأصول . ؟

ونبينا – ﷺ أوتى الكلم وخواتمه وجوامعه، فبُعث بالعلوم الكلية، والعلوم الأولية والأخروية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا فى جوابها، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرا[2]. قليل البركة، بخلاف كلام المتقدمين، فإنه قليل كثير البركة، لا كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم إن طريقة القوم أسلم، وإن طريقتنا أحكم وأعلم، ولا كما يقول من لم يقدرهم من المنتسبين إلى الفقه : إنهم لم يتفرغوا لا ستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره؟؟ والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه؟

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعمق علومهم وقلة تكلفتهم وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء، فالمتأخرون فى شأن، والقوم فى شأن آخر، وقد جعل الله لكل شىء قدراً.

---

(١) سقط من ب « كثيراً ».   (٢) سقط من ب « كثيراً ».

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء، ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمد منهم وتكلم بعباراتهم.

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجواهر والجسم والعرض، ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معانٍ صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلاً عن علمائهم..

ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر المراء[1] والجدال وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال. وسيأتي ذلك الكتاب[2] زيادة بيان عن قوله: «فمن رام علم ما حظر عنه علمه».

وقد أحببت أن أشرحها سالكاً طريق السلف في عباراتهم وأنسج على منوالهم متطفلاً عليهم، لعلي أن أُنْظَمَ في سلكهم، وأدخل في عدادهم وأحشر في زمرتهم. ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار، آثرته على التطويل والإسهاب. ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

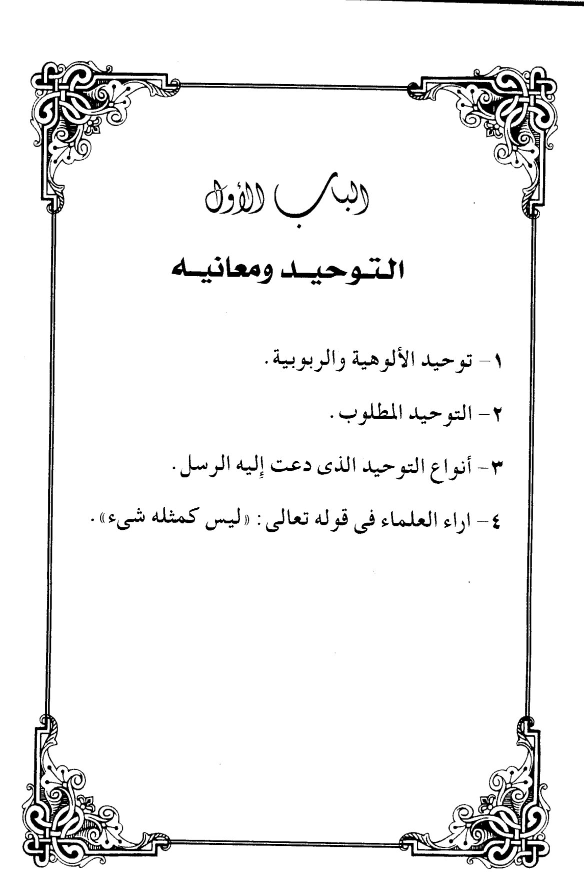
وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) في ب (الكلام).

(٢) سقط من ب.. الكتاب.



الباب الأول

التوحيد ومعانيه

١- توحيد الألوهية والربوبية.

٢- التوحيد المطلوب.

٣- أنواع التوحيد الذى دعت إليه الرسل.

٤- اراء العلماء فى قوله تعالى: «ليس كمثله شىء».

التوحيد ومعانيه

قوله: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله، إن الله واحد،لا شريك لـــــه».

ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل. قال تعالى:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ **أعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا الله، وأن محمداً رسول الله»[١].

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في الإيمان ٣٢، ٣٦ والبخاري في الإيمان ١٧، ٣٨ ورواه أبو داود في الجهاد ٩٥، والترمذي في التفسير سورة ٨٨ والنسائي في الزكاة ٣ وابن ماجه في الفتن ١-٣ والدارمي في السير ١٠ وأحمد بن حنبل جـ٤ ص٨ ولفظه عند مسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن إله الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هى أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يُؤمر به العبد، الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب[1] بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك. ولم يوجب أحد منهم على وليّه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك.

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء، كمن صلى، ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام، ولم يتكلم بها[2]، هل يصير مسلماً أم لا؟[3] فالصحيح أنه يصير مسلماً بكل ما هو من خصائص الإسلام. فالتوحيد أول ما يدخل به فى الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبى - ﷺ :- «مَنْ كَانَ آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخَل الْجَنَّةَ»[4].

وهو أول واجب وآخر واجب.

توحيد الألوهية والربوبية

فالتوحيد أول الأمر وآخره أعنى توحيد الألوهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:-

أحدها: الكلام فى الصفات.

والثانى: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شىء.

والثالث: توحيد الألوهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يُعبد وحده لا شريك له.

---

(١) فى ب «عقب».

(٢) فى ب «بهما».

(٣) فى ب سقط «أم لا».

(٤) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ١ ورواه أبو داود فى الجنائز ١٦ والحاكم من طريق كثير ابن مرة الحضرمى عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله - ﷺ «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

أما الأول: فإن نفاة الصفات أدخلوا نفى الصفات فى مسمَّى التوحيد، كجهم بن صفوان[1]، ومن وافقه، فإنهم قالوا: إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب، وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة، فإن إثبات ذات مجردة من[2] جميع الصفات لا يتصور لها وجود فى الخارج، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله، وهذا غاية التعطيل. وهذا القول أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد[3]، وهو أقبح من كفر النصارى[4]، فإن النصارى خصوه بالمسيح، وهؤلاء عمموا[5] جميع المخلوقات.

ومن فروع هذا التوحيد: أن فرعون وقومه كاملو الإيمان عارفون بالله على الحقيقة.

ومن فروعه: أن عبَّاد الأصنام على الحق والصواب، وأنهم إنما عبدوا الله لا غيره.

---

(١) جهم بن صفوان: السمرقندى أبو محرز، من موالى بنى راسب، رأس الجهمية: قال الذهبى: الضال المبتدع، هلك فى زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً، كان يقضى فى عسكر الحارث بن سريج، الخارج على امراء خراسان فقبض عليه نصر بن سيار وأمر بقتله فقتل عام ١٢٨هـ.

(٢) فى ب: «عن».

(٣) الحلول والاتحاد: يستعمل المتكلمون والفلاسفة والصوفية لفظة حلول استعمالات اصطلاحية، فالمتكلمون يعبرون بها عن الصلة بين الجسم ومكانه، أو بين العرض وذاته، والفلاسفة يدلون بها على الصلة بين الروح والبدن، أو بين العقل الفعال – فى رأيهم – والإنسان، والصوفية يشيرون بهما إلى الصلة بين الرب والعبد، والنساطرة واليعاقبة، و المالكية من الفرق النصرانية يشيرون بها إلى الصلة بين الرب و«اللاهوت» والعبد «الناسوت» ويقال للقائلين بالحلول «حلولية» كغلاة الشيعة والباطنية والدروز من الفرق، وكالحلاج من الصوفية، والحلولية ملاحدة.
(الدائرة العربية الميسرة – بتصرف).

(٤) النصارى جمع: واحده نصرانى وقيل: نصران بإسقاط الياء وهذا قول سيبويه، والأنثى نصرانة، كندمان وندمانة، ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياء النسب، لأنهم قالوا رجل نصرانى وامرأة نصرانية، ونصره: جعله نصرانيا وفى الحديث «فأبواه يهودانه أو ينصرانه»، وسموا بذلك لقرية تسمى «ناصرة» كما ينزلها عيسى عليه السلام فنسب إليها فقيل: عيسى الناصرى، فلما نسب أصحابه إليه قيل النصارى، ونصران: قرية بالشام ينسب إليها النصارى، وقيل سموا بذلك لقوله تعالى: ﴿**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾.

(٥) فى ب: «عموا».

ومن فروعه: أنه لا فرق في التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية، ولا فرق بين الماء والخمر، والزنا والنكاح، الكل من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة.

ومن فروعه: أن الأنبياء ضيقوا على الناس. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وأما الثاني: وهو توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني ادم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم:

﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، ولهذا لما قال: «وما رب العالمين»؟ على وجه الإنكار له، تجاهل العارف، قال له موسى:

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٤ - ٢٨].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية، وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط. وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دلت سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته. فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته

ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو؟ بل هو[1] سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يُجهل؛ بل معرفته مستقرة فى الفطر أعظم من معرفة كل معروف ولم يعرف عن أحد من الطوائفُ أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان فى الصفات والأفعال، فإن الثنوية[2] من المجوس والمانوية[3] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العلم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المعبود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون فى الظلمة، هل هى قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربَّين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض؛ بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون باسم الإبن والأب وروح القدس إله واحد - وقوله فى التثليث متناقض فى نفسه، وقولهم فى الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه، وفى التعبير عنه، لا يكاد أحد[4] منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم! والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص. وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام. وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

والمقصود هنا: أنه ليس فى الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع

---

(١) فى ب: «بل أنه».

(٢) الثنوية: هؤلاء أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه، وهؤلاء قالوا بتساويهما فى القدم، واختلافهما فى الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان، الأجناس، والأبدان، والأرواح.

الملل الحل جـ٢ ص٧٢.

(٣) المانوية: أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور بن أزدشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى بن مريم عليه السلام. أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق، وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم: أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا، ولا يزالا.

الملل والنحل للشهرستانى جـ١، ص٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩.

(٤) فى ب.. «واحد».

أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا فى إثبات هذا المطلوب وتقريره. ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى[1] من السمع.

والمشهود عند أهل النظر بإثباته بدليل التمانع، وهو: أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلوالجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم - أيضاً - عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الله القادر والآخر عاجزاً لا يصلح للألوهية.

وتمام الكلام على هذا الأصل معروف فى موضعه، وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذى قرروه هو توحيد الألوهية الذى بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك؛ بل التوحيد الذى دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الالوهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة «الله وحده لا شريك له»، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السموات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٥]. ومثل هذا كثير فى القرآن، ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام أنها مشاركة لله فى خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركى الأمم والهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية عن قوم نوح:

﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح: ٢٣].

---

(١) فى ب. . «يلتقى».

وقد ثبت فى «صحيح البخارى» ، وكتب التفسير، وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس رضى الله عنهما، وغيره من السلف، ان هذه أسماء قوم صالحين فى قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضى الله عنهما قبيلة قبيلة. وقد ثبت فى «صحيح مسلم» عن أبى الهياج الأسدى، قال: قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثنى رسول الله ﷺ؟ «أمرنى أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمستهُ»[1] وفى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال فى مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذُوا قبورَ أنبياذهم مساجدَ»[2] يُحذِّر ما فعلوا قالت عائشة رضى الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً، وفى الصحيحن» أنه ذكر فى مرض موته كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصاوير فيها، فقال: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجلُ الصالحُ بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرارُ الخلق عندَ الله يومَ القيامة»[3] وفى «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائهم وصالحيهمْ مساجداً، ألا فلا تتخذوا القبور مساجدَ، فإنى أنهاكم عن ذلك»[4].

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الجنائز ٩٣ وأبو داود فى الجنائز ٦٨ والترمذى فى الجنائز ٦ والنسائى فى الجنائز ٩٩ وأحمد بن حنبل ١- ٩٦، ١٢٩.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الصلاة ٤٨، والجنائز ٩٢، ٩٦، ورواه مسلم فى المساجد ١٩، ٢٣، وأبو داود فى الجنائز ٧٢، والنسائى فى المساجد ١٣، والجنائز ١٠٦ والدارمى فى الصلاة ١٢٠، الموطأ فى المدينة ١٧، وأحمد بن حنبل جـ١ ص٢١٨، ولفظه عند مسلم عن عائشة: قالت: قال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى لم يقم منه «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(٣) الحديث رواه البخارى فى الصلاة ٤٨ ومناقب الأنصار ٣٧ ورواه مسلم فى المساجد ١٦ والنسائى فى المساجد ١٣ وأحمد بن حنبل جـ٦ ص٥١.

(٤) الحديث رواه النسائى فى الجنائز ١٠٦، والدارمى فى الصلاة ١٢٠، ولفظه عند النسائى عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال: «لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخاذ الأصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها.

وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان - فيما يقال - من هذا الباب وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم.

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل - كما حكى الله تعالى عنهم فى قصة صالح عليه السلام عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله، - أى تحالفوا بالله - «لَنبيتنَّه وأهله». فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله، وهذا بيِّن أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

التوحيد ومعانيه

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية، الذى يتضمن توحيد الربوبية قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٠- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبَواهُ يُهَوِّدانه

أوْ يَنصِّرانه أوْ يمجِّسانه»[1] ولا يقال: إن معناه يولد ساذجاً لا يعرف توحيداً ولا شركاً، كما قال بعضهم – لما تلونا، ولقوله ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل: «خَلقت عبادى حنفاء، فاجْتالتهم الشياطينُ»[2]. الحديث. وفى الحديث المتقدم ما يدل على ذلك حيث قال: «يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». ولم يقل: ويسلمانه.. وفى رواية «يولد على الملة» وفى أخرى: «على هذه الملة».

وهذا الذى أخبر به ﷺ هو الذى تشهد الأدلة العقلية بصدقه. منها: أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً، وهو حساس متحرك بالإرادات، ولابد له من أحدهما، ولابد له من مرجح لأحدهما. ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثانى فاسد قطعاً، فتعين الأول، فوجب أن يكون فى الفطرة ما يقتضى معرفة الصانع والإيمان به. وبعد ذلك: إما أن يكون فى فطرته محبته أنفع للعبد أو لا. والثانى فاسد قطعاً، فوجب أن يكون فى فطرته محبة ما ينفعه.

ومنها: أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسه. وحينئذ لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج إلى سبب معين للفطرة، كالتعليم ونحوه، فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضى لذلك.

ومنها: أن يقال: من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة، لولا أن فى النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلو علم الجهال والبهائم وحُضِّضا لم يقبلا، ومعلوم أن حصول إقرارها

---

(1) الحديث رواه البخارى فى الجنائز 80 وتفسير سورة 30، 1 والقدر 3 ورواه مسلم فى القدر 22، 23، 24، وأحمد بن حنبل جـ 2 ص315، 346، ولفظه عند مسلم عن أبى هريرة أنه قال.. قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء» إلخ.

(2) الحديث رواه مسلم فى الجنة 63 ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ 4 ص162.

بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج، وتكون الذات كافية فى ذلك، فإذا كان المقتضى قائماً فى النفس، وقدر عدم المعارض، فالمقتضى السالم عن المعارض يوجب بمقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها، كانت مقرة بالصانع عابدة له.

ومنها: أن يقال: إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج، كانت الفطرة مقتضية للصلاح، لأن المقتضى فيها للعلم والإرادة قائم، والمانع منتف.

ويحكى عن أبى حنيفة رحمه الله: أن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير توحيد الربوبية. فقال لهم: أخبرونى قبل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة، تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسى بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبِّرها أحد؟! فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً فى سفينة فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله؟! وتحكى هذه الحكاية - أيضاً - عن غير أبى حينفة.

فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، الذى يقر به هؤلاء النظار، ويفنى فيه كثير من أهل التصرف، ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب «منازل السائرين»[1] وغيره، وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين.

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له. ومع[2] ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية. ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثانى، إذ كانوا يسلموه فى الأول وينازعون فى الثانى، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده وأنه هو الذى يأتى العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له فى ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟ كقوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**

(١) كتاب «منازل السائرين» للشيخ عبد الله بن محمد بن على بن محمد الأنصارى الهروى، وهو من ذرية أبى أيوب الأنصارى. رحمهما الله.

(٢) فى ب. «ومن».

وسلامٌ علىٰ عباده الَّذين اصْطفىٰ آللَّهُ خيرٌ أمَّا يُشْرِكُون ۞ أمّنْ خلق السَّمٰوات والأرْض وأنزل لكُم مّن السَّماء ماءً فأنبتْنا به حدائق ذات بهْجة مَا كان لكُمْ أن تُنبتُوا شجرها أإلهٌ مَّع اللَّه بلْ هُمْ قوْمٌ يَعْدلُون ﴾ [النمل : ٥٩ - ٦٠]، يقول الله تعالى في آخر كل آية ﴿ أإلهٌ مَّع اللَّه ﴾ أي : أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهامٌ إنكار، يتضمن نفى ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام هل مع الله إله، كما ظنه بعضهم، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى : ﴿ أئنَّكُمْ لتشْهدُون أنَّ مع اللَّه آلهةً أُخْرىٰ قُل لاَّ أشْهدُ ﴾ [الأنعام : ١٩]. وكانوا يقولون : ﴿ أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنَّ هذا لشيْءٌ عُجابٌ ﴾ [ص : ٥] لكنهم ما كانوا يقولون إن معه إلهاً ﴿ جعل الأرْض قرارًا وجعل خلالها أنْهارًا وجعل لها رواسي وجعل بيْن الْبحْريْن حاجزًا ﴾ [النمل : ٦١]. بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا وهكذا سائر الآيات. وكذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا ربَّكُمُ الَّذي خلقكُمْ والَّذين من قبْلكُم لعلَّكُمْ تتَّقُون ﴾ [البقرة : ٢١] وكذلك قوله في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أرأيْتُمْ إنْ أخذ اللَّهُ سمْعكُمْ وأبْصاركُمْ وختم علىٰ قُلُوبكُم مَّنْ إلهٌ غيْرُ اللَّه يأْتيكُم به ﴾ [الأنعام : ٤٦] وأمثال ذلك.

وإذا كان توحيد الربوبية، الذى يجعله هؤلاء النظار، ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية فى التوحيد : وداخلاً فى التوحيد الذى جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فليعلم أن دلائله متعدده كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر، رحمة من الله بخلقه.

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهى المقاييس العقلية المقيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق فى الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقا عليها، استدل بها، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها.

والطريقة الفصيحة فى البيان أن تحذف، وهى طريقة القرآن بخلاف ما

يدعيه الجهال، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع، فإنه يبينه ويدل عليه.

ولما كان الشرك فى الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثَمَّ خالقاً خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية فى الظلمة، وكما يقوله القدرية فى أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفة الدهرية فى حركة الأفلاك أو حركات النفوس، أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً بدون إحداث الله أياها، فهم مشركون فى بعض الربوبية، وكثير من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

نفى البنوة عن الله تعالى

فلما كان هذا الشرك فى الربوبية موجوداً فى الناس، بين القرآن بطلانه كما فى قوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** [المؤمنون: ٩١]، فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر. فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه فى ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والألوهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه. فلابد من أحد ثلاثة أمور:

* إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

* وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

* وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد،

وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه. كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لارب غيره، ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والالوهية. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر، معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل ألوهية اثنين. فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الألوهية.

وقريب من معنى هذه الاية قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذى تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان.. إلخ، وغفلوا عن مضمون الاية فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أرباب.

وأيضاً فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا.

وأيضاً فإنه قال: «لفسدتا»، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا. ودلت الاية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة؛ بل لا يكون الإله إلا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السموات والأرض.

وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. قال تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩١]. وقال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ**

كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفيها للمتأخرين قولان: أحدهما: لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته. والثانى، وهو الصحيح المنقول عن السلف، كقتادة[1] وغيره، وهو الذى ذكره ابن جرير[2] ولم يذكر غيره؛ لاتخذوا سبيلا بالتقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٩]. وذلك أنه قال: «لو كان معه آلهة كما يقولون» وهم لم يقولوا: إن العالم له صانعان؛ بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] بخلاف الآية الأولى.

أنواع التوحيد الذى دعت إليه الرسل

ثم إن التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد فى الإثبات والمعرفة، وتوحيد فى الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء فى ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما فى أول (الحديد) و (طه) وآخر (الحشر) وأول (آلم تنزيل.. السجدة) وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكاملها، وغير ذلك. والثانى: وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، و ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

---

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسى البصرى، مفسر حافظ ضرير. قال الإمام أحمد: قتادة أحفظ اهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث رأساً فى العربية ومفردات اللغة مات بواسط فى الطاعون عام ١١٨هـ: تذكرة الحفاظ ج١ ص١١٥).

(٢) محمد بن جرير الطبرى: أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد فى آمل طبرستان عام ٢٢٤هـ واستوطن بغداد وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى.. له «أخبار الرسل والملوك» يعرف بتاريخ الطبرى، وجامع البيان فى تفسير القرآن وهو من ثقات المؤرخين، وكان مجتهداً فى علوم الدين لا يقلد الأئمة، مات ببغداد عام ٣١٠هـ. تذكره الحفاظ جـ٢ ص٣٥١

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعى التوحيد؛ بل كل سورة فى القرآن فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمى الخبرى. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما أمر أو نهى وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم فى الدنيا، وما يكرمهم به فى الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال، وما يحل بهم فى العقبى من االعذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد[1].

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ (الحمد لله رب العالمين) توحيد، (الرحمن الرحيم) توحيد، (مالك يوم الدين) توحيد، (إياك نعبد وإياك نستعين) توحيد، (إهدنا الصراط المستقيم) توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد: (الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالينَ) الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله. قال تعالى ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]. فتضمنت هذه الاية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجلَّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجلِّ مشهود به.

وعبارات السلف فى «شهد» تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافٍ بينها: فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة اعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك. وإن لم يعلم به غيره؛ بل يتكلم بها مع نفسه

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: عبر بقوله: «وما فعل» بصيغة الماضى لأن ما توعد الله به أهل الشرك متحقق ثابت بموتهم مشركين. فكأن وقع فعلاً. وذلك التعبير - بصيغة الماضى الواقع عما سيكون يوم القيامة كثير فى القرآن.

ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها . وثالثها : أن يُعْلِم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له . ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به .

فأما مرتبة العلم فإن الشهادة تضمنتها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به . قال تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزخرف : ٨٦] . وقال ﷺ : « على مثلها فاشهدْ »[١]، وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾ [الزخرف : ١٩] . فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول، وإعلام بالفعل . هذا شأن كل معلم لغيره بأمر : تارة يعلمه به بقوله، وتارة بفعله[٢] . ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأفرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها، معلماً أنها وقف وإن لم يتلفظ به . وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار، يكون معلماً له ولغيره أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس . وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارة وبفعله أخرى . فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان :[٣] شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه، أنه لا إله إلا هو . وقال آخر :

---

(١) قال الشيخ الألباني : ضعيف أورده الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام من أدلة الأحكام بلفظ « على مثلها فاشهد أو دع » وقال أخرجه ابن عدى بإسناد ضعيف وصححه الحاكم فأخطأ .

(٢) فى ب : « بقول : وفعل »

(٣) هو صالح بن كيسان المدنى، مؤدب أبناء عمر بن عبدالعزيز – رضى الله عنه . كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه، وهو أحد الثقات فى رواية الحديث قال ابن ناصر : عاش أكثر من مائه سنة وتوفى سنة ١٤٠ هـ.
(تهذيب التهذيب جـ٤ ص٣٣٩) .

وفى كلِّ شىءٍ له ايةٌ تَدُلُّ على أنَّه واحدُ

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل، قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ**﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه ودلالتها إنما هى بخلقه وجعله.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة فى هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه. فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال الله تعالى: ﴿**لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ [القصص: ٨٨]. والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلهاً، وهذا يفهمه المخاطب من النفى والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتى رجلاً أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلاً لذلك، ويدع ممن هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفتٍ ولا شاهد ولا طبيب، المفتى فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهى.

وأيضاً: فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحق الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. وأيضاً: فلفظ «الحكم» و «القضاء» يستعمل فى الجملة الخبرية، ويقال للجملة الخبرية: قضية،

وحكم، وقد حكم فيها بكذا. قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤]. فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً وقال تعالى: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. لكن هذا حكم لا إلزام معه.

والحكم والقضاء بإنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام. ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العمل بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة. بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم يبنتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها، فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فيسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفناه إياه من صفات كماله كلها، الوحدانية وغيرها، غاية البيان، لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع في الحيرة، تنافى البيان الذى وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم. كما قال تعالى ﴿ **حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [الزخرف: ١، ٢] ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [يوسف: ١-٢]. ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر: ١-٢]. ﴿ **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. ﴿ **فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٤]. وكذلك السنة تأتى مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأى فلان، ولا إلى ذوق فلان ووجده فى أصول ديننا.

ولهذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين. بل قد قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] فلا يحتاج فى تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو جعفر الطحاوى فيما يأتى من كلامه من قوله: «لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ».

وأما آياته العيانية الخلْقية: فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة، لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ** ﴾ [النحل: ٤٣ – ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** ﴾ [الشورى: ١٧]. حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود. حتى قال له قومه: «يا هود ما جئتنا ببينة» ومع فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها، وقد أشار إليه بقوله: ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود: ٥٤ – ٥٦]. فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع لا خوار، بل هو واثق بما قاله، جازم به، فأشهد الله على براءته من دينهم وما هم عليه إشهاد واثق به معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره وغيره مسلط لهم عليه. ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه برىء من دينهم وآلهتهم التى يوالون عليها ويعادون عليها[1] ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتهم لها، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم

---

(١) سقط من ب: ويعادون عليها.

واحتقارهم وازدرائهم. ولو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه. ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم الذى نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه، وأقر به، ولا يشمت به أعداءه.

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء عليهم السلام وبراهينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم[1] بينها لعباده غاية البيان.

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو فى أحد التفسيرين: المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لابد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذى بلغته رسله حق، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. أى القرآن، فإنه هو المتقدم فى قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [فصلت: ٥٢] ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق، ووعد أنه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شىء شهيد، فإن من أسمائه الشهيد الذى لا يغيب عنه شىء، لا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شىء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، واستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يستدل بأسمائه وصفاته، فإن الاستدلال بذلك لا يعهد فى الاصطلاح؟

فالجواب: ان الله تعالى قد أودع فى الفطرة التى لم تتنجس بالجحود والتعطيل ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفى عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه[2] منه. ومن كماله المقدس شهادته على كل شىء

(١) سقط من ب: «لهم»   (٢) فى ب: «مما عرفوه».

وإطلاعه عليه، بحيث لا يغيب عنه ذرة فى السموات ولا فى الأرض باطناً وظاهراً. ومنْ هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلى شأنه ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب غير مفتر؟.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك. ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهى طريق الخواص، يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعل ولا يفعله، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. وسيأتى لذلك زيادة بيان - إن شاء الله تعالى ويستدل أيضاً بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك، كما فى قوله: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الحشر: ٢٣] وأضاف ذلك فى القرآن. وهذه الطريق قليل سالكها، لا يهتدى إليها إلا الخواص، وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة، لأنها أسهل تناولاً وأوسع. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع فى غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه والشاهد والمشهود له. قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذى أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، كما تقدمت إليه الإشارة، فلا يلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوع توحيد العامة، والنوع الثانى توحيد الخاصة، وهو الذى يثبت بالحقائق، و النوع الثالث توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة

الخاصة، فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله عليهم والمرسلون منهم أكمل فى ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيداً، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ﷺ أجمعين. وأكملهم توحيداً الخليلان: محمد وإبراهيم، صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علماً، ومعرفة، وحالاً، ودعة للخلق، وجهاداً، فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدى بهم فيه، كما قال تعالى - بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه فى بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠]. فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهم. وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[١]. فملة إبراهيم التوحيد، ودين محمد ﷺ: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً. وكلمة الإخلاص هى شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هى ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة.

فهذا توحيد خاصة الخاصة، الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١]، وكل من له حس سليم وعقل يميز به، لا يحتاج فى الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة، بل ربما يقع بسببها فى شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذى لا يفلح[٢] إلا

(١) قال الشيخ الألبانى: صحيح أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ٥ - ١٢٣ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبى بن كعب: كان رسول الله - ﷺ يعلمنا إذا أصبحنا: «أصبحنا على فطرة الإسلام». وسنده ضعيف لكن أخرجه أحمد ٣ - ٤٠٦ - ٤٠٧ والدارمى ٢- ٢٩٢ وابن السنى فى اليوم والليلة رقم ٣٢ وسنده صحيح.

(٢) فى ب: «يصلح»

من أتى الله به. ولا شك أن النوع الثانى والثالث من التوحيد، الذى ادعوا أنه توحيد الخاصة، وخاصة الخاصة ينتهى إلى الفناء الذى يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر، يفضى إلى الاتحاد. انظر إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى[1] رحمه الله تعالى. حيث يقول:

ما وحَّد الواحد من واحد — إذ كل من وحَّده جاحدُ
توحيد من ينطق عن نعته — عارية أبطلها الواحد
توحيدُه إياه توحيده — ونعت من ينعته لاحد

وإن كان قائله - رحمه الله - لم يرد به الاتحاد، لكن ذكر لفظاً مجملاً محتملاً جذبه به الاتحادى إليه، وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه، لو سلك الألفاظ الشرعية التى لا إجمال فيها كان أحق، مع أن المعنى الذى حام حوله لو كان مطلوباً منا لنبه الشارع عليه ودعا إليه وبينه، فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟ أو ما يقرب من هذا المعنى! أو أشار إلى هذه النقول والعقول حاضرة[2].

فهذا كلام الله المنزل على رسول الله ﷺ، وهذه سنة الرسول، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء ذكر الفناء فيها، وهذا التقسيم عن أحد منهم؟ وإنما حصل هذا من زيادة الغلو فى الدين، المشبه لغلو الخوارج(٢)، بل لغلو النصارى فى دينهم. وقد ذم الله تعالى الغلو فى الدين ونهى عنه، فقال: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾ [النساء: ١٧١] ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال ﷺ: «لا تشددوا فيشدد الله عليكم، فإنْ من كان قبلكم

(١) أبو إسماعيل الأنصارى: هو عبد الله بن محمد بن على بن محمد الأنصارى الهروى من ذرية أبى أيوب الأنصارى، ولد سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وسمع أبا الفضل الجارودى. وصنف «ذم الكلام» و«منازل السائرين» و«الأربعين». وكان إماماً قائماً بنصر السنة ورد المبتدعة، قال: أحفظ اثنى عشر ألف حديث أسردها سرداً.. مات فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة عن أربع وثمانين سنة - رحمة الله.

(٢) فى ب: «خطره وهو تحريف».

شددوا فشدد الله عليه، فتلك بقاياهُم فى الصوامع والديارات، رهبانية ابتدَعوها ما كتبناها عليهم[1].

آراء العلماء فى قوله تعالى: (ليس كمثله شىء)

قوله: (ولا شىء مثله).

ش: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شىء، لا فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله. ولكن لفظ التشبيه قد صار فى كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شىء من المخلوقات، ولا يماثله شىء من المخلوقات فى شىء من صفاته: «ليس كمثله شىء»[2]، رد على الممثلة المشبهة «وهو السميعُ البصيرُ»، رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى فى كفرهم، ويراد به أنه لا يثبت لله شىء من الصفات، فلا يقال: له قدرة ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات! ولازم هذا القول أنه لا يقال له: حى، عليم قدير، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك. وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم، قدير، حى. والمخلوق يقال له: موجود حى عليم قدير، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى ببعضها صفات خلقه، وليس المسمى كالمسمى، فسمى نفسه: حياً، عليماً، قديراً، رؤوفاً، رحيماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً،

---

(١) الخوارج: أول من خرج على أمير المؤمنين على – رضى الله عنه – وله جماعة كانوا معه فى حرب صفين، وأشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين: الأشعث بن قيس الكندى، ومسعود بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين الطائى وكبار الفرق منهم: المحكمة والأزارقة، والنجدات، والعجاردة، والثعالبة، ويجمعهم القول بالتبرى من عثمان وعلى – رضى الله عنهما – ويقدمون ذلك على كل طاعة ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف سنة حقاً واجباً، (الملل والنحل جـ١ ص١١٤ – ١١٥).

(٢) رواه أبو داود

ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، وقد سمى بعض عبادة بهذه الأسماء، فقال: ﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿ **وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** ﴾ [الذاريات: ٢٨]، ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ** ﴾ [الصافات: ١٠١] ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [الدهر: ٢]. ﴿ **قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ** ﴾ [يوسف: ٥١]. ﴿ **وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ** ﴾ [الكهف: ٧٩]. ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا** ﴾ [السجدة: ١٨]. ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر: ٣٥]. ومعلوم أنه لا يماثل الحى الحى، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء. وقال تعالى: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء: ١٦٦]. ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** ﴾ [فاطر: ١١]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ [فصلت: ١٥]. وعن جابر – رضى الله عنه – قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلِّها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا همَّ أحدُكم بالأمر فليركعْ ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقلْ: اللهم إنى أستخيرُك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألُك من فضلك العظيم، فإنك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علاَّمُ الغيوب، اللهمَّ إنْ كنت تعلمُ أنَّ هذا الأمر خيرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال: عاجل أمرى وآجله – فاقدره لى، ويسرْه لى، ثم بارك لى فيه، وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال عاجل أمرى وآجله – فاصرفْه عنى، واصرفنى عنه، واقدر لى الخيرَ حيثُ كانَ، ثم رضِّنى به. قال: ويسمى حاجته»[1]. رواه البخارى[2].

وفى حديث عمار بن ياسر[3] الذى رواه النسائى وغيره، عن النبى – ﷺ،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التهجد ٢٥، والدعوات ٤٩، والتوحيد ١٠، والترمذى فى الوتر ١٨، وابن ماجه فى الإقامة ١٨٨، وأحمد بن حنبل ٣ – ٣٤٤.

(٢) سقط من «أ» رواه البخارى.

(٣) عمار بن ياسر بن عامر، أبو اليقظان صحابى من الولاة الشجعان ذوى الرأى وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وشهد الجمل وصفين مع على – رضى الله عنه – وقتل فى الثانية ٣٧هـ له ٦٢ حديثاً.

أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحْينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفَّنى إذا كانت الوفاةُ خيراً لى، اللهم إنى أسألُك خَشيتك في الغيب والشهادة، وأسألُك كلمة الحقِّ فى الغضب والرِّضى وأسألُك القصْدَ فى الغنى والفقر، وأسألُك نعيماً لا يَنفد، وقرةَ عين لا تنقطع، وأسألُك الرِّضى بعدَ القضاء، وأسألُك بردَ العيش بعد الموت، وأسألُك لذةَ النظر إلى وجهك الكريم، والشوقَ إلى لقائك، فى غير ضراء مُضرة، ولا فتنة مضلَّة: اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين»[1]. فقد سمى الله ورسوله صفات الله علماً وقدرة وقوة وقال تعالى ﴿**ثُمَّ جعلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾ [الروم: ٥٤]. ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ [يوسف: ٦٨]. ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة. وهذا لازم لجميع العقلاء. فإن من نفى صفة من صفاته التى وصف الله بها نفسه، كالرضى والغضب، والحب والبغض، ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم وقيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر، مع أن ما تثبته له ليس مثال صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبته، إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات!

قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى، مثل: عليم، حى قادر[2]. والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يثبت العبد، فقل فى صفاته نظير قولك فى مسمى أسمائه.

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى؛ بل أقول: هى مجاز، وهى أسماء لبعض مبتدعاته، كقول غلاة الباطنية[3] والمتفليفة!

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخارى فى المرض ١٩ والذكر ٢٩ وأخرجه مسلم فى الذكر ١٠ إلى قوله إذا كانت الوفاة خيراً لى – وأخرجه أحمد بن حنبل ٤– ٢٦٤ وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) فى ب: «قدير»..

(٣) الباطنة إحدى فرق الإسماعيلية: يقول الشهرستاني: وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم دون قوم فالبعراق يسمون الباطنة، والقرامطة، والمزدكية، وبخراسان: التعليمية والملحدة. ثم إن الباطنية: قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج فقالوا فى البارى تعالى إنا لا نقول: هو موجود ولا لا موجود الى غير ذلك من الكفر البواح، راجع «الملل والنحل للشهرستاني»، جـ٢ ص١٤٦ على هامش الفصل.

قيل له: فلابد أن تعتقد أنه موجود وحق قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه، وليس هو مماثلاً له.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً، بل أنكر وجود الواجب.

قيل له معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلى، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غنى عما سواه. وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغنى عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلى خالق غنى عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك. وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد ان لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديماً أزلياً، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين: أحدهما واجب، والآخر ممكن، أحدهما قديم، والآخر حادث، أحدهما غنى، والآخر فقير، أحدهما خالق، والآخر مخلوق. وهما متفقان في كون كل منها شيئاً موجوداً ثابتاً، ومن المعلوم - أيضاً - أن أحدهما ليس مماثلاً للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وأحدهما يجب قدمه، وهو موجود بنفسه، والآخر، لا يجب قدمه، ولا هو موجود بنفسه، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق، وأحدهما غنى عما سواه، والآخر فقير.

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم، موجوداً بنفسه غير موجود بنفسه، خالقاً ليس بخالق، غنياً غير غنى، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما. فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع.

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه، واختلافهما من وجه. فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً بالباطل[1]، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً بالباطل[2]، والله أعلم.

---

(١) في ب: «للباطل».

(٢) في ب: «للباطل».

وذلك. لأنهما وإن اتفقا فيمسمى ما اتفقا فيه، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، والعبد لا يشركه فى شيء من ذلك، والعبد - أيضاً - مختص بوجوده وعلمه وقدرته، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد فى خصائصه.

وإذا اتفقا فى مسمى الوجود، والعلم والقدرة، فهذا المشترك مطلق كلى يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان، والموجود فى الأعيان مختص لا اشتراك فيه.

وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النظار، حيث توهموا أن الاتفاق فى مسمى هذه الأشياء، يوجب أن يكون الوجود الذى للرب كالوجود الذى للعبد.

وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالإشتراك اللفظى، وكابروا عقولهم، فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم، كما يقال: الموجود ينقسم إلى واجب وممكن، وقديم وحادث. ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، واللفظ المشترك كلفظ المشترى الواقع على المبتاع والكوكب، لا ينقسم معناه، ولكن يقال: لفظ المشترى يقال على كذا أو على كذا، وأمثال هذه المقالات التى قد بسط الكلام عليها فى موضعه.

الموجود فى الخارج معيناً مختصاً لا مطلقاً

وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلى هو بعينه ثابتاً فى هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يجد فى الخارج لا يوجد مطلقاً كليا؛ بل لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسماء إذا سمى الله بها كان مسماها معيناً[١] مختصاً به، فإذا سمى بها العبد كان مسماها مختصاً به. فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره؛ بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه[٢] غيره فكيف بوجود الخالق؟! ألا ترى أنك تقول: هذا هو ذاك، فالمشار إليه واحد ولكن بوجهين مختلفين.

وبهذا ومثله يتبين أن المشبه أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا، وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه. وزادوا فيه على الحق حتى

---

(١) سقط من «أ» معيناً. (٢) فى ب: فيها.

ضلوا. وإن كتاب الله دل على المحض الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذى لا انحراف فيه.

فالنفاه أحسنوا فى تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساؤوا فى نفى المعانى الثابتة لله تعالى فى نفس الأمر.

والمشبهة أحسنوا فى إثبات الصفات، ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه.

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعانى المعبر عنها اللفظ(١) إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها، ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة فى أصل المعنى، وإلا فلا يمكن تفهيم(٢) المخاطبين بدون هذا قط، حتى فى أول تعليم معانى الكلام بتعليم معانى الألفاظ المفردة، مثل تربية الصبى الذى يعلم البيان واللغة، ينطبق له باللفظ المفرد ويشار له إلى معناه إن كان مشهوداً بالإحساس الظاهر أو الباطن، فيقال له: «لبن،خبز، أم، أب، سماء، أرض، شمس، قمر،ماء»، ويشار له مع العبارة إلى كل مسمى من هذه المسميات، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به، وليس أحد من بنى آدم يستغنى عن التعليم السمعى، كيف وآدم أبو البشر وأول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السمعية وهى الأسماء كلها، وكلمه وعلمه بخطاب الوحى ما لم يعلمه بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعنى هى بواسطة دلالته على ماعناه المتكلم وأراده، وإرادته وعنايته فى قلبه، فلا يعرف باللفظ ابتداء، ولكن لا يعرف المعنى بغير اللفظ حتى تعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذى يراد بذلك اللفظ ويعنى به، فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية، عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه. وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن، مثل: الجوع والشبع والرى والعطش والحزن والفرح، فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه، فإذا وجده أشير(٣) له إليه، وعرف أن اسمه كذا، والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه، أو عطش نفسه، مثل أن يراه أنه(٤) قد جاع فيقول له: جعت. أنت جائع، فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجرى مجراها من القرائن التى تعين المراد، مثل نظر أمه إليه فى

(١) فى «أ» بالفظ وهى أصح.
(٢) فى ب، «تفهم».
(٣) فى ب: «استنزله».
(٤) سقط من ب: «أنه».

حال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحوه أنها تعنى جوعه.. أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره.

إذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان، فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده أو بمعقوله، وإما أن لا يكون كذلك. فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة، بأن يكون قد عرف معاني الألفاظ المفردة ومعنى التركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** ﴾ [البلد: ٨، ٩]. أو قيل له: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨]. ونحو ذلك، فهم المخاطب بما أدركه بحسه. وإن كانت المعاني التي يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه، ولا بحيث صار له معقول كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك[١] الألفاظ؛ بل هي مما لا يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة؛ فلابد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التي شاهدها من التشابه والتناسب، وكلما كان التمثيل أقوى، كان البيان أحسن والفهم أكمل.

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا أموراً لم تكن معروفة قبل ذلك، وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها، أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعاني، وجعلها أسماء لها، فيكون بينها قدر مشترك، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والإيمان، والكفر. وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها، أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية، والمعاني الشهودية التي كانوا يعرفونها، وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد، كتعليم الصبي، كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم.

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة، فقد يكون مما أدركوا نظيره[٢]

---

(١) في ب: «بذلك». (٢) في ب: «نظره».

بحسهم وعقلهم، كاخبارهم بأن الريح قد أهلكت عاداً، فإن عاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم، وإن كانت أشد وكذلك غرق فرعون فى البحر، وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية. ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١]. وقد يكون الذى يخبر به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له فى الحقيقة من كل وجه لكن فى مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه. كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر، فلابد أن يعلموا معنى مشتركاً وشبهاً[١] بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ما علموه فى الدنيا بحسهم وعقلهم. فإذا كان ذلك المعنى الذى فى الدنيا لم يشهدوه بعد، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب، أشهدهم إياه، وأشار لهم إليه، وفعل قولاً يكون حكاية له وشبهاً، به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هى الطريق التى يعرفون بها الأمور الغائبة.

فينبغى أن يعرف هذه الدرجات: أولها: إدراك الإنسان المعانى الحسية المشاهدة. وثانيها: عقله لمعانيها الكلية. وثالثها: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعانى الحسية والعقلية. فهذه المراتب الثلاث لابد منها فى كل خطاب، فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلابد من تعريفنا المعانى المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذى بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة. ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق، كما تقدم فى قصص الأمم، وإن لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق، بأن يقال: ليس ذلك مثل هذا، ونحو ذلك. وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية فى بيان الفارق، وانتفاء التساوى لا يمنع منه[٢] وجود القدر المشترك الذى هو مدلول اللفظ المشترك، [وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ولولا المعنى المشترك][٣] ما أمكن ذلك قط.

قدرة الله تعالى وبيان أنه لا يعجزه شىء

قوله: (ولا شىء يعجزه).

---

(١) فى ب: «وتشبيهاً».
(٢) سقط من (أ) كلمة: منه.
(٣) ما بين القوسين سقط من «أ».

ش: لكمال قدرته. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٠] ﴿ **وكَانَ اللَّهُ علَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا** ﴾ [الكهف: ٤٥]. ﴿ **ومَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ من شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴾ [فاطر: ٤٤]. ﴿ **وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ **وَلا يَئُودُهُ** ﴾ أى: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه. فهذا النفى لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفى يأتى فى صفات الله تعالى فى الكتاب والسنة انما هو لثبوت كمال ضده كقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩] لكمال عدله. ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ** ﴾ [سبأ: ٣]، لكمال علمه وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مَسَّنَا من لُّغُوبٍ** ﴾ [ق: ٣٨] لكمال قدرته. ﴿ **لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمال حياته وقيوميته ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام: ٧]، لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفى الصرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قُبَيْلَةٌ لا يغدرُونَ بذمةٍ ... ولا يَظلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدلِ

لما اقترن بنفى الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله «قُبيلة» علم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم. وقول الآخر:

لكنَّ قومى وإن كانُوا ذوى عَددٍ ... ليسُوا مِنَ الشَّرِّ فى شىءٍ وإن هَانَا

لما اقترن بنفى الشر عنهم ما يدل على ذمهم، علم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضاً.

ولهذا يأتى الإثبات للصفات فى كتاب الله، والنفى مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم: فإنهم يأتون بالنفى المفصل والإثبات المجمل، يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذى لون ولا رائحة ولا طعم ولا مجسة، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا ينبعض، وليس بذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذى جهات، ولا بذى يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان

ولا يجرى عليه زمان، ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار. إلى آخر ما نقله أبو الحسن الأشعرى[1] - رحمه الله - عن المعتزلة.

وفى هذه الجملة حق وباطل. ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة. وهذا النفى المجرد[2] مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك! لأدبك على هذا الوصف، وإن كنت صادقاً وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفى فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل. فإذا أجملت فى النفى أجملت فى الأدب.

التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية سبيل أهل السنة والجماعة

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة. والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعانى والألفاظ هو المحكم الذى يجب اعتقاده واعتماده. وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذى يجب اعتقاده واعتماده. والذى قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جملياً، أو يبينوا حاله تفصيلاً، ويحكم عليه بالكتاب والسنة، لا يحكم به على الكتاب والسنة.

والمقصود: أن غالب عقائدهم السلوب، ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثبات فهو قليل، وهى أنه عالم قادر حى، وأكثر النفى المذكور ليس متلقى عن

---

(١) أبو الحسن الأشعرى: على بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن مؤسس مذهب الأشاعرة من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد فى البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب: منها مقالات الإسلاميين ومقالات الملحدين، والرد على الراوندى. توفى ببغداد فى ٣٦٥ هـ (الأعلام جـ٥ ص٦٩).

(٢) فى ب: «المحدد».

الكتاب والسنة، ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات، فإن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]..

ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي. ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال، فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله، مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، كما قال رسوله الصادق ﷺ في دعاء الكرب: «اللهمَّ إني أسألُك بكلِّ اسم هُو لك سمَّيت به نفسك أو أنزلْته في كتابكَ أو علَّمته أحداً من خلقكَ أو استأثرْت به في علم الغْيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونورَ صدري وجلاء حُزني وذَهابَ همِّي وغمِّي»(١). وسيأتي التنبيه على فساد طريقتهم في الصفات - إن شاء الله تعالى.

وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى «ولا شيء يعجزه» من النفي المذموم، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهو كمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو على كل شيء قدير، وقد علم ببداهة العقول والفطر كمال قدرته، وعلمه، فانتفى العجز، لما بينه وبين القدرة من التضاد، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، تعالى الله عن ذكر ذلك علواً كبيراً.

إثبات التوحيد بـ (لا إله إلا الله)

قوله: (ولا إله غيره).

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل في المسند ١- ٣٩١، ٤٥٢، وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد، وإن صححه ابن القيم في بعض كتبه، فإن فيه أبا سلمة، قال الذهبي، في تلخيص المستدرك: «لا يدرى من هو»؟ والحاكم نفسه لما أخرجه ١ - ٥٠٩ علق تصحيحه بقوله «إن مسلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه».

ش: هذه كلمة التوحيد التى دعت إليها الرسل كلُّهم، كما تقدم ذكره، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفى والإثبات المقتضى للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال. ولهذا- والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال بعده: ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره فقال تعالى: ﴿ **لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** ﴾.

وقد اعترض صاحب «المنتخب» على[1] النحويين فى تقدير الخبر فى «لا إله إلا هو» فقالوا: تقديره: لا إله فى الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفياً لوجود الإله، ومعلوم أن نفى الماهية أقوى فى التوحيد الصرف من نفى الوجود، فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى.

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل المرسى[2] فى «رى الظمآن» فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن «إله» فى موضع المبتدأ على قول سيبوية[3]، وعند غيره اسم «لا» وعلى التقديرين فلابد من خبر للمبتدء، وإلا

---

(١) فى ب: «عن».

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر: والمرسى هذا هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل المرسى الأندلسى: الأديب النحوى المفسر المحدث الفقيه كما وصفه ياقوت، لقيه ياقوت بمصر سنة ٦٢٤ وأخبره أن مولده سنة ٥٧٠هـ وذكر كثيراً من مؤلفاته منها: تفسير القرآن سماه: رى الظمآن فى تفسير القرآن، كبير جداً، قصد فيه ارتباط الآى بعضها ببعض، وتوفى شرف الدين فى طريق العريش سنة ٦٥٠هـ وترجمه ابن كثير فى التاريخ ١٣: ١٩٧ وابن العماد فى الشذرات ٥: ٢٦٩، وهو الذى سمع منه رضى الدين الطبرى «صحيح ابن حبان» كما أثبتنا فى مقدمة صحيح ابن حبان ص٢٧، ومما يستغرب من شأنه: أن ما ذكره ياقوت أنه كانت له كتب فى البلاد التى ينتقل فيها بحيث لا يستصحب كتباً فى سفره اكتفاء بما له من الكتب فى البلد الذى يسافر إليه رحمه الله.

(٣) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثى بالولاء، أبو بشر الملقب «سيبويه» إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد فى إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة. فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» فى النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله ورحل إلى بغداد فناظر الكسائى وأجازة الرشيد وعاد إلى الأهواز فتوفى بها ١٨٠ هـ «وسيبويه بالفارسية: رائحة التفاح». (وفيات الأعيان ١: ٣٨٤).

فيما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد. وأما قوله: إذا لم يضمر يكون نفياً للماهية - فليس بشيء، لأن نفى الماهية هو نفى الوجود، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود فلا فرق بين «لا ماهية» و «لا وجود».. وهذا مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود، و «إلا الله» - مرفوع، بدلاً من «لا إله» لا يكون خبراً لـ «لا» ولا للمبتدأ، وذكر الدليل على ذلك.

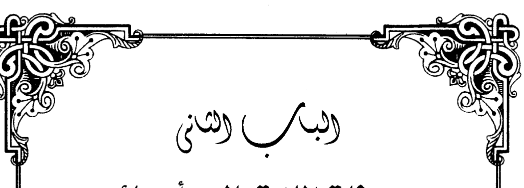
وليس المراد هنا ذكر الإعراب؛ بل المراد رفع[1] الإشكال على النحاة فى ذلك، وبيان أنه من جهة المعتزلة. وهو فاسد: فإن قولهم: نفى الوجود ليس تقييداً، لأن العدم ليس بشىء، قال تعالى: ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٩]. ولا يقال ليس قوله: غيره. كقوله: إلا الله، لأن غير تعرب[2] بإعراب الإسم الواقع بعد إلا. .فيكون التقدير للخبر فيهما واحداً. فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا.

* * *

---

(١) فى ب: «دفع».

(٢) فى ب: «مغرب».



صفات الله تعالى وأسماؤه

١ – صفات الله تعالى وأسماؤه .

٢ – التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية سبيل أهل السنة والجماعـــة .

٣ – صفات الذات وصفات الفعل .

٤ – الرد على الجهمية والمعتزلة فى الصفات .

٥ – الواجب فى باب الصفات إثبات ما أثبتـه الله تعالـى ورسوله ، ونفى ما نفاه الله تعالى ورسوله .

صفتا القدم والبقاء

قوله : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) .

ش : قال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ [الحديد : ٣] وقال ﷺ : « اللهُمَّ أنتَ الأولُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ وأنت الآخرُ فليس بعدك شيء »[١] . فقول الشيخ : « قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء » هو معنى اسمه الأول والآخر . والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة[٢] ، فإن الموجودات لابد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل . فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾ [الطور : ٣٥] يقول سبحانه : أأحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم؟! ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون كوجوداً بنفسه ؛ بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له .

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها[٣] يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح[٤] عبارة وأوجزها ، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق مالا يوجد

---

(١) الحديث رواه مسلم في الذكر والدعاء ، باب ما يقول عند النوم رقم ٦١ . ورواه أبو داود جـ ٥ كتاب الأدب ، باب ما يقول عند النوم رقم ٥٠٥١ . وراوه ابن ماجه كتاب الدعاء - باب دعاء رسول الله - ﷺ - رقم ٣٨٣١ ، وأيضاً : باب ما يدعو إذا آوى إلى فراشه رقم ٣٨٧٣ .

(٢) في « أ » في الفطر .

(٣) في ب : بزيادة ما .

(٤) في ب : « بأوضح » .

عندهم مثله، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣٣].

ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية؛ فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفى على غيره ويظهر للإنسان الواحد فى حال ما خفى عليه فى حال أخرى وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجلى منها، وقد تفرح النفس بما علمته من البحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضرورى فطرى، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية.

وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله تعالى القديم، وليس هو من أسماء[1] الله تعالى الحسنى، فإن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن: هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم، للعتيق، وهذا حديث، للجديد. ولم يستعملوا هذا الاسم إلا فى المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ [يس: ٣٩]. والعرجون القديم: الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى، فإذا وجد الجديد[2] قيل للأول: قديم، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ [الأحقاف: ١١]، أى متقدم فى الزمان. وقال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ** ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦]. فالأقدم مبالغة فى القديم، ومنه: القول القديم والجديد للشافعى رحمه الله تعالى.. وقال تعالى: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ** ﴾ [هود: ٩٨] أى يتقدمهم. ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً، كما يقال أخذت ما قدم وما حدث، ويقال: هذا قدم هذا وهو يقدمه. ومنه سميت القدم قدماً، لأنها تقدم بقية بدن الإنسان، وأما إدخال القديم فى أسماء الله تعالى، فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام. وقد أنكر ذلك كثير من السلف

(١) فى «أ»: الأسماء الحسنى (٢) فى «أ» الحديث.

والخلف، منهم ابن حزم[1]. ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً فى نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره. لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى. وجاء الشرع باسمه الأول. وهو أحسن من القديم لانه يشعر بان ما بعده آيل إليه وتابع له، بخلاف القديم. والله تعالى له الأسماء الحسنى[لا الحسنة][2]..

قوله: (لا يفنى ولا يبيد)

ش: إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] والفناء والبائد متقاربان فى المعنى، والجمع بينهما فى الذكر للتأكيد، وهو أيضاً مقرر مؤكد لقوله: دائم بلا انتهاء.

الفرق بين الإرادة الدينية والإرادة الكونية

قوله: (ولا يكون إلا ما يريد)

ش: هذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر. وقولهم فاسد مردود، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهى مسألة القدر المشهورة، وسيأتى لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وسموا قدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً. والتسمية على الطائفة الأولى أغلب.

أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصى قدراً – فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها؛ بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها. وهذا قول

---

(١) هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى، أبو محمد، عالم الأندلس فى عصره، أحد أئمة الإسلام ولد بقرطبة ٣٨٤هـ وكانت له ولأبيه من قبله الوزارة وتدبير المملكة، من كتبه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» والمحلى. وغير ذلك، توفى سنة ٤٥٦هـ. (نفح الطيب ١: ٣٦٤).

(٢) ما بين المعكوفين سقط من ب.

السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله - لم يحنث إذا لم يفعله وإن[1] كان واجباً أو مستحباً. ولو قال: إن أحب الله - حنث إذا كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة فى كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هى المتضمنة للمحبة والرضى، والكونية هى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النساء: ٢٦]. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨]. وقوله تعالى ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]..

فهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل مالا يريده الله، أى: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهى الإرادة المذكورة فى قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

---

(١) فى ب «إذا كان».

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن يفعل. فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة لفعل الغير، وكل النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريداً منه فعله.

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع فى أمر الله تعالى: هل هو مستلزم لإرادته أم لا؟ فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله عليهم السلام بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلاً له. ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات، غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات، غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة، وهو سبحانة – إذا أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمان – كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم[1] إذا فعلوه، ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم؛ بل قد يكون فى خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق ما يخلق لحكمة، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعله – أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو أو جعل المأمور فاعلاً له. فأين جهة الخلق من جهة الأمر؟ فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريداً النصيحة ومبيناً لما ينفعه، وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه عى ذلك الفعل، إذ ليس كل ما كان مصلحتى فى أن آمر به غيرى وأنصحه – يكون مصلحتى فى أن أعاونه أنا عليه؛ بل قد تكون مصلحتى إرادة ما يضاده... فجهة أمره لغيره نصحاً غير جهة فعله لنفسه، وإذا أمكن الفرق فى حق المخلوقين فهو فى حق الله أولى بالإمكان.

والقدرية تضرب مثلاً بمن أمر غيره بأمره، فإنه لابد أن يفعل ما يكون المأمور أقرب إلى فعله، كالبِشْر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكون على وجهين:

---

(١) فى ب: «وما يصلحهم».

أحدهما: أن تكون مصلحة الأمر تعود إلى الآمر، كأمر الملك جنده مما يؤيد ملكه، وأمر السيد عبده مما يصلح ملكه، وأمر الإنسان شريكه بما يصلح الأمر المشترك بينهما، ونحو ذلك.

الثاني: أن يكون الامر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له، كالآمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة، وأنه فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه. فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور، لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور، كالناصح المشير، وقدر إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر، وأن فى حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر، مثل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. فهذا مصلحته فى أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج لا فى أن يعينه على ذلك، إذ لو أعانه لضرة قومه. ومثل هذا كثير.

وإذا قيل: إن الله أمر العباد بما يصلحهم، لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به، لا سيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحداً على ما به يصير فاعلاً. وإذا عللت أفعاله بالحكمة، فهى ثابتة فى نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها. فلا يلزم إذا كان نفس[1] الآمر له حكمه فى الأمر أن يكون فى الإعانة على فعل المأمور به حكمة؛ بل قد تكون الحكمة تقتضى أن لا يعينه على ذلك، فإنه إذا أمكن فى المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر لمصلحة المأمور، وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يعينه على ذلك - فإمكان ذلك فى حق الرب أولى وأحرى.

والمقصود: أنه يمكن فى حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمره ولا يعينه عليه فالخالق أولى بإمكان ذلك فى حقه مع حكمته. فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره إنشاءه خلقاً ومحبة، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر. ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك

---

(١) فى ب: بزيادة «فى».

المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده. وخلق أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض – الذى يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان – يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح. ولذلك كان خلق ظلم الظالم – الذى يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض – يضاد خلق عدله الذى لا يحصل به هذه المصالح، وإن كانت مصلحته هو فى أن يعدل.

وتفصيل حكمة الله عز وجل فى خلقه وأمره، يعجز عن معرفته عقول البشر. والقدرية دخلوا فى التعليل[1] على طريقة فاسدة: مثلوا الله فيها بخلقه، ولم يثبتوا حكمة تعود إليه.

قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)

ش: قال تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٠] قال فى «الصحاح»[2] توهمت الشى: ظننته، وفهمت الشيء: علمته. فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهى إليه وهم، ولا يحيط به علم. قيل: الوهم ما يرجى كونه، أى يظن أنه على صفة[3] كذا، والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به.. والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤].

---

(١) فى ب: «التعطيل».

(٢) كتاب الصحاح: ألفه العلامة أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى واختصره محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى فى مختصر سماه «مختار الصحاح».

(٣) فى ب: «صيغة»..

تهافت المشبه والرد عليها

قوله: (ولا يشبهه الأنام)

ش: هذا رد لقول المشبهة، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] وليس المراد نفى الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبى حنيفة رحمه الله فى «الفقه الأكبر»: لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه[١]. ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا. انتهى. وقال نعيم بن حماد[٢]: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه وقال إسحاق بن راهويه[٣]: من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم. وقال: غلامة جهم وأصحابه: دعواهم على أهل السنة والجماعة – ما أولعوا به من الكذب – أنهم مشبهة؛ بل هم المعطلة. وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمى المثبت لها مشبهاً، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة: القرامطة[٤] والفلاسفة، وقال: إن الله لا يقال له: عالم ولا قادر يزعم أن

---

(١) سقط من ب: «ولا يشبهه شيء من خلقه».

(٢) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعى المروزنى، أبو عبد الله: أول من جمع المسند فى الحديث، كان من أعلم الناس بالفرائض، ولد فى مرو وأقام مدة بالعراق والحجاز يطلب الحديث ثم سكن مصر، حمل إلى العراق فى خلافة المعتصم وسئل عن القرآن أمخلوق هو؟ فأبى أن يجيب فحبس فى سامراء ومات فى سجنه سنة ٢٢٨ هـ من كتبه «الفتن والملاحم» منه نسخة فى جامعة الرياض تحت رقم ٢١٦ كتب سنة ٦٨٧هـ (تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص٧).

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى، أبو يعقوب بن راهويه. عالم خراسان فى عصره ولد سنة ١٦١هـ أحد كبار الحفاظ، طاف البلاد لجمع الحديث، أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى. من تصانيفه المسند توفى عامٍ ٢٣٨هـ.

(٤) القرامطة: أصحاب دعوة انتشرت وكان رأس الطريقة داعياً إسماعيلياً اسمه حمدان ولقبه قرميطى أى أحمر العينين، انتشرت هذه الدعوة فى اليمن حينما بعث ميمون القداح الكوفى، أحد دعاة عبيد الله المهدى جد الفاطمين باثنين من الدعاة إلى اليمن سنة ٩٠٤ وتكون جيش وتغلبوا على جيوش الإمام الهادىٍ وقامت فى اليمن فتن وحروب كثيرة واستباح القرامطة الكثير من الحرمات. مات رئيسها مسموماً وقضى على نفوذهم الإمام ابن حميد الدين واستولى على ما كان لديهم من مخطوطات تشرح مذهبهم وتعاليمهم.

من سماه بذلك فهو مشبه، لأن الاشتراك فى الاسم يوجب الاشتباه فى معناه، من أثبت الاسم وقال: هو مجاز، كغالية الجهمية، يزعم أن من قال: إن الله عالم حقيقة، قادر حقيقة: فهو مشبه، ومن أنكر الصفات وقال: إن الله ليس له علم ولا قدرة، ولا كلام ولا محبة ولا إرادة – قال لمن أثبت الصفات: إنه مشبه، وإنه مجسم. ولهذا كُتب نفات الصفات، من الجهمية والمعتزلة والرافضة[1] ونحوهم، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون فى كتبهم: إن من جملة المجسمة قوماً يقال لهم: المالكية، ينسبون إلى رجل يقال له: مالك بن أنس[2] وقوماً يقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له: محمد بن إدريس!! حتى الذين يفسرون القرآن منهم، كعبد الجبار[3]، والزمخشرى[4]، وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية – مشبهاً، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم

---

(١) الرافضة: كانوا أتباع زيد بن علي بن أبى طالب: وطلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب – رضى الله عنهما فقال: لقد كانا وزيرى جدى فلا أتبرأ منهما فرفضوه وتفرقوا عنه – وقد يطلق بعض الناس اسم الرفض على كل من يتولى أهل البيت وعلى هذا جاء قول الذى يقول:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض

(٢) مالك بن أنس بن مالك الأصبحى الحميرى، أبو عبد الله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية ولد عام ٩٣هـ بالمدينة كان صلباً فى دينه بعيداً عن الامراء والملوك – سأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به فصنف الموطأ وله رساله فى الرد على القدرية توفى سنة ١٧٩هـ (تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٥).

(٣) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار أبو الحسين قاضى أصولى، كان شيخ المعتزلة فى عصره له تصانيف منها (تنزيه القرآن عن المطاعن)، والأمالى)، و(وشرح الأصول الخمسة)، (والمغنى فى أبواب التوحيد) مات سنة ٤١٥هـ. (لسان الميزان جـ٣ ص٣٨٦).

(٤) الزمخشرى: هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة أبو القاسم الخوارزمى النحوى، اللغوى، المعتزلى، المفسر.

ولد فى رجب سنة سبع وستين وأربعمائه «بزمخشر» قرية من قرى خوارزم، وكان عالماً بالأدب والنحو وله تصانيف منها «الكشاف» فى التفسير، و«الفائق» فى غريب الحديث و«المفصل» فى النحو وغير ذلك توفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. (طبقات المفسرين جـ٢ ص٢١٤، ٣١٥).

لا يريدون بنفى التشبيه نفى الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبى حنيفة رحمه الله - أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١]. فنفى المثل وأثبت الصفة(١).

وسيأتى فى كلام الشيخ إثبات الصفات تنبيهاً على أنه ليس نفى التشبيه مستلزماً لنفى الصفات.

ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهى لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلى يستوى فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولى يستوى أفراده فإن الله سبحانه ليس كمثله شىء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو غيره تحت قضية كلية يستوى أفرادها. ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة فى المطالب الإلهية - لم يصلوا بها إلى اليقين؛ بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهى الحيرة والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافيها(٢).

ولكن يستعمل فى ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى** ﴾ [النحل: ٦٠] مثل أن يعلم أن كل كمال(٣) للممكن أو للمحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهو ما كان مالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه، فالواجب القديم أولى به. وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبَّر؛ فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره، وهو أحق به منه. وأن كل نقص وعيب فى نفسه، وهو ما تضمن سلب هذا الكمال، إذا وجب نفيه عن شىء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات؛ فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى.

ومن أعجب العجب: أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية

---

(١) فى ب: «الوصف».
(٢) أصل الكلمة تكافئها، وتسهيل الهمزة حولها إلى ما ترى ومعناها تساويها.
(٣) فى ب بزيادة «ثبت وهى أصح»..

الكريمة على نفى الصفات والأسماء، ويقولون: واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا – ثم يقولون: أصل الفلسفة هى التشبيه بالإله على قدر الطاقة، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنسانى، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة.. ويروى عن النبى – ﷺ – أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الله»(١) فإذا كانوا ينفون الصفات، فبأى شىء يتخلق العبد على زعمهم؟! وكما أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته تعالى، لا يشبهه شىء من مخلوقاته، لكن أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، لكن المخالف فى هذا النصارى والحلولية والإتحادية – لعنهم الله تعالى – ونفى مشابهة شىء من مخلوقاته له، مستلزم لنفى مشابهته لشىء من مخلوقاته. فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولا يشبهه الأنام. والأنام: الناس، وقيل: كل ذوى روح، وقيل: الثقلان. وظاهر قوله تعالى: ﴿**والأرض وضعها للأنام**﴾ [الرحمن: ١٠] يشهد للأول أكثر من الباقى. والله أعلم.

صفة الحياة

قوله: (حى لا يموت قيوم لا ينام)

ش: قال تعالى ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] فنفى السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته وقال تعالى: ﴿**الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ [آل عمران: ١ – ٣]. وقال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾ [طه: ١١١] وقال تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ**﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال تعالى: ﴿**هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [غافر: ٦٥] وقال ﷺ: «إن الله لا ينامُ ولا ينبغى له أن ينامَ» الحديث(٢)..

---

(١) قال الشيخ الألبانى: لا نعرف له أصلاً فى شىء من كتب السنة ولا فى «الجامع الكبير» للسيوطى.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٢٩٣، ٢٩٥. ورواه ابن ماجه فى المقدمة ١٣. وأحمد ابن حنبل ٤ – ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥. ولفظه عند ابن ماجه عن أبى موسى قال قام فينا رسول الله – ﷺ – بخمس كلمات فقال: إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه: فمن ذلك: أنه حى لا يموت، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون. ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسِّنة، دون خلقه، فإنهم ينامون. وفى ذلك إشارة إلى أن نفى التشبيه ليس المراد منه[1] نفى الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته فالحى بحياة باقية لا يشبه الحى بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً وأن الدار الآخرة لهى الحيوان.. فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة وهى للمخلوق – لأنا نقول: الحى الذى الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذى وهب المخلوق تلك الحياة، فهى دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى: وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين، أعنى: الحى القيوم مذكوران فى القرآن معاً فى ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الإسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية، مما لا يدل عليه لفظ القديم. ويدل – أيضاً – على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود.. والقيوم أبلغ من «القيام» لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه، باتفاق المفسرين، وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة. وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان أصحهما: أنه يفيد ذلك. وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يافل، فإن الآفل قد زل قطعاً، أى: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم؛ بل هو الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال. واقترانه بالحى يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها انتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً. ولهذا كان قوله: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية فى القرآن، كما ثبت ذلك فى «الصحيح»

---

(١) فى ب: «به».

عن النبى – ﷺ[1] – فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة... وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه. المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته فانتظم هذان الاسمان صفات اكمال أتم انتظام.

صفتى الخلق والرزق

قوله: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة)

ش: قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨]. ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥] ﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ [محمد: ٣٨] ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ** ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال ﷺ، من حديث أبى ذر رضى الله عنه: «يا عبدى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته – ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» رواه مسلم[2] وقوله بلا مؤنة بلا ثقل ولا كلفة.

---

(١) عن واثلة بن الأسقع – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – جاءهم فى صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أى آية فى القرآن أعظم؟ قال رسول الله – ﷺ – «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» أخرجه أبو داود.

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ ٥ ص ١٦٠، ورواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظلم ١٥ بسنده عن أبى ذر – رضى الله عنه – وفيه: يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

قوله: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة)

ش: الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً. وفي الحديث: أنه «يؤتى بالموت يومَ القيامة على صورة كبْش أملحَ، فيُذبَحُ بين الجنَّة والنار»(١). وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبه عيناً، كما ورد في العمل الصالح: «أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة»(٢). وورد في القرآن: «أنَّه يأتي على صورة الشَّاب الشاحب اللَّون»(٣)، الحديث. أي قراءة القارىء. وورد في الأعمال: «أنها توضع في الميزان»، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض.. وورد في سورة البقرة وآل عمران: «أنهما يوم القيامة يُظلاَّن صاحبهما كأنهما غَمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف»(٤). وفي الصحيح: «أن أعمال العباد تصعد إلى السماء»(٥) وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى.

---

(١) الحديث رواه البخاري في التفسير سورة ١٩، ورواه الإمام مسلم في الجنة ٤٠، والترمذي في التفسير سورة ١٩، والدرامي في الرقاق ٩٠، وأحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٢٧٧، ٤٢٢.

(٢) يشير إلى حديث البراء في عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين وهو حديث طويل رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وروى النسائي، وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الاسفرائيني في صحيحهما وابن حبان.

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في الأدب ٥٢، ورواه الدارمي في فضائل القرآن رقم ١٥، ورواه أحمد بن حنبل في المسند جـ ٥ ص ٣٤٨، ٣٥٢، وعلق الشيخ الألباني بقوله: وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح» قلت: لا، فإن فيه بشير بن المهاجر، وهو صدوق لين الحديث كما قال الحافظ في التقريب، فمثله يحتمل حديثه التحسين، أما التصحيح فهو بعيد.

(٤) الحديث رواه مسلم في المسافرين ٢٥٢، ٢٥٣، ورواه الترمذي في ثواب القرآن ٥، ورواه الدارمي في فضائل القرآن ١٥، ورواه أحمد بن خنبل في المسند ٤ ، ١٧٣، ٥ - ٢٤٩، ٢٥١.

وكلمة «غيايتان» في الحديث قال أهل اللغة الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه: سحابة وغبرة وغيرهما.

(٥) قال الشيخ الألباني: روى البخاري ١ - ٢٠٥ طبع أوربا - عن رفاعة بن رافع الزرقي: كنا نصلي يوماً وراء النبي - ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده. قال رجل وراءه ربنا لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال: أنا، قال: أريت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول. وروى الترمذي ٢ - ٢٥٤ ٢٥٥، والنسائي ١ - ١٤٧ من طريق أخرى عن رفاعة ونحوه بلفظ لقد ابتدرها بضعةوثلاثين ملكاً أيهم يصعد بها. قال الترمذي حديث حسن قلت وإسناده جيد، وله شاهد من حديث عبد الله بن أبي أوفي ونحوه فيه «والله لقد رأيت كلامك يصعد في السماء حتى فتح باب فدخل فيه». أخرجه أحمد ٤ - ٣٥٥ -.

صفات الذات وصفات الفعل

قوله: (وما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، وكذلك لا يزال عليها أبدياً).

ش: أى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل.. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده. ولا يرد على هذه صفة الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير، والإماتة والإحياء، والقبض والبسط والطى، والاستواء والإتيان والمجىء والنزول، والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التى هى تأويله، ولا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضى الله عنه، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: ٥٤] وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الإستواء معلوم، والكيف مجهول[١] وإن كانت هذه الأحوال تحدث فى وقت دون وقت، كما فى حديث الشفاعة: «إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»[٢] لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم، لأنه آفة كالصغر[٣] والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفى حالة تكلمه يسمى متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب فى حالة الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً فى حال عدم مباشرته الكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفى فى علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته فى كتاب ولا سنة وفيه إجمال: فإن أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى

---

(١) بقية جواب الإمام مالك - رضى الله عنه -: والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.
(٢) سيذكر هذا الحديث بتمامه بعد ذلك.
(٣) فى ب سقط كلمة آفة - وأيضاً كالصغر جاءت كالصغير

ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفى صحيح.. وإن أريد به نفى الصفات الإختيارية، من أنه لا يفعل ما يرد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته - فهذا نفى باطل.

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفى حلول الحوادث فيسلم السنى للمتكلم ذلك، على ظن أنه نفى عنه سبحانه مالا يليق بجلاله، فإذا سلّم له هذا الذى ألزمه نفى الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو غير لازم له. وإنما أتى السنى من تسليم هذا النفى المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه

هل الصفات زائدة على الذات أم لا ؟

كذلك[1] مسألة الصفة: هل هى زائدة على الذات أم لا؟ لفظها مجمل، وكذلك لفظ الغير، فيه إجمال، فقد يراد به ما ليس هو إياه، وقد يراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره، ولا أنه ليس غيره. لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفى قد يشعر بأنه هو، إذا كان لفظ الغير فيه إجمال، فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل: فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها - فهذا غير صحيح، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التى يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق، ولكن ليس فى الخارج ذات مجردة عن الصفات؛ بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا ينفصل عنها، وإنما يفرض[2] الذهن ذاتاً وصفة، كلا وحده، ولكن ليس فى الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال، ولو لم يكن إلا صفة الوجود، فإنها لا تنفك عن الوجود[3]، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً، يتصور هذا وحده، وهذا وحده، لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الخارج.

---

(١) فى ب: «وكذا».
(٢) فى ب: «يعرض».
(٣) فى ب: «الوجود».

وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره . هذا له معنى صحيح وهو : أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التى يفرضها الذهن مجردة بل هى غيرها، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد . فإذا قلت أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه .

وإذا قلت : أعوذ بعزة الله، فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى، ولم تعذ بغير الله . وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات، فإن ذات فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أى : ذات وجود، ذات قدرة، ذات عز، ذات علم، ذات كرم، إلى غير ذلك من الصفات . فذات كذا بمعنى صاحبة كذا : تأنيث « ذو » . هذا أصل معنى الكلمة، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة عن الصفات، كما يفرض المحال وقد قال ﷺ : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[1] . وقال ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق »[2] . ولا يعوذ بغير الله . وكذا قال ﷺ : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك »[3] . . وقال ﷺ : « ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا »[4] . وقال ﷺ : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » .

---

(١) قال الشيخ الألبانى : أخرجه مسلم رقم ٢٢٠٢ ونصه عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله – ﷺ وجعاً فى جسده منذ أسلم، فقال رسول الله – ﷺ : صنع يدل على الذى تألم من جسدك وقل : بسم الله ثلاثاً وسبع مرات : وأعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » ورواه مالك فى الموطأ ٢ – ٩٤٢ – ٩ بلفظ « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » دون لفظة « وأحاذر » عنه وأبو داود رقم ٣٨٩١ والترمذى وقال : خديث حسن صحيح . قلت : وسنده صحيح على شرط الشيخين وليس عندهما أيضاً لفظة « وأحاذر » كذلك رواه أحمد (٤ – ٢١٧ و٦ – ٣٩٠) .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ١٠ ورواه مسلم فى الدعوات ٥٤، ٥٥، ورواه أبو داود فى الطب ١٩ ورواه ابن ماجه فى الطب ٣٥ بزيادة : ماضره لدغ عقرب حتى يصبح .

(٣) الحديث رواه مسلم فى الصلاة ٢٢٢ بزيادة : لا أحصى ثناء عليك كما اثنيت على نفسك، والترمذى فى الدعوات ٧٥، ١٢ وابن ماجه فى الإقامة ١١٧، والدعاء ٣ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى الأدب ١٠١، والنسائى فى الاستعاذة ٦٠ وابن ماجه فى الدعاء ١٤ وأحمد بن حنبل ٢ – ٢٥، وعند ابن ماجه : وأعوذ بك أن أغتال من تحتى . قال وكيع يعنى الخسف .

وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى أو غيره؟ وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك، وجهلوا الصواب فيه: فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك - فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربى، والرحمن اسم عربى، والرحيم[1] من أسماء الله تعالى ونحو ذلك - فالاسم هاهنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال غيره، لما فى لفظ الغير من الإجمال: فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعتهم: فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى.

والشيخ - رحمه الله - أشار بقوله: مازال بصفاته قديماً قبل خلقه - إلى آخر كلامه:

إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة. فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى.

وابن كلاب[2] والأشعرى ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه. وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شىء واحد لازم لذاته

الرد على الجهمية والمعتزلة فى الصفات

وأصل هذا الكلام من الجهمية، فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وأنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع أن يكون البارى عز وجل لم يزل فاعلاً متكلماً بمشيئة؛ بل يمتنع أن يكون قادراً على ذلك،

---

(١) فى ب: «الرحمن».

(٢) ابن كلاب: هو عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب القطان البصرى أحد المتكلمين أيام المأمون، وذم المعتزلة فى مجلس المأمون، وله عباد بن سليمان مناظرات، وكان ابن حنبل من أشد الناس عليه، ووفاته بعد الأربعين ومائتين بقليل، والسبكى يذكر أنه من متكلمى أهل السنة. (لسان الميزان جـ٣ ص ٢٩٠ وطبقات الشافعية جـ٢ ص ٥١).

لأن القدرة على الممتنع ممتنعة، وهذا فاسد، فإنه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلابد أن يكون ممكناً، والإمكان ليس له وقت محدود، وما من وقت يقدَّر إلا والإمكان ثابت فيه، وليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهى إليه، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً صحيحاً، فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها.

قالت الجهمية ومن وافقهم: نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له، لكن نقول: إمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية له، وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمة النوع، بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها، لكن لا يجب الحدوث فى وقت بعينه، فإمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا أول[1] له، وبخلاف جنس الحوادث.

فيقال لهم: هب إنكم تقولون ذلك، لكن يقال: إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية فإنه[2] صار جنس الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً، وليس لهذا الإمكان وقت معين؛ بل ما من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم دوام الإمكان، وإلا لزم انقلاب الجنس من الإمتناع إلى الإمكان من غير حدوث شىء. ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث أو جنس الحوادث، أو جنس الفعل، أو جنس الأحداث، أو ما أشبه هذا من العبارات – من الإمتناع إلى الإمكان، وهو مصير ذلك ممكناً جائزاً بعد أن كان ممتنعاً من غير سبب تجدد، وهذا ممتنع فى صريح العقل،وهو أيضاً انقلاب الجنس من الإمتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى، فإن ذات جنس الحوادث، عندهم، تصير ممكنة بعد أن كانت ممتنعة، وهذا الإنقلاب لا يختص بوقت معين، فإن ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم أنه لم يزل هذا الإنقلاب ممكناً، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكناً! وهذا أبلغ فى الإمتناع من قولنا: لم يزل الحادث ممكناً، ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل، وأما كون الممتنع ممكناً فهو ممتنع فى نفسه، فكيف إذا قيل: لم يزل إمكان هذا الممتنع؟ وهذا مبسوط فى موضعه.

فالحاصل: أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها فى المستقبل والماضى أم لا؟ أو فى المستقبل فقط؟ أو الماضى فقط؟

(١) فى ب: لأوله.
(٢) فى ب: فإن.

فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم: أضعفها: قول من يقول؛ لا يمكن دوامها لا فى الماضى ولا فى المستقبل، كقول جهم بن صفوان وأبى الهذيل العلاف[1].

وثانيهما قول من يقول: يمكن دوامها فى المستقبل دون الماضى كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم..

والثالث: قول من يقول: يمكن دوامها فى الماضى والمستقبل، كما يقول أئمة الحديث، وهى من المسائل الكبار ولم يقل أحد يمكن دوامها فى الماضى دون المستقبل.

ولا شك أن جمهور العلماء من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين، واليهود والنصارى وغيرهم.

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه - ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث فى المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذى ليس بعده شىء، فكذا تسلسل الحوادث فى الماضى لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذى ليس قبله شىء. فإن الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال، يفعل ما يشاء ويتكلم إذا شاء. قال تعالى: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٥، ١٦]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩].

---

(١) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى، مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف من أئمة المعتزلة ولد فى البصرة عام ١٣٥ واشتهر بعلم الكلام، له مقالات فى الاعتزال، كف بصره فى آخر عمره وتوفى بسامرا عام ٢٣٥ هـ له كتب كثيرة منها «ميلاس» على اسم مجوسى أسلم على يده. «وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٠».

والمثبت إنما هو الكمال الممكن الوجود، وحينئذ فإذا كان النوع دائماً فالممكن والأكمل هو المتقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون في أجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه.

وأما دوام الفعل فهو أيضاً من الكمال، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام كمال.

البحث في التسلسل

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل، لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة، ليجب مراعاة لفظة، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب: مادل عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث فهم نعيماً آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر. فهذا واجب في كلامه، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي فعال، والفرق بين الحي والميت: الفعل، ولهذا قال غير وحد من السلف: الحي الفعال. وقال عثمان بن سعيد[1]: كل حي فعال، ولم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الأوقات معطلاً عن كماله، من الكلام والإرادة والفعل

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما تسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً، وذلك من لوازم ذاته – فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد إن لم يكن.

---

(١) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني أبو سعيد، محدث هراة له تصانيف في الرد على الجهمية منها «النقض على بشر المريسي» وله مسند كبير توفي في هراة سنة ٢٨٠هـ (تذكرة الحفاظ جـ٢ ص١٧٧).

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضى ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل لزمه أحد أمرين، لابد له منهما: إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكناً، وإما أن يقول لم يزل واقعاً وإلا تناقض تناقضاً بيناً، حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لو أراده لم يكن وجوده؛ بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له. وهذا قول ينقض بعضه بعضاً.

والمقصود أن الذى دل عليه الشرع والعقل، أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن أما كون الرب تعالى لم يزل معطلاً عن الفعل ثم فعل، فليس فى الشرع ولا فى العقل ما يثبته؛ بل كلاهما يدل على نقيضه.

وقد أورد أبو المعالى[1] فى «إرشاده»[2] وغيره من النظار على التسلسل فى الماضى، فقالوا: إنك لو قلت: لا أعطيك درهماً إلا أعطيك بعده درهماً، كان هذا ممكناً، ولو قلت: لا أعطيك درهماً حتى أعطيك قبله درهماً، كان هذا ممتنعاً..

وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة، بل الموازنة الصحيحة أن تقول: ما أعطيتك درهماً إلا أعطيتك قبله درهماً، فتجعل ماضياً قبل ماض، كما جعلت هناك مستقبلاً بعد مستقبل. وأما قول القائل: لا أعطيك حتى أعطيك قبله، فهو نفى للمستقبل حتى يحصل فى المستقبل ويكون قبله. فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل وهذا ممتنع أما نفى الماضى حتى يكون قبله ماض، فإن هذا ممكن. والعطاء المستقبل ابتداؤه من المستقبل. والمعطى الذى له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله مالا نهاية له، فإن مالا نهاية له فيما يتناهى ممتنع.

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى، أبو المعالى. ركن الدين الملقب بإمام الحرمين. أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى، ولد فى جوين من نواحى نيسابور عام ٤١٩هـ ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس. بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية – من كتبه: العقيدة النظامية والبرهان فى أصول الفقه والإرشاد فى أصول الدين توفى فى عام ٤٧٨هـ (وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٨٧).

(٢) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور محمد يوسف موسى، والدكتور على عبدالمنعم.

صفتي الخالق والبارىء

قوله: (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم «الخالق» ولا بإحداثه البرية استفاد اسم «البارى»):

ش: ظاهر كلام الشيخ – رحمه الله – أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي ويأتي في كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه في المستقبل، وهو قوله «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان»، وهذا مذهب الجمهور كما تقدم. ولا شك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل، كما ذهب إليه الجهم وأتباعه وقال بفناء الجنة والنار، لما يأتي من الأدلة إن شاء الله تعالى.

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها، من القائلين بحوادث لا آخر لها – فاظهر في الصحة من قول من فرق بينهما، فإنه سبحانه لم يزل حياً، والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلاً لما يريد، كما وصف بذلك نفسه، حيث يقول: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٥، ١٦]

والآية تدل على أمور:

أحدهما: أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح، والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧]. ولما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: إنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر: فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً[1] وهذه هي

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: في الكلام هنا نقص ظاهر، ولعل أصله «وإن أراده حتى يريد من نفسه» «أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً «وجد الفعل».

النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا فى مسألة القدر، لغفلتهم عنها، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلاً. وسيأتى الكلام على مسألة القدر فى موضعه - إن شاء الله تعالى.

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فعل، وما فعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد مالا يفعل، وقد يفعل مالا يريده. فما ثَم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، هذا هو المعقول فى الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد..

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجىء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يرى عباده نفسه، وأن يتجلى لهم كيف شاء، ويخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يرد. وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر وجب التصديق، وكذلك محو ما يشاء، وإثبات ما يشاء، «كل يومٍ هُوَ فى شَأن»، سبحانه وتعالى.

والقول: بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلاً. ولا يلزم من ذلك قدم العالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر والاحتياج وصف ذاتى لازم لكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاته، غنى لذاته، والغنى وصف ذاتى لازم له سبحانه وتعالى.

وللناس قولان فى هذا العالم: هل هو مخلوق من مادة أم لا؟

آراء العلماء فى أول مخلوق لله:

واختلفوا فى أول هذا العالم ما هو؟ وقد قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: ٧].

وروى البخارى وغيره عن عمران بن حصين[١] رضى الله عنه، قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه فى الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، - وفى رواية - ولم يكن شيء معه»[٢]

وفى رواية «غيره»: «وكان عرشُه على الماء، وكتب فى الذكر كلِّ شيء، وخلق السموات والأرض»، وفى لفظ: «ثم خلق السموات والأرضَ» فقوله «كتب فى الذكر» يعنى اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يسمى ما يكتب فى الذكر ذكراً، كما يسمى ما يكتب فى الكتاب كتاباً.

والناس فى هذا الحديث على قولين: منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجوداً وحده ولم يزل كذلك دائماً، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا فى الزمان، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكناً. والقول الثانى: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذى خلقه الله فى ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن بذلك فى غير موضع، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر[٣] رضى الله عنهما عن النبى - ﷺ - أنه قال: «قدَّر الله تعالى مقاديرَ الخلق قبل أن يخلقَ السموات والأرضَ

---

(١) هو عمران بن حصين بن عبيد، يكنى أبا نجيد، أسلم عام خيبر، كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم: يقول عنه أهل البصرة ومحمد بن سيرين، أفضل من نزل البصرة من أصحاب رسول الله - ﷺ - مات بالبصرة سنة ٥٢هـ فى خلافة معاوية - رضى الله عنهما، روى عنه جماعة من تابعى أهل البصرة والكوفة. (الاستيعاب جـ٣ رقم ١٢٠٨).

(٢) الحديث رواه البخارى ٨ - ٦٦ فى المغازى، باب وفد تميم، وباب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، وفى بدء التوحيد باب ما جاء فى قوله الله تعالى: «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده» وفى التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ورواه الترمذى رقم ٣٩٤٦ فى المناقب - باب فى ثقيف وبنى حنيفة إلى قوله: قبلنا يا رسول الله، وأخرجه أحمد فى المسند ٤ - ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦.

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى، أبو عبدالرحمن: صحابى من أعز بيوتات قريش: نشأ فى الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ولد بها سنة ١٠ ق هـ، أفتى الناس فى الإسلام ستين سنة ولما قتل عثمان عرض عليه قوم أن يبايعوه بالخلافة فأبى. غزا أفريقيا مرتين توفى بمكة سنة ٧٣هـ. رحمه الله.

بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[١] فأخبر ﷺ «أن تقدير هذا العالم المخلوق فى ستة أيام كان قبل خلقه السموات بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء»..

دليل صحة هذا القول الثانى من وجوه: أحدهما: أن قول أهل اليمن «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر»، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور، أى الذى كونه الله بأمره. وقد أجابهم النبى - ﷺ - عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات، لأنهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء، ولم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض. وأيضاً فإنه قال: «كان الله ولم يكن شىء قبله»، وقد روى «معه» وروى «غيره»، والمجلس كان واحداً فعلم أنه قال أحد الألفاظ والآخران رويا بالمعنى، ولفظ «القبل» ثبت عنه فى غير هذا الحديث... ففى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى - ﷺ -: أنه كان يقول فى دعائه «اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء»[٢]، الحديث. واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما فى موضع آخر، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القبل، كالحميدى[٣] والبغوى[٤] وابن الأثير[٥] وإذا

---

(١) قال الشيخ الألبانى: أخرجه البيهقى فى الأسماء ٢٦٩ وفى روايه له «فرغ الله عز وجل من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة».

(٢) سبق تخريج هذا الحديث فيما تقدم.

(٣) هو عبد الله بن الزبير الحميدى الأسدى أبو بكر، أحد الأئمة فى الحديث من أهل مكة، رحل مع الإمام الشافعى إلى مصر، ولزمه إلى أن مات فعاد إلى مكة يفتى بها وهو شيخ البخارى ورئيس أصحاب ابن عيينة روى عنه البخارى ٧٥ حديثاً وذكره مسلم فى مقدمة كتابه، توفى بمكة وله مسند مطبوع سنة ٢١٩هـ. (تهذيب التهذيب جـ٥ ص٣١٥).

(٤) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوى حافظ للحديث من العلماء أصله من بغشور ولد سنة ٢١٣هـ وتوفى سنة ٣١٧ ببغداد له معالم التنزيل فى التفسير، ومعجم الصحابة. «لسان الميزان جـ٣ ص٢٣٨»..

(٥) المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى الجزرى أبو السعادات، مجد الدين: المحدث اللغوى الأصولى. ولد سنة ٥٤٤ فى جزيرة ابن عمر وانتقل إلى الموصل فاتصل بصاحبها، فكان من أخصائه وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه ولازمه المرض إلى أن توفى فى إحدى قرى الموصل سنة ٦٠٦هـ من كتبه النهاية فى غريب الحديث، وجامع الأصول فى أحاديث الرسول. «وفيات الأعيان جـ١ ص ٤٤٤».

كان كذلك لم يكن فى هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.
وأيضاً: فإنه قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ قبلَه أو «معه» أو «غيره»»، «وكان عرشُه على الماء وكتب فى الذكر كلَّ شيء». فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، و«خلق السموات والأرض» روى بالواو وبثم، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهى الملخوقات التى خلقت فى ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقهما، وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده، لم يتعرض لابتداء خلقه له وأيضاً: فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا، فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطىء قطعاً، ولم يأت فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث، ولم يرد «كان الله ولا شيء معه» مجرداً، وإنما ورد على السياق المذكور، فلا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السموات والأرض وأيضاً: فقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء قبله، أو معه، أو غيره، وكان عرشُه على الماء»، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً، لأن قوله «وكان عرشُه على الماء»، يرد ذلك، فإن هذه الجملة وهى «وكانَ عرشُه على الماء» إما حالية، أو معطوفة، وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود فى ذلك الوقت، فعلم أن المراد ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود.

قوله: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق)

ش: يعنى أن الله تعالى موصوف بأنه «الرب» قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه «خالق» قبل أن يوجد مخلوق. قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال: «له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق دون الخالقية»، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضى معانى كثيرة، وهى: الملك والحفظ والتدبير والتربية، وهى تبليغ الشيء كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعانى، وهى الربوبية. انتهى. وفيه نظر، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضاً.

قوله: (وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنسائهم).

ش: يعنى: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيى الموتى قبل إحيائهم فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاماً للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم. وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

قوله: ذلك بأنه على كل شئ قدير، وكل شئ إليه فقير، وكل أمر عليه يسير لا يحتاج إلى شيء.

قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

ش: ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته فى الأول قبل خلقه. والكلام على «كل» وشمولها وشمول «كل» فى كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن – يأتى فى مسألة الكلام – إن شاء الله تعالى.

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقالوا إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التى لا فائدة فيها. فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شىء.

وأما أهل السنة، فعندهم أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج فى هذا. وأما المحال لذاته، مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً فى حال واحدة، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً، باتفاق العقلاء. ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير. وإنما تنازعوا فى المعدوم الممكن: هل هو شيء أم لا؟ والتحقيق أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب، لا في الخارج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] أي لم تك شيئاً في الخارج وإن كان شيئاً في علمه تعالى. وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]..

وقوله: «ليس كمثله شيءٌ»، رد على المبشهة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد على المعطلة، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيه. فالمخلوق وإن كان يوصف بانه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به.

ولا تنفي عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه، وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنصحهم لأمته وأفصحهم وأقدرهم على البيان. فإنك إن نفيت شيئاً من ذلك كنت كافراً بما أنزل على محمد ﷺ، وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه، فليس كمثله شيء. فإذا شبهته بخلقه كنت كافراً به قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه. فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً. وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله «ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه».

لله المثل الأعلى

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] فجعل سبحانه مثل السوء – المتضمن للعيوب والنقائص، وسلب الكمال – لأعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى – المتضمن لإثبات الكمال كله – لله وحده، فمن سلب صفة[1] الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل

(١) في ب: صفات.

السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعانى الثبوتية، التى كلما كانت أكثر - فى الموصوف - وأكمل، كان بها أكمل وأعلى من غيره

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك فى المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافئا من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافئا فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير.

واختلفت عبارات المفسرين فى المثل الأعلى ووفق بين أقوالهم بعض[1] من وفقه الله وهداه، فقال: المثل الأعلى يتضمن: الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمى، والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابدية وذاكريه.

فها هنا أمور أربعة: الأول[2]: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى، سواء علمها العباد أو لا، وهذا معنى قول من فسرها بالصفة.

الثانى: وجودها فى العلم والشعور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه مافى قلوب عابديه وذاكريه، من معرفته وذكره، ومحبته وجلاله، وتعظيمه، وخوفه ورجائه، والتوكيل عليه، والإنابة إليه. وهذا الذى فى قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره أصلاً، بل يختص به فى قلوبهم، كما اختص به فى ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: إن معناه: ان أهل السموات يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض كذلك، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فأهل الأرض معظمون له، مُجلون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [الروم: ٢٦].

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

(١) سقط من «أ» بعض (٢) سقط من ب: الأول

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف كلها تدور على هذه المعانى الأربعة. فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [الروم: ٢٧]، وبين قوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١] ويستدل بقوله: «ليسَ كمثله شيء» على نفى الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله «وهُوَ السميعُ البصيرُ» حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم. وهو أحمد بن أبى دؤاد القاضى[١]، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرَّف كلام الله لينفى وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر، جهم بن صفوان: وددت أنى أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، بمنه وكرمه.

إعراب ليس كمثله شيء

وفى إعراب «كمثله» وجوه: أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد قال أوس بن حجر[٢]:

ليسَ كمثلِ الفتَى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقال آخر: ما إن كمثلهم فى الناس من بشر.

وقال آخر: ومثلى كمثل جذوع النخيل.

فيكون (مثله) خبر (ليس) واسمها (شيء). وهذا وجه قوى حسن،

---

(١) هو أحمد بن أبى داود بن جرير بن مالك الآيادى أبو عبد الله، أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس الفتنة التى أثارها بقوله خلق القرآن أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكانوا لا يبدأهم أحد حتى يبدأوه وكان عارفاً بالأخبار والأنساب توفى مفلوجاً ببغداد سنة ٢٣٣، كان جهمياً بغيضاً حمل الناس على القول بخلق القرآن. «ابن خلكان جـ١ ص٢٢».

(٢) هو أوس بن حجر بن مالك التميمى أبو شريح، شاعر تميم فى الجاهلية أو من كبار شعرائها. كان كثير الأسفار، وكثرت إقامته عند عمرو بن هند فى الحيرة، عمر طويلاً ولم يسلم، وكات تميم تقدمه على سائر شعراء العرب، توفى عام ٢ ق هـ. «معاهد التنصيص جـ ١ ص١٣٢».

تعرف العرب معناه في لغتها، ولا يخفى عنها إذا خوطبت به، وقد جاء عن العرب أيضاً زيادة الكاف للتأكيد في قول بعضهم:

وصاليات كما يؤثفين[1].

وقول الآخر: فأصبحت مثل كعصفٍ مأكول.

الوجه الثاني: أن الزائد مثل أي: ليس كهو شيء، وهذا القول بعيد، لأن مثل اسم والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم.

الثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا هو باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله، وأتى بمثل للمبالغة، وقالوا في معنى المبالغة هنا: أي: ليس كمثله مثل لو فرض المثل، فكيف ولا مثل له. وقيل غير ذلك والأول أظهر.

خلق الله تعالى الخلق بعلمه

قوله: (خلق الخلق بعلمه)

ش: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق أيضاً بمعنى: قدر. والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق. وقوله: (بعلمه) في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالماً بهم، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠].. وفي ذلك رد على المعتزلة.

---

(١) رجز لحطام المجاشعي، كما في اللسان (ثفا): والصاليات: الحجارة المحترقة و«يؤثفين» بضم الياء وسكون الهمزة وفتح الثاء المثلثة والفاء وسكون الياء والنون. قال في اللسان: جاء به على الأصل ضرورة، ولولا ذلك لقال: «يثفين» قال الأزهري: اراد يثفين، من اثفى يثفي. فلما اضطره بناء الشعر رده إلى الأصل فقال: يؤثفين. لانك إذا قلت: افعل يفعل علمت أنه كان في الأصل: يؤفعل، فحذفت الهمزة لثقلها كما حذفوا ألف رأيت من أرى، وكان في الأصل: أرأى فكذلك من يرى: وترى، ونرى الأصل فيها: يرأى، وترأى ونرأى، فإذا جاز طرح همزتها وهي أصيلة كانت همزة يؤفعل أولى بجواز الطرح، لأنها ليست من بناء الكلمة في الأصل و«أثفى القدر» جعلها على الأثافي وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها.

قال الإمام عبد العزيز المكى[1] صاحب الإمام الشافعى رحمه الله وجليسه، فى كتاب (الحيدة)، الذى حكى فيه مناظرته بشراً المريسى عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى : فقال بشر : أقول : لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريراً له؛ وبشر يقول : لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز : نفى الجهل لا يكون صفة مدح، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفى الجهل . فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه .

والدليل العقلى على علمه تعالى : أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد : هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم . ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، لأن من المخلوقات ماهو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً . وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن – ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم والآخر غير عالم – كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع .

الثانى : أن يقال : كل علم فى الممكنات، التى هى المخلوقات – فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به . والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوى هو والمخلوقات[2] لا فى قياس تمثيلى، ولا فى قياس

---

(١) هو عبد العزيز بن يحيى الكنانى، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعى قدم بغداد أيام المأمون، وجرى بينه وبين بشر المريسى مناظرة فى خلق القرآن . بحضرة الخليفة المأمون وصنف كتاب « الحيدة » أثبت فيه نص مناظراته لبشر ومات عبد العزيز الكنانى سنة ٢٤٠هـ رحمه الله وكتابه « الحيدة » طبع مراراً آخرها بمطبعة الإمام بمصر بعناية الابن الفاضل الشيخ عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ فى عام ١٣٧٣هـ.

(٢) فى ب : المخلوق . .

شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

تقدير الأقدار وضرب الآجال

قوله: (وقدر لهم أقداراً)

ش: قال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «قدَرَ اللهُ مقاديرَ الخلقِ قبلَ أن يخلقَ السموات والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكانَ عرشُه على الماء»[(١)].

قوله: (وضرب لهم اجالاً)..

ش: يعني: أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قال تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً** ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وفي صحيح مسلم عن عبد الله ابن مسعود[(٢)] قال: «قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضى عنها[(٣)]: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلي، أبو عبد الرحمن صحابي، من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله - ﷺ وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم الرسول الأمين، وصاحب سره، ولي بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة. توفي بالمدينة وعمره نحو ستين سنة له ٨٤٨ حديثاً. (الاعلام جـ٤ ص٢٨٠).

(٣) أم حبيبة زوج النبي - ﷺ: هي رملة بنت أبي سفيان وهي أخت معاوية كانت من فصيحات قريش، ومن ذوات الرأى تزوجها أولاً عبيد الله بن جحش وهاجر بها إلى أرض الحبشة مسلماً ثم ارتد فاعرضت عنه إلى أن مات فتزوجها رسول الله ﷺ. توفيت بالمدينة ٤٤هـ.

قبل أجله، ولن يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر، كان خيراً وأفضل»[1]. فالمقتول ميت بأجله، فعَلِمَ الله تعالى وقدَّر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب. والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة. وعند المعتزلة: المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكأن له أجلان وهذا باطل، لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل، لارتكابه المنهى عنه ومباشرته السبب المحظور. وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: «صلةُ الرَّحم تزيدُ فى العمر»[2] أى: سبب طول العمر. وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا فى القتل وعدمه.

الدعاء المشروع وآثاره

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم فى زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء فى ذلك أم لا؟.

فالجواب: أن ذلك غير لازم، لقوله ﷺ لأم حبيبة رضى الله عنها «قد سألت الله تعالى لآجالٍ مضروبة» كما تقدم. فعلم أن الأعمار مقدرة، لم يشرع الدعاء بتغيرها، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة. فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروى شرع كما فى الدعاء.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى القدر ٣٢، ٣٣، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند جـ١ ص ٣٩٠، ٤١٣، ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٦٦.

(٢) قال الشيخ الألبانى: هذا الحديث قطعة من حديث رواه أبو يعلى عن أنس بسند ضعيف، لكن معناه صحيح، تشهد له أحاديث كبيرة منها حديث أنس أيضاً مرفوعاً «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه». متفق عليه.

رواه النسائى من حديث عمار بن ياسر عن النبى ﷺ أنه قال: «اللهَّم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياةُ خيراً لى، وتوفِّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» إلى آخر الدعاء. ويؤيد هذا ما رواه الحاكم فى صحيحه من حديث ثوبان[1] رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «لا يرد القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد فى العمرِ إلا البرُّ، وإن الرجل ليُحرمُ الرزق بالذنبِ يصيبه»[2]. وفى الحديث رد على من يظن أن النذر سبب فى دفع وحصول النعماء، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ: أنه نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[3].

واعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً فى بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو. ولهذا يجيب الله المعتدين فى الدعاء. وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر،ويقول: هذا أمر قد فرغ منه.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ [فاطر: ١١]، فقد قيل فى الضمير المذكور فى قوله تعالى: (من عمره) أنه بمنزلة قولهم: عندى درهم ونصف، أى: ونصف درهم آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف التي فى أيدى الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٨ - ٣٩] على أن المحو والإثبات من الصحف التي فى أيدى الملائكة، وأن قوله: «وعندَه أمُّ الكتاب». اللوح المحفوظ.. ويدل على هذا الوجه

---

(١) ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله، مولى رسول الله - ﷺ - أصله من أهل السراة بين مكة واليمن، اشتراه النبى ﷺ ثم أعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أن مات، فخرج ثوبان إلى الشام فنزل الرملة (فى فلسطين) ثم انتقل إلى حمص فابتنى بها داراً وتوفى بها - له ١٢٨ حديثا وكانت وفاته ٥٤هـ. «الاستيعاب ١: ٢٠٩».

(٢) قال الشيخ الألبانى: حسن، دون قوله: وإن الرجل يحرم.، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبى، وفيه راو مجهول، لكن له شاهد دون الزيادة المذكورة فالحديث حسن بدونها، وقد تكلمت على الحديث فى «الأحاديث الصحيحة» فى أواخر المائة الثانية.

(٣) الحديث رواه النسائى فى الإيمان ٢٧ ورواه البخارى فى الإيمان ٢٦ وأحمد بن حنبل ٢ - ١١٨ ورواه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ: «لا تنذروا فإن النذر لا يغنى من القدر شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل».

سياق الآية، وهو قوله: «لكلِّ أجل كتابٌ»، ثم قال: «يمحُو الله ما يشاءُ ويُثْبتُ» أى: من ذلك الكتاب، و«عندَه أم الكتاب»، أى: أصله، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجة الأول، هو قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد: ٣٨]. فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتى بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ أى: أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهى إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفى الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب.

قوله: (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم).

ش: فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وإن كان يعلم أنهم لا يردون، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وفى ذلك رد على الرافضة والقدرية[1]، والذين قالوا: إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده، وهى من فروع مسألة القدر، وسيأتى لها زيادة بيان، إن شاء الله تعالى..

قوله: (وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته).

ش: ذكر الشيخ الأمر والنهى، بعد ذكره الخلق والقدر، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك: ٢].

---

(١) القدرية: بفتح القاف والدال جماعة من المتكلمين قالوا بحرية الإرادة، وقدرة الإنسان على أعماله. ردوا هذا فى الشام والعراق، وكان على رأسهم معبد الجهنى، وغيلان الدمشقى مهدوا لدعوة المعتزلة وتلاشوا فيهم، ويسمى «المعتزلة» قدرية.

مشيئة الله نافذة لا مشيئة العباد

قوله : (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة العباد ، إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن) .

ش : قال تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الإنسان : ٣٠] . وقال : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأنعام : ١١١] . وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** ﴾ [يونس : ٩٩] . وقال تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] . وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه : ﴿ **وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ** ﴾ [هود : ٣٤] وقال تعالى : ﴿ **مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٩] إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وكيف يكون فى ملكه مالا يشاء! ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فإن قيل : يشكل على هذا قوله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، الآية . وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [النحل : ٣٥] الآية . وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٠] ، فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى ، إذ قال : ﴿ **رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٩] .

قيل: قد أجيب علي[1] هذا بأجوبة، من أحسنها: أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه، وقالوا: لو كره ذلك وسخطة لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم ذلك. أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على امره به. أو انه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة والجهال، إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر. وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره. يشهد لذلك قوله تعالى فى الآية: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [الانعام: ١٤٨]. فعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قبل الفعل، من أين له أن الله لم يقدره؟ «اطلّع الغيب؟!».

فإن قيل: فما يقولون فى احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر إذ قال له: أتلومنى على أمر قد كتبه عليَّ قبل أن أخلق بأربعين عاماً؟ وشهد النبى ﷺ أن آدم حج موسى، أى: غلب عليه بالحجة؟

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة، لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات الباردة. بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل. وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التى أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعائب. وهذا المعنى أحسن ما قيل فى الحديث. فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله رباً، وأما الذنوب[2] فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب. فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ** ﴾ [غافر: ٥٥].

---

(١) فى ب: عن.
(٢) فى ب: الذنب

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٢٠].

وأما قوله إبليس: ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : ٣٩]، إنما ذم على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له ألم تسمع قول نوح عليه السلام : ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤]. ولقد أحسن القائل :

فما شئتَ كانَ وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ

وعن وَهب بن مُنبه[1]، أنه قال : نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به .

الهدى والضلال

والرد على المعتزلة في قولهم بالأصلح

قوله : (يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلاً . ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي ، عدلاً) .

ش : هذا الرد على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والضلال . قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب . والإضلال : تسمية العبد ضالاً، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه . وهذا مبني على أصلهم الفاسد : أن أفعال العباد مخلوقة لهم . والدليل على ما قلناه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] ولو كان الهدى بيان

---

(١) هو وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني أبو عبد الله : مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بالأساطير ولاسيما الإسرائيليات، يعد في التابعين أصله من أبناء فارس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن وأمه من حمير ولد بصنعاء عام ٣٤ هـ وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ومن قوله : إن من أضاف إلى نفسه من المشيئة فقد كفر، اتهم بالقدر ورجع عنه . له : قصص الأنبياء وقصص الأخيار توفي سنة ١١٤ (وفيات الأعيان جـ٢ ص١٨٠) .

الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه، لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١]. ولو كان الهدى من الله البيان، وهو عام في كل نفس - لما صح التقييد بالمشيئة. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧]. وقوله: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]

قوله: (وكلهم يتقلبون فى مشيئته، بين فضله وعدله).

ش: فإنهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢] فمن هداه إلى الإيمان فبفضله، وله الحمد، وسيأتى لهذا المعنى زيادة إيضاح، إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى القدر فى مكان واحد، بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه.

قوله: (وهو متعال عن الأضداد والأنداد).

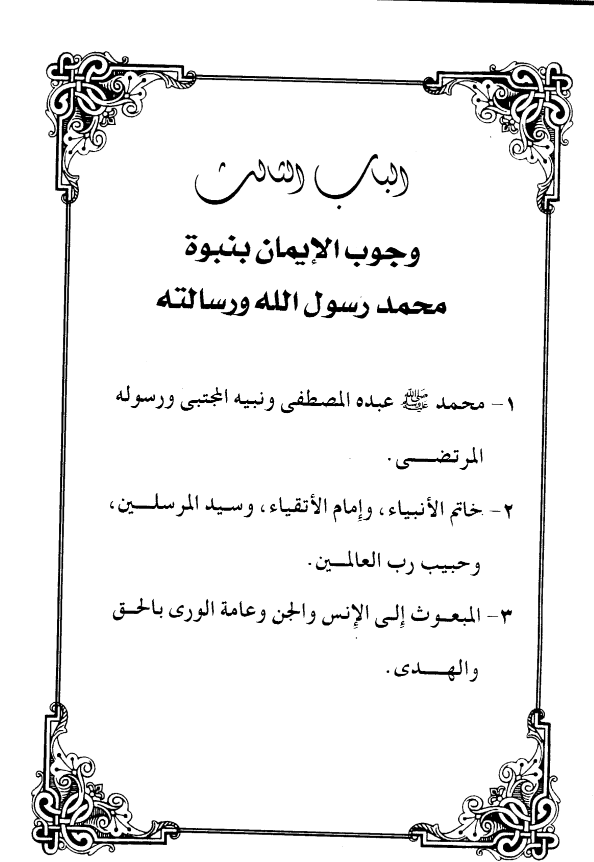
ش: الضد: المخالف، والند: المثل: فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ويشير الشيخ رحمه الله - بنفى الضد والند - إلى الرد على المعتزلة فى زعمهم أن العبد يخلق فعله.

قوله: (لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره)

ش: أى: لا يرد قضاء الله راد، ولا يعقب، أى لا يؤخر حكمه، مؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هو الله الواحد القهار.

قوله: (آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده).

ش: أما الإيمان فسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى. والإيقان: الاستقرار، من قر الماء فى الحوض إذا استقر. والتنوين فى «كلاً» بدل الإضافة، أى: كل كائن محدث من عند الله، أى: بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه، إن شاء الله تعالى.



الباب الثالث

وجوب الإيمان بنبوة محمد رسول الله ورسالته

١- محمد ﷺ عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى.

٢- خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين.

٣- المبعوث إلى الإنس والجن وعامة الورى بالحق والهدى.

وجوب الإيمان بنبوة رسول الله ورسالته

قوله: (وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى).

ش: الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى. واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى. وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته. ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ١]. وقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة: ٢٣]. وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة. ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١]. فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى.

وقوله: «وإن محمداً» بكسر الهمزة، عطفاً على قوله: «إن الله واحد[٢] لا شريك له». لأن الكل معمول القول، أعني: قوله «نقول في توحيد الله».

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا[٣] ذلك بطرق مضطربة والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا

---

(١) هذا جزء من حديث الشفاعة وسيأتي هذا الحديث كاملاً في فصل الشفاعة.
(٢) في ب: وحده. (٣) في ب: وقد روى ذلك.

إلا على أجهل الجاهلين. بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوة النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان[1] رضى الله عنه:

لَوْ لَمْ يكُن فيه آياتٌ مبينة　　　كانتْ بديهَتُه تأتيكَ بالخبرِ

وما من أحد أدعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه – ما ظهر لمن له أدنى تمييز. فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمورهم بأمور، ولابد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه. والكاذب يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة. والصادق ضده بل كل شخصين ادعيا أمراً: أحدهما صادق والآخر كاذب – لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «عليكمْ بالصدْق، فإنَّ الصدقَ يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصدقَ، حتى يُكتب عندَ الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذبَ يهدى إلى الفجور، وإن الفجورَ يهدى إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عندَ الله كذَّابا»[2]. ولهذا قال تعالى: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ***

---

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر، من بنى مالك بن النجار الخزرجى شاعر الرسول – ﷺ. والمدافع بلسانه وشعره عن الإسلام والمسلمين، عاش ١٢٠ سنة، أكثرها فى الجاهلية والباقى فى الإسلام توفى عام ٤٠هـ، وله ديوان شعر مطبوع يمتاز بالسهولة والرقة.

(٢) الزيادتان ثابتتان فى رواية مسلم ٢ : ٢٨٩ وكذا فى المطبوعة (ولا يزال) فى الموضعين وأثبتنا ما فى مسلم أيضاً،لأن الرواية التي نقلها المؤلف أقرب الألفاظ الى رواية مسلم، من طريق وكيع وأبى معاوية كليهما عن الأعمش وكذلك رواية أحمد: ٨–٤١ عن وكيع وأبى معاوية بنحوه، وقد تساهل المؤلف فى نسبة الحديث بهذا اللفظ للصحيحين. لأن البخارى إنما روى بعضه بنحو معناه مختصراً من طريق آخر ولعله تبع فى ذلك المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤ : ٢٦ – ٢٧ فقد تساهل أيضاً ونسبه للبخارى انظر فتح البارى ١٠ : ٤٢٣ – ٤٢٣. وقال الألبانى معقباً على ما قاله الشيخ أحمد شاكر، وهو فى الأدب من صحيح البخارى مختصراً كما ذكر الشيخ شاكر رحمه الله تعالى لكنه فى «الأدب المفرد» له رقم ٣٨٦ أتم منه.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٦]. فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات، ويكون صدقاً - فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذى يخبرون به ليس من ملك، وليسوا بأنبياء. ولهذا لما قال النبى ﷺ لابن صياد: «قد خبأت لك خبأ، فقال: هو الدخ» - قال له النبى ﷺ: «اخسأ، فلن تعدوَ قدرَك»[1]. يعنى إنما أنت كاهن. وقد قال للنبى ﷺ: «يأتينى صادق وكاذب»[2]. وقال «أرى عرشاً على الماء»[3]، وذلك هو عرش الشيطان. وبينَ أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوى: الذى يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضراً له فى العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله - علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى فى المدعى للصناعات والمقالات، كمن يدعى الفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك. والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لابد أن يتصف الرسول بها، وهى أشرف العلوم وأشرف الأعمال. فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟ ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضرورى، كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما فى نفسه، بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]: ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. فإذا

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٧٩، والجهاد ١٧٨ والقدر ١٤ والأدب ٧ م ورواه مسلم فى الفتن ٨٧، ٩٥ والترمذى فى الفتن ٦٣ وأبو داود فى الملاحم ١٥ والدارمى فى المقدمة ٤ وأحمد ابن حنبل ١- ٣٨٠، ٣ - ٣٦٨، ٤ - ١٧٠.

(٢) الحديث رواه الإمام البخارى والإمام مسلم فى صحيحيهما من حديث عبدالله بن عمر - رضى الله عنه.

(٣) الحديث أخرجه مسلم ٨- ١٩٠ من حديث أبى سعيد الخدرى. وفيه أن النبى - ﷺ قال له: «ترى عرش إبليس على البحر». وأخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ٣ - ٦٦، ٩٧، ٢٨٨.

كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله، كيف يخفى صدق هذا من كذبه وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟.

ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبى ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحى: «إنى قد خشيت على نفسى»[1]، فقالت: كلا - والله لا يخزيك اللهُ، إنَّك لتصل الرَّحمَ، وتصدق الحديث، وتحملُ الكَلَّ، وتُقرِى الضيفَ، وتَكسب المعدومَ، وتُعينُ على نوائب الحق»[2]. فهو لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثانى، فذكرت خديجة ما ينفى هذا، وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة: - فإنه لا يخزيه.

وكذلك قال النجاشى[3] لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه، قال: «إن هذا والذى جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاه واحدة»[4]. وكذلك ورقة بن نوفل[5]، لما أخبره النبى ﷺ بما رآه، وكان ورقة

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: فى المطبوعة «علي عقلى»! وهو خطأ فاحش، لعله من الناسخ، بل هو كلام غير معقول، وحاشا رسول الله - ﷺ - أن يقول هذا. بل أن بعض العلماء فسر خشيته على نفسه، فى هذا الحديث بأنه خشى الجنون! واستنكره الحافظ فى الفتح ١ : ٢٣، قال: «وابطله أبو بكر بن العربى وحق له أن يبطل».

(٢) الحديث رواه البخارى فى بدء الوحى ٣ وتفسير سورة ٩٦ ومناقب الأنصار وكفالة ٤ ورواه مسلم فى الإيمان ٢٥٢.

(٣) النجاشى كان لقب يلقب به كل من يملك الحبشة، والمقصود به هنا أصحمه بن أبحر وتفسيره عطية، وعندما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله - ﷺ فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول الله لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم.

(٤) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ١ ص٢٠٣ جـ٥، ٢٩١.

(٥) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قريش حكيم جاهلى اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع عن أكل ذبائحها وتنصر وقرأ كتب الأديان وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبرانى، أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة، سئل عنه النبى - ص - فقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحدة» توفى نحو ١٢ ق هـ.

(الروض الأنف جـ ١ ص١٢٤ - ١٥٧).

قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: «أي عَم، اسمعْ من ابن أخيك ما يقولُ، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال هذا هو الناموسُ الذي كان يأتي موسى»[1].

وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبي ﷺ لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان[2] قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار، سألهم: هل كان في آبائه من ملك فقالوا: لا، قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا، وسألهم: أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا لا، ما جربنا عليه كذباً، وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه؟ وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون، وسألهم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا، وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يدال علينا مرة وندال عليه أخرى، وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنه لا يغدر، وسألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.. وهذه أكثر من عشرة مسائل، ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتكم هل كان في آبائه من ملك؟ فقلتم، لا، قلت لو كان في آبائه من ملك لقلت، رجل يطلب ملك أبيه، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله؟ فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله لقلت: رجل أئتم بقول قيل قبله، وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم

---

(١) الحديث رواه البخاري في بدء الوحي ٣ والأنبياء ٢١ والتفسير سورة ٩٦ والتعبير ١ ورواه مسلم في الإيمان ٢٥٢ وأحمد بن حنبل جـ٦ ص٢٢٢. ٢٢٣.

(٢) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد الشمس، صحابي، والد معاوية رأس الدولة الأموية. توفي بالمدينة وقيل بالشام عام ٣١هـ.

يذهب فيكذب على الله تعالى، وسألتكم: أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، يعنى فى أول أمرهم، ثم قال: وسألتكم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حين يتم، وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد»[1].

وهذا من أعظم الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لابد أن يكشف فى آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه - ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها، قال: وسألتكم هل يغدر؟؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذه علامات الرسل، وأن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر.

كما فى «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[2].

والله تعالى قد بين فى القرآن ما فى إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩] الآيات. وقال تعالى: ﴿ **الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢] الآيات. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته فى خلقه وحكمته التى بهرت العقول.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى بدء الوحى ٦ والأحكام ٤٠.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الزهد ٦٤ وأحمد بن حنبل جـ٤ ص٢٣٢، ٢٣٣، جـ٦ ١٥، ١٦. وفى رواية لأحمد: «بينما رسول الله - ﷺ - مع أصحابه إذ ضحك فقال: ألا تسألونى مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله، ومم تضحك قال: عجبت لأمر المؤمن..» الحديث. وسنده صحيح علي شرط مسلم.

قال: وسألتكم عما يأمر به؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبى، وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أنى أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين». وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب، وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبى ﷺ، قال أبو سفيان ابن حرب: فقلت لأصحابى ونحن خروج، لقد أمر أمْر ابن أبى كبشة أنه ليعظمه ملك بنى الأصفر ومازلت مؤقناً بأن أمر النبى ﷺ سيظهر، حتي أدخل الله عليَّ الإسلام وأنا كاره.

ومما ينبغى أن يعرف: أن ما يحصل فى القلب فمجموع أمور، قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للإنسان – من شبع ورى(١) وشكر وفرح وغم – فأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمور.

وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهى إلى العلم حتى يتزايد ويقوى. وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك.

وأيضاً: فإن الله سبحانه أبقى فى العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبياً بعد نبى، فى سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول فى آخر كل قصة: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشعراء: ١٢١– ١٢٢].

وبالجملة: فالعلم بأنه كان فى الأرض من يقول: إنه رسول الله، وأن أقواماً اتبعوهم، وأن أقواماً خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم، هو من أظهر العلوم المتواترة، وأجلاها.. ونقل أخبار هذه الأمور، أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم، من ملوك الفرس، وعلماء

(١) فى ب: شفيع: ووزير وهو تحريف.

الطب، كبقراط[١] وجالينوس وبطليموس[٢] وسقراط[٣] وأفلاطون[٤] وأرسطو[٥] وأتباعه.

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم – علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة: منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم. ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذى حصل عليه، كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم – عرف صدق الرسل. ومنها: أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاؤوا به من المصلحة

---

(١) بقراط: أبو الطب، ولد بجزيرة كوس سنة ٤٦٠ق. م، وتعلم صناعة الطب من أبيه «ايرقليدس» وكان الطب صناعة الملوك والزهاد فقط وقد عاش فى زمن «بهمن أزدشير» وهو أول من دون صناعة الطب وشهرها وأظهرها. ترك نحو ثلاثين كتاباً منها كتاب الأجنة، وكتاب طبيعة الإنسان، وقد استخرجه الدكتور شبلى شميل إلى العربية توفى سنة ٣٦٥ق. م

(٢) بطليموس القلوذى. صاحب المجسطى وغيره، عالم من علماء الرياضة ولد فى بيلوسيوم ونشأ فى الاسكندرية فى القرن الثانى بعد الميلاد، وكان يعلم حركات النجوم، وأسرار الفلك، ترجم كتاب المجسطى إلى العربية «يحيى بن خالد بن برمك». وله كتاب الجغرافية فى المعمورة من الأرض نقله الكندى إلى العربية. (فهرست ابن النديم ص٣٧٤).

(٣) سقراط: هو الحكيم المشهور، كان من تلاميذ فيثاغورث ثم اقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها ثم أعلن مخالفة اليونانيين فى عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة فثوروا عليه العامة وألجأوا ملكهم إلى قتله، فأودعه الملك الحبس تسكيناً للفتنة ثم سقاه السم تفادياً من شرهم. (تاريخ الحكماء ص١٩٨).

(٤) أفلاطون: أحد أساطين الحكمة عند اليونانيين، وكان فيهم كبير القدر، مقبول القول، أخذ الحكمة من فيثاغورث وشارك سقراط فى الأخذ عنه إلا أنه بقى خامل الذكر إلى أن مات سقراط، صنف كتباً كثيرة مشهورة وكان يعلم الفلسفة وهو ماش فسمى الناس جماعته «المشائين» وعاش إحدى وثمانين سنة. (تاريخ الحكماء ص ١٧).

(٥) أرسطوا: هو ابن نيقوماخس الفيثاغورى تتلمذ على أفلاطون وتصدر بعده، وكان أفلاطون يقدمه على جميع تلاميذه ويؤثره بالرعاية، وإليه انتهت الفلسفة اليونانية، فكان هو خاتمة حكمائهم وسيد علمائهم، وكان هو معلم الأسكندر بن فليبس المقدونى وعنى فلاسفة المسلمين بفلسفته وله كتاب فى الحيوان نقله ابن البطريق إلى العربية. (تاريخ الحكماء ٢٧ – ٥٣).

والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم – ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات، كالبيهقي[1] وغيره.

بل إنكار رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبة له إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبى صادق، بل ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفترى على الله ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبى نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم[2] وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلى أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم فى غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه، واستمرت نصرته عليهم دائماً، والله تعالى يقره على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للصالحين. إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟ ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره، وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد فى سائر

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن على أبو بكر من أئمة الحديث، ولد فى خسر وجود من قرى بيهق بنيسابور عام ٣٨٤هـ ونشأ فى بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة وغيرهما. من مؤلفاته: السنن الكبرى والسنن الصغرى، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة، توفى سنة ٤٥٨هـ (طبقات الشافعية جـ٣ ص٣).

(٢) سقط من ب: وذراريهم.

البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قائم في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره، ولم تطل مدته بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، وقطعوا دابره واستأصلوه. هذه سنة الله التي قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك قال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]. أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقوَّل عليه بعض الأقاويل، لابد أن يجعله عبرة لعبادة كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه وقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ [الشورى: ٢٤].. وهنا انتهى جواب الشرط ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق: أنه يمحق[1] الباطل ويحق الحق. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره.

وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي ورسول، وإن لم يأمر أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول. فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصاً محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قوله: (وإنه خاتم الأنبياء).

ش: قال تعالى: ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وترك منه موضع لبنة،

(١) في ب: يمحو.

فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه، إلا موضع اللبنة، لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل»[1] أخرجاه في الصحيحين. وقال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»[2]. وفي صحيح مسلم عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»[3] الحديث. ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[4].

قوله: (وإمام الأتقياء)

ش: ﷺ: الإمام الذي يؤتم به، أي: يقتدون به. والنبي ﷺ إنما بعث للاقتداء به، لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء..

قوله: (وسيد المرسلين)

ش: قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر،

---

(١) الحديث رواه البخاري في المناقب ١٨ ومسلم في الفضائل ٢٠ – ٢٢ وأحمد بن حنبل ٢– ٢٥٧، ٢٩٨، ٤١٢ ولفظه عند البخاري: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنه من زواية من زوياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» ولمسلم بنحوه إلى قوله. فكنت أنا اللبنة.

(٢) الحديث رواه مسلم في فضائل الصحابة ١٢٤، ١٤٥، ورواه البخاري في المنافب ١٧، وتفسير سورة ٦١ والترمذي في الأدب ٦٧ والدارمي رقاق ٥٩ وأحمد بن حنبل ٤–١، ٨١، ٨٤، ١٦، ٢٥.

(٣) الحديث رواه أبو داود في الفتن ١ وفي الملاحم ١٦ والترمذي في الفتن ٤٣ وأحمد بن حنبل في مسنده رقم ٥– ١٦، ٤١، ٤٦ ورواه مسلم بلفظ يخالف ذلك في الفتن بقوله: لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله.

(٤) الحديث رواه مسلم رقم ٥ في المساجد في فاتحته والترمذي رقم ١٥٥٣ في السير باب ما جاء في الغنيمة والنسائي ٦ – ٣ و٤ باب وجوب الجهاد، وأحمد بن حنبل ٢ – ٢٥٦ ولفظه عند مسلم: «فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون».

وأول شافع، وأول مشفع»[١]. رواه مسلم. وفى أول حديث الشفاعة: «أنا سيد الناس يوم القيامة»[٢]. وروى مسلم والترمذى عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم[٣].

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ: «لا تفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش، فلا أدرى هل أفاق قبلى، أو كان ممن استثنى الله؟»[٤] خرجاه فى الصحيحين، فكيف يجمع بين هذا وبين قوله «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٥].

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودى: لا والذى اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودى فاشتكى من المسلم الذى لطمه، فقال النبى ﷺ هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٢٧٨ فى الفضائل باب تفضيل نبينا - ﷺ على جميع الخلائق وأبو داود رقم ٤٧٦٣ فى السنة باب فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والترمذى رقم ٣٦١٥ فى المناقب باب ما جاء فى فضل النبى - ﷺ وفى رواية الترمذى: أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى الحلة من حلل الجنة.. الخ.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ٣ ورواه مسلم فى الإيمان ٣٢٧، ٣٢٨ وفى الفضائل ٣ والترمذى فى القيامة ١٠ والدارمى فى المقدمة ٨، وأحمد بن حنبل ١ - ٢٨١، ٢٩٥.

(٣) الحديث رواه مسلم فى الفضائل ١، والترمذى فى المناقب، وأحمد بن حنبل ٤ - ١٠٧.

(٤) الحديث رواه البخارى فى الخصومات ٢ - ٨٩ والأنبياء ١٢ - ٣٥٩، والرقاق ٤ - ٢٣٤ والتوحيد ٤- ٤٧٤ ومسلم فى الفضائل ٧ - ١٠١ وأحمد بن حنبل ٢ - ٢٦٤ من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً بلفظ «لا تخيرونى» وأما لفظ «لا تفضلونى» فإنما هو عند الشيخين من طريق الأعرج عنه فى سياق آخر يأتى بعد حديث، وفى حديث أبي سلمة، فإذا موسى باطش بجانب العرش، وقال الأعرج، فإذا موسى آخذ بالعرش، ورواية أحمد عن طريق الإعرج وأبى سلمة معاً فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش. الألبانى.

(٥) سبق تخريج هذا الحديث.

[البقرة: ٢٥٣]. .فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول.. وعلى هذا يحمل أيضاً قوله ﷺ: « لا تفضلوا بين الأنبياء »[١]. إن كان ثابتاً، فإن هذا قد روى فى نفس حديث موسى، وهو فى البخارى وغيره. لكن بعض الناس يقول: إن فيه علة، بخلاف حديث موسى، فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر، وهو: أن قوله ﷺ: « لا تفضلونى على موسى ». وقوله « لا تفضلوا بين الأنبياء » نهى عن التفضيل الخاص، أى: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه. وهذا كما لو قيل: فلان أفضل أهل البلد لا ينصب على أفرادهم، بخلاف مالو قيل لأحدهم: فلان أفضل منك. ثم إنى رأيت الطحاوى رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب فى « شرح معانى الآثار »[٢].

وأما ما يروى أن النبى ﷺ قال: « لا تفضلونى على يونس بن متى »[٣].

---

(١) قال الشيخ الألبانى صحيح. وهو رواية من حديث أبى هريرة المتقدم من طريق عبد الرحمن الأعرج عنه قال: بينما يهودى يعرض سلعة له أعطى بها شيئاً كرهه أو لم يرضه، قال: لا والذى اصطفى موسى عليه السلام على البشر فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه وقال: تقول: والذى اصطفى موسى عليه السلام علي البشر ورسول الله – ﷺ بين أظهرنا. قال: فذهب اليهودى إلى رسول الله – ﷺ: يا أبا القاسم إن لى ذمة وعهداً، وقال: فلان لطم وجهى فقال رسول الله ﷺ: لم لطمت وجهه؟ قال: قال يا رسول الله والذى اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا. قال فغضب رسول الله حتى عرف الغضب فى وجهه ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، قال ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث أو فى أول بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلى ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى عليه السلام. أخرجه البخارى ٢ – ٣٦٠ – ٣٦١، ومسلم ٧ – ١٠٠ – ١٠١ وقد غمز الشارح من صحته ولا أعلم له علة ولم يتكلم عليه الحافظ فى الفتح ٦ – ٣١٨ وله شاهد من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً بلفظ « لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون ». أخرجه البخارى ٢ – ٨٩، ومسلم ٧ –١٠٢ وأحمد ٣ – ٣٣.

(٢) هذا الكتاب يعتبر أول تصانيف الطحاوى وهو فى مجلدين وهو مطبوع.

(٣) الحديث أخرجه البخارى ومسلم بلفظ: لا ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى ونسبه إلى أبيه، ورواه أبو داود ولم يذكر نسبه إلى أبيه، وفى أخرى للبخارى: لا يقولن أحدكم. وللبخارى أيضاً من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب.

وإن بعض الشيوخ قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالاً جزيلاً، فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو فى بطن الحوت كقربى من الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيراً عظيماً. وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التى عتمد عليها، وإنما اللفظ الذى فى الصحيح: «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وفى رواية: «ومن قال إنى خير من يونس بن متى فقد كذب». وهذا اللفظ يدل على العموم، «لا ينبغى لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى»، ليس فيه نهى المسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أى: فاعل ما يلام عليه وقال تعالى: ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقد يقع فى نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه. ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس أن: «لا إله إلا أنْت سبْحانك إنى كُنْتُ من الظَّالمين»، كما قال أول الأنبياء وآخرهم فأولهم: آدم، قد قال: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وآخرهم وأفضلهم وسيدهم: محمد ﷺ، قال فى الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره، بعد قوله «وجهت وجهى» آخره: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعاً، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1]، إلى آخر الحديث وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [القصص: ١٦]. وأيضاً: فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ [القلم: ٤٨] فنهى نبينا ﷺ عن

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى الذكر ٦٧ والترمذى فى الدعوات ١٥، ٤٦، وابن ماجه فى الدعاء ١٤ ولفظه عند ابن ماجه: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

التشبيه به، وأمره بالتشبه بأولى العزم حيث قيل له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فقد يقول من يقول: «أنا خير من يونس»، للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل، فإن الله لا يحب كل مختال فخور. .وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»[1] فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبى كريم؟ فلهذا قال: «لا ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». فهذا نهى عام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يونس. وقوله: «من قال: إنى خير من يونس بن متى فقد كذب»، فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير نقصاً، فيكون كاذباً، وهذا لا يقوله نبى كريم، بل هو تقدير مطلق، أى: من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبى، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان ﷺ معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال.

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم، لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبى بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، ﷺ أجمعين. ولهذا أتبعه بقوله «ولا فخر» كما جاء فى رواية. وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: إن مقام الذى أسرى به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم - كمقام الذى ألقى فى بطن الحوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟! فهذا فى غاية التقريب، وهذا فى غاية التأديب. فانظر إلى هذا الاستدلال، لأنه بهذا المعنى المحرف اللفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفى علو الله تعالى عن خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه، التى تزيد على ألف دليل، كما يأتى الإشارة إليها عند قول الطحاوى رحمه الله «محيط بكل شىء وفوقه»، إن شاء الله تعالى.

قوله: (وحبيب رب العالمين)

ش: ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهى الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الجنة ٦٤، ورواه أبو داود فى الأدب ٤٠ ورواه ابن ماجه فى الزهد، ١٦، ٢٣ ولفظه عن عياض، عن النبى - ﷺ أنه خطبهم قال: إن الله عز وجل أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد.

قال: «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[١]. وقال: «ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»[٢]. والحديثان فى الصحيح وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه. وفى الصحيح أيضاً: «إني أبرأ إلي كل خليل من خلته»[٣] والمحبة قد ثبتت لغيره. قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٧٦]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد؛ بل الخلة خاصة بهما، والمحبة عامة وحديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى الذى فيه: «إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» – لم يثبت[٤].

والمحبة مراتب: أولها: العلاقة، وهى تعلق القلب بالمحبوب. والثانية: الإرادة، وهى ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له. الثالثة: الصبابة، وهى انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء فى الحدود. الرابعة: الغرام، وهى الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم، لملازمته، ومنه: ﴿ **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٥] الخامسة: المودة، والود، وهى صفو المحبة وخالصها ولبها، قال

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى المقدمة ١١ ولفظه عند ابن ماجه «ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً: إن صاحبكم خليل الله».

(٢) الحديث رواه مسلم رقم ٢٣٨٣ فى فضائل الصحابة، باب مناقب أبى بكر الصديق – رضى الله عنه والترمذى رقم ٣٦٥٦ فى المناقب، باب مناقب أبى بكر رضى الله عنه وفى مسلم: لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً.

(٣) الحديث رواه مسلم فى فضائل الصحابة٧، ورواه الترمذى فى المناقب ورواه ابن ماجه فى المقدمة ١١ باب فى فضائل أصحاب رسول الله – ﷺ.

(٤) قال الألبانى: ضعيف، لضعف زمعة وسلمة أيضاً: وقال الشيخ أحمد شاكر: هذا جزء من حديث طويل رواه الدارمى فى سننه جـ١ ٢٦ عن عبيد الله بن عبد المجيد عن زمعة بن صالح عن سلمة وهرام عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه الترمذى جـ٤ ص٢٩٤، ٢٩٥ عن على بن نصر ابن على الجهضمى عن عبيد الله بن عبد المجيد بهذا الإسناد وقال هذا حديث غريب وحق للشارح رحمه الله أن يقول هنا: إنه لم يثبت لأن زمعة بن صالح راويه ضعيف.

تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. والسادسة: الشغف، وهى وصول المحبة إلى شغاف القلب. السابعة: العشق: وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد فى محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم.. واختلف فى سبب المنع، ففى: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك. ولعل امتناع إطلاقه: أن العشق محبة مع شهوة. الثامنة: التيم، وهو بعض التعبد. التاسعة: التعبد العاشرة: الخلة. وهى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه وقيل فى ترتيبها غير ذلك. وهذا الترتيب تقريب حسن، لا يعرف حسنه إلا بالتأمل فى معانيه.

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة، حسبما[1] ورد النص.

وقد أختلف فى تحديد المحبة على أقوال، نحو ثلاثين قولاً. ولا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء. وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد، كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك.

قوله: (وكل دعوى النبوة بعده بَغيٌّ وهوى)

ش: لما ثبت أنه خاتم النبيين، علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب. ولا يقال: فلو جاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتى مدع يدعى النبوة ولا يظهر أمارة كذبه فى دعواه. والغى: ضد الرشاد. والهوى: عبارة عن شهوة النفس. أى: أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس، لا عن دليل، فتكون باطلة.

قوله: (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء).

ش: أما كونه مبعوثاً إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل

---

(١) فى ب: حيثما.

إليهم أيضاً. قال مقاتل[١]: لم يبعث الله رسولا إلى الإنس والجن قبله. وهذا قول بعيد فقد قال تعالى: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد[٢] وغيره من السلف والخلف. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: الرسل من بنى آدم، ومن الجن نذر. وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ** ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضاً والله أعلم..

وحكى ابن جرير[٣] عن الضحاك بن مزاحم[٤]: أنه زعم أن فى الجن رسلاً: واحتج بهذه الآية الكريمة. وفى الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة، وهى - والله أعلم - كقوله: ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد من أحدهما.

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ**

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء البلخى، أبو الحسن من أعلام المفسرين أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها وتوفى بالبصرة عام ١٥٠هـ من كتبه: التفسير الكبير، والرد على القدرية، والناسخ والمنسوخ، (تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٣٧٩).

(٢) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكى، تابعى مفسر من أهل مكة قال الذهبى شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله فيما نزلت وكيف كانت..؟ أما كتابه فى التفسير فيتقيه المفسرون وسئل الأعمش عن ذلك فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب - يعنى اليهود والنصارى ويقال: إنه مات وهو ساجد عام ١٠٤هـ. (صفوة الصفوة جـ٣ ص١١٧).

(٣) محمد بن جرير بن يزيد الطبرى أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ استوطن بغداد وتوفى بها عام ٣١٠ وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له: «أخبار الرسل والملوك» يعرف بتاريخ الطبرى. وجامع البيان فى تفسير القرآن وكان مجتهداً فى أحكام الدين لا يقلد أحدا. (تذكرة الحافظ ٢: ٣٥١).

(٤) الضحاك بن مزاحم البلخى الخرسانى أبو القاسم: مفسر، كان يؤدب الأطفال، ويقال: كان فى مدرسته ثلاثة آلاف صبى، قال الذهبى كان يطوف عليهم على حمار، وذكره ابن حبيب تحت عنوان أشراف المعلمين وفقهاؤهم، له كتاب فى التفسير. توفى بخرسان عام ١٠٥هـ. (ميزان الاعتدال ١: ٤٧١)..

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام: ١٩] أى: وأنذر من بلغه. وقال تعالى ﴿ **وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١]. وقد قال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ** ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1]. أخرجاه فى الصحيحين وقال ﷺ: «لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»[2]، رواه مسلم. وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

وأما قول بعض[3] النصارى أنه رسول إلى العرب خاصة: فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به. وقد قال إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتماً، فقد أرسل رسله وبعث كتبه فى أقطار الأرض إلى كسر وقيصر والنجاشى والمقوقس وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام.

وقوله: وكافة الورى فى جر كافة نظر، فإنهم قالوا: لم تستعمل «كافة» فى

---

(١) الحديث رواه البخارى ١- ٣٦٩ و٣٧٠ باب التيمم، وفى المساجد باب قولى النبى - ﷺ - «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» ورواه مسلم رقم ٥٢١ فى المساجد فى فاتحته والنسائى ١ - ٢١٠، ٢١١ فى الغسل باب التميم بالصعيد.

(٢) قال الشيخ الألبانى: هو من حديث أبى هريرة وهو فى مسلم ١ - ٩٢ ولكنه مغاير فى بعض الأحرف لسياق الكتاب، وقد رواه ابن منده فى التوحيد ق ٤٤ - ١ ولفظه أقرب.

(٣) سقط من ب: بعض.

كلام العرب إلا حالاً، واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [سبأ: ٢٨] على ثلاثة أقوال:-

أحدها: أنها حال من الكاف في «أرسلناك» وهي إسم فاعل والتاء فيها للمبالغة، أي: إلا كافاً للناس عن الباطل. وقيل:[١] هي مصدر كف، فهي بمعنى كفا أي: إلا تكف الناس كفاً، ووقوع المصدر حالاً كثير.

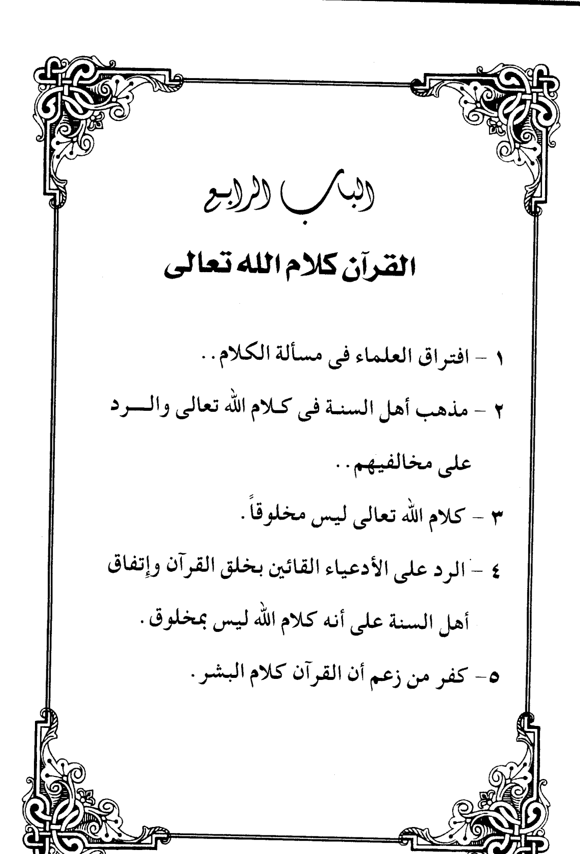
الثاني: أنها حال من «الناس». واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبوله، وهو اختيار ابن مالك - رحمه الله - أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة.

الثالث: أنها صفة لمصدر محذوف، أي: رسالة كافة.. واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالاً.

وقوله: بالحق والهدى والنور والضياء، هذه أوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة. والضياء: أكمل من النور، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً** ﴾ [يونس: ٥].

* * *

(١) سقط من «أ» وقيل».



الباب الرابع

القرآن كلام الله تعالى

١ - افتراق العلماء فى مسألة الكلام..

٢ - مذهب أهل السنة فى كلام الله تعالى والرد على مخالفيهم..

٣ - كلام الله تعالى ليس مخلوقاً.

٤ - الرد على الأدعياء القائين بخلق القرآن وإتفاق أهل السنة على أنه كلام الله ليس بمخلوق.

٥- كفر من زعم أن القرآن كلام البشر.

القرآن كلام الله تعالى

قوله : (وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية . فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى : ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** ﴾ [المدثر : ٢٦] فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ [المدثر : ٢٥] – علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر) .

ش : هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس . وهذا الذى حكاه الطحاوى – رحمه الله – هو الحق الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

* * *

افتراق الناس فى مسألة الكلام

وقد افترق الناس فى مسألة الكلام على تسعة أقوال : –

أحدهما : أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معانى، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمفلسفة

وثانيها : أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهى والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعرى وغيره .

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة فى الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث .

وخامسها : أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية[1] وغيرهم.

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازى[2] فى «المطالب العالية».

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه فى غيره وهذا قول أبى منصور الماتريدى[3].

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه فى غيره من الأصوات، وهذا قول أبى المعالى[4] ومن اتبعه.

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وقول الشيخ – رحمه الله – وإن القرآن كلام الله إن بكسر الهمزة – عطف على قوله : إن الله واحد لا شريك له ثم قال : وإن محمداً عبده المصطفى وكسر همزة إن فى المواضع الثلاثة، لأنها معمول القول، أعنى قوله فى أول كلامه : نقول فى توحيد الله..

---

(١) الكرامية : أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام – كان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه، وهم طوائف يبلغ عددهم اثنتى عشرة فرقة. قال ابن كرام فى كتابه «عذاب القبر» إحدى الذات إنه إحدى الجوهر، وانه مماس للعرش من الصفحة العليا وجوز الانتقال والتحول (الملل والنحل جـ ١ ص١٥٩).

(٢) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين أبو عبد الله. فخر الدين الرازى المفسر، قرشى النسب أصله من طبرستان ومولده فى الرى ٥٤٤هـ رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفى فى هراه ٦٠٦هـ كان يحسن الفارسية من تصانيفه «مفاتيح الغيب» وكان واعظا بارعاً باللغتين. (وفيات الأعيان ١ : ٤٧٤).

(٣) الماتريدى : هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدى من أئمة علماء الكلام، نسبة إلى ما تريد (محلة بسمرقند » من كتبه التوحيد، وأوهام المعتزلة، والرد على القرامطة، وكتاب الجدل وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبى حنيفة مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. (الوافى بالوفيات ١ : ١٣٠).

(٤) أبو المعالى الجوينى : راجع ترجمته فيما تقدم.

وقوله: كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً: رد على المعتزلة وغيرهم. فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبد منه، كما تقدم حكاية قولهم، قال: وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، يحرفون الكلام عن مواضعه. وقولهم باطل، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهى مخلوقة له، كبيت الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعانى، كعلم الله، وقدرته، وعزته، وجلاله، وكبريائه، وكلامه، وحياته، وعلوه، وقهره – فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً.

مذهب أهل السنة فى كلام الله والرد على مخالفيهم

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص. قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فكان عباد العجل – مع كفرهم – أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً. وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ [طه: ٨٩] فعلم أن نفى رجوع القول ونفى التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم؟ فيقال لهم: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم. ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم** ﴾ [يس: ٦٥]. فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم. وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [فصلت: ٢١]. وكذلك تسبيح الحصا والطعام، وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه، المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخ – رحمه الله – بقوله: منه بدا بلا كيفية قولاً، أى: ظهر منه ولا ندرى كيفية تكلمه به. وأكد هذا المعنى بقوله «قولاً»، أتى

بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافى للمجاز فى قوله: ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤] فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ولقد قال بعضهم لأبى عمرو بن العلاء[١] - أحد القراء السبعة، أريد أن نقرأ وكلم الله موسى، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله! فقال له أبو عمرو: هب أنى قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبهت المعتزلى!.

تلكيم الله لأهل الجنة وغيرهم

وكم فى الكتاب والسنة من دليل على تلكيم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم. قال تعالى: ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس: ٥٨]. فعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: بينما أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله تعالى: ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾، فلا يلتفتون إلى شىء مما هم فيه من النعيم، ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، وتبقى بركته ونوره»[٢]. رواه ابن ماجه وغيره. ففى هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً، وقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ**

---

(١) أبو عمرو بن العلاء هو زبان بن عمار التميمى المازنى البصرى أبو عمر ويلقب أبوه بالعلاء من أئمة اللغة والأدب وأحد القراء السبعة ولد بمكة سنة ٧٠ هـ، ومات بالكوفة سنة ١٥٤هـ للصولى كتاب: أخبار أبى عمرو بن العلاء: (فوات الوفيات ١: ١٦٤).

(٢) قال الشيخ الألبانى: الحديث ضعيف أخرجه ابن ماجه ١٨٤ وكذا أبو نعيم فى الحلية ٦- ٢٠٨ - ٢٠٩ وإسناده ضعيف كما قال الذهبى فى العلو ٩٩ فيه أبو عاصم العبادانى واسمه عبد الله بن عبيد الله، قال الذهبى: رواه عن الفضل الرقاش وهو منكر الحديث كما فى التقريب وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات من رواية ابن عدى ثم قال: موضوع الفضل رجل سوء، وتعقبه السيوطى فى «اللآلى» ٢ - ٤٦٠، ٤٦١، بأن ابن ماجه أخرجه وهذا لا شيء وبأن ابن النجار أخرجه من حديث أبى هريرة نحوه فيه سليمان بن أبى كريمة، قال السيوطى قال ابن عدى: عامة أحاديثه مناكير، ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً. قلت وضعفه أبو حاتم كما فى الجرح والتعديل ١ - ٢ - ١٣٨.

﴿ ثمنًا قليلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخرَة وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران : ٧٧] فاهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وهو الصحيح، إذ قد أخبر فى الآية الأخرى أنه يقول لهم فى النار : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]، فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين، لكانوا فى ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن فى تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً . . . وقال البخارى فى «صحيحه» : باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث . فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم . .فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة . وأعلى نعيمها وأفضله الذى ما طابت لأهلها إلا به .

كلام الله تعالى ليس مخلوقا

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] والقرآن شىء، فيكون داخلاً فى عموم «كل» فيكون مخلوقاً!! فمن أعجب العجب . وذلك : أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم «كل»، وأدخلوا كلام الله فى عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى مالا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل وطرد باطلهم : أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شىء، وقدرته شىء، وحياته شىء، فيدخل ذلك فى عموم كل، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . .

وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام فى الجمادات كلامه! وكذلك أيضاً ما خلقه فى الحيوانات، ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق . وإنما قالت الجلود : ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت : ٢١]، ولم تقل نطق الله؛ بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه

فى غيره، زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً!! تعالى الله عن ذلك. وقد طرد ذلك الإتحادية، فقال ابن عربى[1]: وكلُّ كلام فى الوجود كلامه

وكلُّ كلام فى الوجود كلامُه ... سواء علينا نثرهُ ونظامهُ!!

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره، لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير! لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره! ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التى خلقها فى غيره، من الألوان والروائح والطعوم، والطول والقصر ونحو ذلك.

عبد العزيز الكنانى يدحض حجج المريسى فى خلق القرآن

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكى بشراً المريسى بين يدى المأمون، بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتى بنص التنزيل، ويناظرنى بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمى حلال. قال عبد العزيز: تسألنى أم أسألك؟ فقال: بشر: اسأل أنت، وطمع فىّ فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن، وهو عندى أنا كلامه – فى نفسه، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه فى غيره؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشراً فقد انقطع. فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه فى نفسه، فهذا محال، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون فيه شىء مخلوق. وإن قال خلقه فى غيره [فيلزم فى النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله فى غيره فهو كلام][2]، فهو محال أيضاً، لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله فى غيره – هو كلام الله! وإن قال خلقه قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال: ولا يكون الكلام إلا من متكلم،

---

(١) هو محمد بن على بن محمد بن عربى أبو بكر الحاتمى المعروف بمحيى الدين بن عربى الملقب بالشيخ الأكبر، ولد فى مرسية بالأندلس ٥٦٠هـ زار الكثير من البلاد الإسلامية أنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت منه فعمل بعضهم على إراقة دمه، قدوة القائلين بوحدة الوجود، من كتبه: الفتوحات المكية توفى سنة ٦٣٨هـ (فوات الوفيات ٢: ٢٤١).

(٢) ما بين القوسين سقط من: ب.

كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته. فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً، علم أنه صفة لله. هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز في «الحيدة».

وعموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس ﴿ **وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النمل: ٢٣] المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام. إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة.

والمراد من قوله تعالى: ﴿ **خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الرعد: ١٦]، أي: كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه. بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم. فإذا كان قوله تعالى: «الله خالقُ كلِّ شيء» مخلوقاً لا يصح أن يكون دليلاً.

الرد على الأدعياء القائلين بخلق القرآن

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ [الزخرف: ٣] فما أفسده من استدلال! فإن «جعل» إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ [الأنعام: ١] وقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا** ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ**

عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] ونظائره كثيرة. فكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] على أن الكلام خلقه الله تعالى فى الشجرة فسمعه موسى منها! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادى، ثم قال: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] أى أن النداء كان فى البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم! ولو كان الكلام مخلوقاً فى الشجرة، لكانت الشجرة هى القائلة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهل قال: «إنى أنا الله ربُّ العلامين» غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله! وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة: أن ذلك كلام خلقه الله فى الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله.. وسيأتى الكلام على مسألة أفعال العباد، إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]. وهذا يدل على أن الرسول أحدثه، إما جبرائيل أو محمد..

قيل: ذكر الرسول معرّف أنه مبلغ عن مرسله، لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبى، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه. وأيضاً: فالرسول فى إحدى الآيتين جبرائيل، وفى الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن

الاضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر وأيضاً فقوله رسول أمين[١]، ودليل على أنه لا يزيد فى الكلام الذى أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمين على ما أرسل به، يبلغه عن مرسله وأيضاً : إن الله قد كفَّر من جعله قول البشر، ومحمد ﷺ بشر، فمن جعله قول محمد، بمعنى أنه أنشأه — فقد كفر. لا فرق بين أن يقول : إنه قول البشر، أو جنى أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول :

* قفا نبْك منْ ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ *

قال : هذا شعر امرىء القيس[٢]، ومن سمعه يقول «إنَّما الأَعمالُ بالنيات وإنَّما لكُل امرىء ما نَوَى»[٣] — قال : هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول : «الحمدُ لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إيأك نعبدُ وإياك نستعينُ» — قال : هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال : لا أدرى كلام من هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذب. ولهذا من سمع من غيره نظماً أو نثراً، يقول له : هذا كلام من؟ هذا كلامك أو كلام غيرك؟

اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق

وبالجملة، فأهل السنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق. لكن بعد ذلك تنازع المتأخرون

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر الآية التى ذكرها الشارح (إنه لقول رسول كريم) جاءت مرتين فى سورة الحاقة ٤٠ وليس فيما بعدها الوصف بلفظ (أمين) والأخرى فى سورة التكوير ١٩ ثم بعدها : (ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) ٢٠ — ٢١. فتعبير الشارح بقوله : وأيضاً فقوله : رسول أمين فيه شيء من التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة وإنما أراد المعنى فقط، ولو قال : وأيضاً فوصف الرسول بأنه (أمين) كان أدق وأجود.

(٢) امرىء القيس : ابن حجر بن الحارث من بني آكل المرار أشهر شعراء العرب مولده بنجد نحو ١٣٠ ق هـ. ويعرف بالملك الضليل كتب الأدب مشحونة بأخباره توفى سنة ٨٠ ق هـ (تهذيب ابن عساكر ٣ : ١٠٤).

(٣) الحديث رواه البخارى فى بدء الوحى١، وإيمان ٤١ نكاح ٥ ومناقب الأنصار ٤٥ ورواه مسلم فى الإمارة ١٥٥، وأبو داود فى الطلاق ١١، والترمذى فى فضائل الجهاد ١٦، والنسائى فى الطهارة ٥٩ وأحمد بن حنبل ١ — ٢٥.

فى أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم[1] بالذات، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم[2]، وقد[3] يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم أنه غير مختلق مفترى مكذوب، بل هو حق وصدق، ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين.

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو فى كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الذى تكلم به وقام بذاته؟ وأهل السنة إنما سئلوا عن هذا وإلا فكونه مكذوباً مفترى مما لا ينازع مسلم فى بطلانه. ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع - معترفون بأن اعتقادهم فى التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع[4].

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة، لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطة، فرَّق بها بينهم. ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ [البقرة: ١٧٦]. والذى يدل عليه كلام الطحاوى رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم. وكذلك ظاهر كلام الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فى الفقه الأكبر، فإنه قال: والقرآن فى المصاحف مكتوب، وفى القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبى ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق، وما ذكر الله فى القرآن عن موسى عليه السلام وغيره، وعن فرعون وإبليس - فإن ذلك كلام الله إخباراً عنهم، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها بخلاف

---

(١) سقط من ب: قائم.

(٢) راجع (خلق أفعال العباد) للبخارى بتحقيقنا ففيه مقدمة نعتقد والله أعلم - أننا جلينا هذا الموضوع.. المحقق.

(٣) فى ب: وأن بدل: قد.

(٤) فى ب: الشرع.

صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا.. انتهى.

فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته - يعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل أزلاً وأبداً يقول يا موسى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه أنه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع، وإما يخلق الله الصوت فى الهواء، كما قال أبو منصور الماتريدى وغيره. وقوله: الذى هو من صفاته لم يزل رد على من يقول إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً.

وبالجملة: فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئاً بعد شىء، فهو حق يجب قبوله.. وما يقوله من يقول: إن كلام الله قائم بذاته، وأنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به. فيجب الأخذ بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به. قلنا: هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك، ونصوص الأئمة أيضاً، مع صريح العقل.

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه؛ بل الذى أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذى تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذى تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضى الله عنها فى حديث الإفك: «ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى»[1]. ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز. ولا يعرف فى لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيره وإن زعموا

---

(١) الحديث رواه مسلم فى التوبة ٥٦ وأحمد بن حنبل جـ ٦ ص ١٩٧، ورواه البخارى فى الشهادات ١٥ وتفسير سورة ٢٤.

أنهم فروا من ذلك حذراً من التشبيه، فلا يثبتوا صفة غيره، فإنهم إذا قالوا يعلم لا كعلمنا، قلنا: ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر الصفات. وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة، أو حي لا تقوم به الحياة؟ وقد قال ﷺ: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فَاجِرٌ»[1]، فهل يقول عاقل أنه ﷺ عاذ بمخلوق؟ بل هذا كقوله: «أعوذ برضاك من سخطك. وأعوذ بمعاقبتك من عقوبتك». وكقوله: «أعوذُ بعزة الله وقدرته من شَر ما أجدُ وأحاذرُ». وكقوله: «وأعوذُ بعظَمَتك أن نَغْتَالَ مَن تَحْتِنا». كل هذه من صفات الله تعالى.

وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما أشير إليها هنا إشارة..

الرد على بعض الحنفية القائين أن كلام الله معنى واحد

وكثير من متأخرى الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل فى الدلالات، لا فى المدلول. وهذه العبارات مخلوقة، وسميت «كلام الله» لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام. قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً.

وهذا الكلام فاسد، فإن لازمه أن معنى قوله: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ** ﴾ [الإسراء: ٣٢] هو معنى قوله: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ [البقرة: ٤٣]. ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدين. .ومعنى سورة الإخلاص هو معنى ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾ [المسد: ١]. وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده، وعلم أنه مخالف لكلام السلف. والحق: أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك. قال تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ١٠ مسلم فى الدعوات ٥٤، ٥٥ وأبو داود فى الطب ١٩ والسنة ٢٠ والترمذى طب ١٨ ودعوات ٤٠، ٩٠، ١١٢ وابن ماجه فى الطب ٣٥، ٣٦، ٤٦ وأحمد بن حنبل جـ ٢ ص١٨١، ٢٩٠.

تعالى ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [لقمان: ٢٧].

الذى فى المصحف كلام الله

ولو كان ما فى المصحف عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب والمحدث مسه[١]، ولو كان ما يقرأه القارىء ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته. بل كلام الله محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب فى المصاحف كما قال أبو حنيفة فى «الفقه الأكبر». وهو فى هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل: فيه خط فلان وكتابته، فهم منه معنى صحيح حقيقى، وإذا قيل: فيه مداد قد كتب به، فهم منه معنى صحيح حقيقى، وإذا قيل: المداد فى المصحف - كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والأرض وفيه محمد وعيسى، ونحو ذلك. وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خط فلان الكاتب، وهذه المعانى الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله. ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعانى ضل ولم يهتد للصواب.. وكذلك الفرق بين القراءة التى هى فعل القارىء، والمقروء الذى هو قول البارى، من يهتد له فهو ضال أيضاً، ولو أن إنساناً وجد فى ورقة مكتوباً:-

* **ألا كُل شىءٍ ما خَلا الله باطلُ** * [٢]

من خط كاتب معروف، لقال: هذا من كلام لبيد[٣] حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شىء حقيقة، وهذا خبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.

والقرآن فى الأصل: مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى:

---

(١) فى ب: قراءته.

(٢) هذا شطر بيت للشاعر لبيد وتكملته: وكل نعيم لا محالة زائل.

(٣) هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية أدرك الإسلام ووفد على النبى ﷺ ويعد من الصحابة، وهو أحد أصحاب المعلقات توفى سنة ٤١هـ: (آداب اللغة: ١: ١١١).

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[1] وتارة يذكر ويراد به المقروء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال ﷺ: «إنَّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف»[2]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين. فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، لكن الأعيان تعلم، ثم تذكر، ثم تكتب. فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة. وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة؛ بل هو الذي يكتب بلا واسطة ولا لسان..

والفرق بين كونه في زبر الأولين، وبين كونه في رق منشور، أو لوح محفوظ، أو في كتاب مكنون واضح فقوله عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: ذكره ووصفه والاخبار عنه، كما أن محمداً مكتوب عندهم، إذ القرآن أنزله الله على محمد، ولم ينزله على غيره أصلاً، ولهذا قال في الزبر، ولم يقل في المصحف ولا في الرق، لأن «الزبر» جمع «زبور» و «الزبر» هو: الكتابة والجمع، فقوله: «وإنَّه لفي زُبُر الأوَّلينَ» أي: مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس. وهذا مثل قوله: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي ذكره، بخلاف قوله: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور: ٣] و ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢٢] و ﴿ كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٨]، لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر: مكتوب في كتاب، أو في رق. والكتاب: تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد ٥٢، وأبو داود في الوتر٣، والنسائي في الإفتتاح ٨٣، وابن ماجه في الإقامة ١٧٦، والدارمي في فضائل القرآن ٣٤، وأحمد بن حنبل ٤ - ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤.

(٢) الحديث رواه البخاري في فضائل القرآن ٥ - ٢٧، والتوحيد ٥٣ وبدء الخلق ٦ ورواه مسلم في المسافرين ٢٧٠ وأبو داود في الوتر ٢٢، والترمذي في القرآن ٩ والنسائي في الافتتاح ٣٧، وأحمد بن حنبل ٥ - ١٦، ٤١، ١١٤، ١٢٤.

يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التفريق بين كتابة الكلام فى الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة فى الخارج فيه فإن تلك إنما يكتب ذكرها.. وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية: هى ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه. فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم. وهو حقيقة فى هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه. والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس فى المصحف كلام الله ولا: ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ**﴾ [التوبة: ٦] وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله. والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿**حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٦]، ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والأصل الحقيقة ومن قال إن المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالاً.

وكلام الطحاوى – رحمه الله – يرد قول من قال: إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وإن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه.. فإن الطحاوى – رحمه الله – يقول: كلام الله منه بدا، وإليه يعود. وإنما قالوا: منه بدأ، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام فى محل، فبدا الكلام من ذلك المحل. فال السلف: «منه بدا» أى هو المتكلم به، فمنه بدا، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: ١]. ﴿**وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: ١٠٢] ومعنى قولهم: وإليه يعود، يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى فى الصدور منه آية ولا فى المصاحف. كما جاء ذلك فى عدة آثار.

كلام الله بلا كيفية

وقوله بلا كيفية: أى: لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز، وأنزله

على رسوله وحياً، أى: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبرائيل من الله، وسمعه محمد ﷺ من الملك، وقرأ على الناس. قال تعالى: ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٣– ١٩٥]. وفى ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، أو إنزاله الحديد وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله. قال تعالى: ﴿ **حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [غافر: ١، ٢]. وقال تعالى: ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [فصلت: ٢] وقال تعالى: ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ [الدخان: ٣ –٥]. وقال تعالى: ﴿ **فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [القصص: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [النحل: ١٠٢]. وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء. قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا** ﴾ [الفرقان: ٤٨]. والسماء: العلو. وقد جاء فى مكان آخر أنه من المزن، والمزن: السحاب. وفى مكان آخر أنه منزل من المعصرات. وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟ فالحديد إنما يكون من المعادن التى فى الجبال، وهى عالية على الأرض وقد قيل إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم يقل نزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقى ولدها عند الولادة من علو إلى سفل. وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ** ﴾ [الزمر: ٦] وجهين: أحدهما: أن تكون «من» لبيان الجنس.. الثانى: أن تكون «من»

لابتداء الغاية. وهذا الوجهان يحتملان في قوله: ﴿ **جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله، أى هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق.

وقوله: وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية. رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر. وفى قوله: بالحقيقة، رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفسانى، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسانى ولم يتكلم به: – إن هذا كلام حقيقة والإلزام أن يكون الأخرس متكلماً، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً ولزم أن لا يكون الذى فى المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هى كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذى أوحاه إليه ذلك الأخرس فالمكتوب هو[1] عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى. وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد «أخرس»، لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً، بل فهم معنى مجرداً، ثم عبر عنه، فهو الذى أحدث نظم القرآن وتاليفه العربى، وأن الله خلق فى بعض الأجسام كالهوى الذى هو دون الملك هذه العبارة.

ويقال لمن قال إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى او بعضه؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله! وفساد هذا ظاهر. وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعض. وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه.

ولما. قال تعالى للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠] ولما قال لهم: «اسجدوا لآدم». وأمثال ذلك، هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

---

(١) فى ب: هى.

مذاهب الناس في مسمى الكلام

وللناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق، أربعة أقوال: **أحدها**: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معاً، وهذا قول السلف. **الثاني**: اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم. **الثالث**: أنه اسم للمعنى فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز، لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه. **الرابع**: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية، ولهم قول خامس، يروى عن أبي الحسن، أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين، لأن حروف الآدميين تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم، بخلاف كلام الله، فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه. وهذا مبسوط في موضعه. وأما من قال: إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل[1].

إن الكلامَ لفي الفؤادِ وإنَّما جُعلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا

فاستدلال فاسد. ولو استدل مستدل بحديث في «الصحيحين» لقالوا هذا خبر واحد! ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به! فكيف وهذا البيت قد قيل إنه موضوع منسوب إلى الأخطل، وليس هو في ديوانه! وقيل إنما قال: «إن البيان لفي الفؤاد» وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت! أي: شيء من الإله بشيء من الناس! أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟! وأيضاً: فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير إليه إشارة.

---

(١) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من بني تغلب، أبو مالك شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة في شعره إبداع اشتهر في عهد بني أمية بالشام وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم، جرير، والفرزدق والأخطل نشأ على المسيحية، له ديوان شعر، ولفؤاد البستاني: الأخطل ومثله لحنا نمر «الاعلام ص١٢٣ جـ ٥».

وهذا معنى عجيب، وهو: أن هذا القول له شبه قوى بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت! فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذى لا يمكن سماعه، وأما النظم المسموع فمخلوق، بإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذى قالته النصارى فى عيسى عليه السلام، فلينظر إلى هذا الشبه ما أعجبه!.

عود إلى الرد على من قال: الكلام معنى واحد

ويرد قول من قال: «بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ: «إنَّ صلاتنا هذه لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناس»[1] وقال: «إن الله يُحدث من أمره ما يشاء، وإنما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة»[2]. واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً: ففى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تجاوز لأمتى عمَّا حدَّثتْ به نفسَها، مالم تتكلمْ به أوتعملْ به»[3]. فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلاَّ أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء. فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضاً ففى «السنن» أن معاذاً[4] رضى الله عنه قال: يا رسول الله، وإنا

---

(١) هذا جزء من حديث طويل ذكره النسائى فى السنن جـ٣ ص١٣ بلفظ: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن». ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ٥ ص٤٤٧ بلفظ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس هذا إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

(٢) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٤٢، وأبو داود فى الصلاة ١٦٦، ورواه النسائى فى السهو ٢٠ وأحمد بن حنبل ١ – ٤٢٥، ٤٦٣.

(٣) الحديث رواه البخارى فى العتق ٦ والإيمان ١٥، ورواه مسلم فى الإيمان ٢٠٢، ورواه ابن ماجه فى الطلاق ١٦ ورواه أحمد بن حنبل فى المسند ٢ – ٢٥٥، ٣٧٤، ٤٨١، ٤٩١.

(٤) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عايذ أبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام. شهد العقبة مع الأنصار والمشاهد كلها، وأمره النبى – ﷺ – على اليمن، قدم من اليمن فى خلافة أبى بكر. وكانت وفاته بالطاعون فى الشام سنة ١٧هـ.

لَمؤاخذون بما نتكلمُ به؟ فقال: «وهلْ يَكُبُّ الناسَ فى النار على مناخرهم إلاحصائدُ ألسنتهم»[١]. فبين أن الكلام إنما هو باللسان. فلفظ «القول» و«الكلام» وما تصرف منهما، من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى ولم يكن فى مسمى «الكلام» نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع، ثم انتشر.

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما – ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك.

ولاشك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق: فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء: ٨٨]. أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما فى نفسه أو إلى المتلو المسموع؟ ولاشك أن الإشارة إنما هى إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما فى ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

وقوله: «لا يأتون بمثله» أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما فى نفسى مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما فى نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما فى نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع فأما أن يشير إلى ذاته – فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم فى ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشىء بمثله وشبهه. وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين – عجزهم؟! ويكون التالى – فى زعمهم – قد حكى بصوت وحرف ما

---

(٤) الحديث رواه ابن ماجه فى الفتن ١٢ والترمذى فى الإيمان ٨ وأحمد بن حنبل ٥ – ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧.

ليس بصوت وحرف. وليس القرآن إلا سوراً مسورة، وآيات مسطرة، فى صحف مطهرة قال تعالى: ﴿ **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [هود: ١٣] ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿ **فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ** ﴾ [عبس: ١٣ - ١٤]. ويكتب لمن قرأ بكل حرف منه عشر حسنات. قال ﷺ: «أما إنى لا أقول آلم حرفٌ، ولكنْ ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»[1]. وهو المحفوظ فى صدور الحافظين، المسموع من ألسن التالين. قال الشيخ حافظ الدين النسفى[2] - رحمه الله - فى «المنار»[3]: إن القرآن اسم للنظم والمعنى. وكذا قال غيره من أهل الأصول.. وما ينسب إلى أبى حنيفة رحمه الله: أن من قرأ فى الصلاة بالفارسية أجزاه - فقد رجع عنه، وقال: لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية.. وقالوا: لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنوناً فيداوى، أو زنديقاً فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه.

كفر من زعم أن القرآن كلام البشر

وقوله: ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر. لاشك فى تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً. وأما إذا أقر أنه كلام الله، ثم أوَّل وحرَّف - فقد وافق قوله من قال: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ٢٥] فى بعض مابه كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان - وسيأتى الكلام عليه عند قول الشيخ «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله» إن شاء الله تعالى.

---

(١) قال الشيخ الألبانى أخرجه الترمذى وابن ماجه والآجري فى «آداب حملة القرآن» بسند صحيح. وذكره صاحب جامع الأصول وقال أخرجه الترمذى رقم ٢٩١٢ فى ثواب القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، ورواه أيضاً الدارمى وغيره وقال: وهو حديث صحيح. (جامع الأصول جـ٨ ص ٤٩٨).

(٢) النسفى وهو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى أبو البركات حافظ الدين فقيه حنفى مفسر من كور أصبهان نسبته إلى «نسف» ببلاد السند بين جيحون وسمرقند له مصنفات منها «مدارك التنزيل» وكنز الدقائق فى الفقه، والمنار فى أصول الفقه توفى سنة ٧١٠هـ.

(٣) كتاب المنار: فى أصول الفقه - وهو مطبوع.

وقوله: ولا يشبه قول البشر، يعنى أنه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ﴾ [الإسراء: ٨٨]، الآية. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [هود: ١٣] ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [يونس: ٣٨]. فلما عجزوا – وهم فصحاء العرب، مع شدة العداوة – عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله. وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط. هذا مع أنه عربى غير ذى عوج بلسان عربى مبين، أى بلغة العربية. فنفى المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث التكلم به، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف. وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة فى أوائل السور، أى أنه فى أسلوب كلامهم وبلغتهم التى يخاطبون بها. ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما فى قوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ [البقرة: ١ – ٢]. ﴿ **الٓمٓ * اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [آل عمران: ١– ٣]. الآية ﴿ **الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف: ١– ٢] الآية. ﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴾ [يونس: ١]. وكذلك الباقى، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفون، بل خاطبكم بلسانكم.

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفى تكلم الله به، وسماع جبرائيل منه، كما يتذرعون بقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١] إلى نفى الصفات. وفى الآية ما يرد عليهم قوله: وهو قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١] كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [يونس: ٣٨] ما يرد على من ينفى الحرف فإنه قال: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ** ﴾، ولم يقل فأتوا بحرف، أو بكلمة. وأقصر سورة فى القرآن ثلاث آيات ولهذا قال أبو يوسف ومحمد: إن أدنى ما يجزىء فى الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك. والله أعلم.

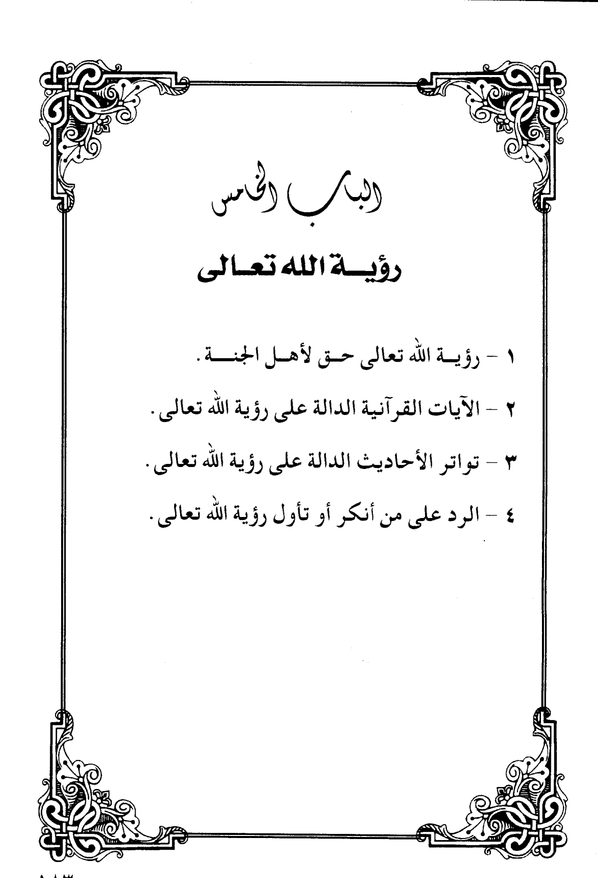
كفر من وصف الله تعالى بمعنى من معانى البشر

قوله : (ومن وصف الله بمعنى من معانى البشر ، فقد كفر ، من أبصر هذا اعتبر . وعن مثل قول الكفار انزجر . علم أنه بصفاته ليس كالبشر) .

ش : لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة، منه بدا، نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات، يعنى أن الله تعالى وإن وصف بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنى من معانى البشر التى يكون الإنسان بها متكلماً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل : باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً. وسيأتى فى كلام الشيخ : ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه. وكذا قوله : وهو بين التشبيه والتعطيل. أى دين الإسلام، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه، بما سأذكره إن شاء الله تعالى. وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله : فمن أبصر هذا اعتبر، أى من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفى التشبيه ووعيد المشبة اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

* * *



الباب الخامس

رؤية الله تعالى

١ - رؤية الله تعالى حق لأهل الجنة.

٢ - الآيات القرآنية الدالة على رؤية الله تعالى.

٣ - تواتر الأحاديث الدالة على رؤية الله تعالى.

٤ - الرد على من أنكر أو تأول رؤية الله تعالى.

رؤية الله تعالى لأهل الجنة

قوله: (والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ.. ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه).

ش: المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة. وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحُرِمَهَا الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون.

وقد ذكر الشيخ - رحمه الله - من الأدلة قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ وهي من أظهر الأدلة. وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً: - فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل.. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا وحذرنا الله أن نفعل مثلهم. وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكمْ جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قتل

عثمان رضى الله عنه إلا بالتأويل الفاسد وكذا ما جرى فى يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين، والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد؟.

وإضافة النظر إلى الوجه، الذى هو محله، فى هذه الآية، وتعديته بأداة إلى الصريحة فى نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة موضوعية صريحة فى أن الله أراد بذلك نظر العين التى فى الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدى بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار كقوله: ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدى بـ «فى» فمعناه: التفكير والاعتبار، كقوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وإن عدى بـ «إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ** ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذى هو محل البصر؟ وروى ابن مردويه[١] بسنده إلى ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ – فى قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** ﴾ قال: من البهاء والحسن «إلى ربها ناظرة»، قال فى وجه الله عز وجل[٢] عن الحسن قال: نظرتْ إلى ربها فنضرتْ بنوره. وقال أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما، «إلى ربها ناظرة» قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة[٣]: «وجوهٌ يومئذ ناضرة»، قال: من النعيم، «إلى ربها ناضرة»، قال: تنظر إلى ربها نظرا، ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث. وقال تعالى: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥].

---

(١) هو أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانى أبو بكر ويقال له ابن مردوية الكبير، حافظ مفسر مؤرخ من أهل أصبهان له كتاب التاريخ، وكتاب فى تفسير القرآن، ومسند، ومستخرج فى الحديث توفى سنة ٤١٠هـ. «طبقات الحفاظ للسيوطى»..

(٢) قال الشيخ الألبانى: لم أقف على سنده، ولم يورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية ٦ – ١٩٠.

(٣) عكرمة بن عبد الله البربرى المدنى أبو عبدالله مولى عبد الله بن عباس تابعى، كان أعلم الناس بالتفسير والمغازى روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل منهم أكثر من سبعين تابعاً مات سنة ١٠٥ هـ (تهذيب التهذيب ٧: ٢٦٣).

قال الطبرى: قال عليُّ بنُ أبي طالب، وأنسُ بن مالك[1] هو النظرَ إلى وجه الله عز وجل. وقـال تعـالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: هى النظر إلى وجهه الكريم، فسَّرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روى مسلم فى صحيحه عن صهيب، قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: إذا دَخَلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النارَ، نادى مناد: يا أهل الجنة، إنَّ لكمْ عندَ الله مَوْعداً يريد أن يُنْجزَكُموه، فيقولون: ماهو؟ ألَمْ يُثقلْ موازينَنا ويبيضْ وجوهَنا ويُدخلْنا الجَنَّةَ ويُجِرْنَا من النار؟ فيُكشف الحجابُ، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهى الزيادةُ»[2]. ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل. وكذلك فسرها بالصحابة رضى الله عنهم. روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى الأشعرى، وابن عباس، رضى الله عنهم.

الآيات القرانية الدالة على رؤية الله تعالى

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].. احتج الشافعى رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبرى وغيره عن المزنى[3] عن الشافعى. وقال الحاكم: حدثنا

---

(١) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الخزرجي الانصارى صاحب رسول الله - ﷺ - وخادمة، روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبى - ﷺ - إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة فمات بها عام ٩٣هـ وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. (طبقات ابن سعد ٧: ١٠).

(٢) الحديث رواه الترمذى فى الجنة ١٦ وتفسير سورة ١٠ ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده ١- ٣٨٨، ٣٩٤ ورواه ابن ماجه فى المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية رقم ١٨٧ وليس فيه «وهى الزيادة».

(٣) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزنى صاحب الإمام الشافعى من أهل مصر، كان زاهداً عالماً مجتهداً قوى الحجة وهو إمام الشافعيين من كتبه الجامع الكبير، والجامع الصغير، والمختصر. نسبته إلى مزينة من مصر قال الشافعى المزنى ناصر مذهبى توفى سنة ٢٦٤هـ (وفيات الأعيان ١: ٧١).

الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قوله الله عز وجل: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وبقوله تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: فالآتيان دليل عليهم.

أما الآية الأولى: فالاستدلال منها على رؤيته من وجوه: **أحدها** أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته - أن يسأل مالا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال. **الثاني**: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿ **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود: ٤٦]. **الثالث**: أنه تعالى قال: «لنْ تراني»، ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل أما إذا كان طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه: الوجه **الرابع**: وهو قوله: ﴿ **لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟ **الخامس**: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظيره أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام. والكل عندهم سواء. **السادس**: قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلى للجبل، الذي هو جماد لا ثواب له ولاعقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف. **السابع**: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة - فرؤيته أولى الجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار

كلامه، وإن جمعوا بينهما. وأما دعواهم تأبيد النفى بـ «لن» وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخرة -: ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]. ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي**﴾ [يوسف: ٨٠]. فثبت أن «لن» لا تقتضى النفى المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك[1] رحمه الله:

ومن رأى النَّفىَ بلن مُؤبَّدا … فقولهُ أرْدُدْ وسواه فاعْضدا

وأما الآية الثانية: فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفى السنة والنوم، المتضمن كمال القومية، ونفى الموت المتضمن كمال الحياة، ونفى اللغوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة،ونفى الشريك والصحابة والولد والظهير، المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره [ونفى الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه][2] ونفى الظلم، المتضمن كمال عدله وغناه، ونفى النسيان وعزوب شيء عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفى المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته.. ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً، فإن المعدوم يشارك الموصوف فى ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يدل

---

(١) محمد بن عبدالله، بن مالك الطائى أبو عبد الله، جمال الدين، أحد الأئمة فى علوم العربية، ولد فى جيان بالأندلس سنة ٦٠٠هـ وانتقل إلى دمشق فتوفى فيها سنة ٦٧٢هـ أشهر كتبه الألفية فى النحو وله تسهيل الفوائد وغير ذلك. (بغية الوعاة ٥٣).

(٢) ما بين القوسين سقط من «ب».

على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن «الإدراك» هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ﴾ [الشعراء: ٦١ -٦٢]. فلم ينف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يعلم ولا يحاط به علماً، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم فى تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ماهى عليه.

تواتر الأحاديث الدالة على رؤية الله تعالى

وأما الأحاديث عن النبى ﷺ وأصحابه، الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن. فمنها: حديث أبى هريرة: «إنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله، هلْ نَرَى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: هل تُضارونَ فى رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: هل تُضارونَ فى الشمسِ ليسَ دونَها سحابٌ؟ قالوا: لا، قال فإنكم ترونَه كذلك»[1] الحديث، أخرجاه فى الصحيحين بطوله. وحديث أبى سعيد الخدرى[2] أيضاً فى الصحيحين نظيره. وحديث جرير بن عبد الله البجلى[3]، قال: «كُنا جلوساً مع النبىَّ ﷺ، فنظرَ إلى

---

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة ٤، ورواه مسلم فى الإيمان ٢٩٨، ٣٠٢ والزهد ١٦ ورواه أبو داود فى السنة ١٩ وأحمد بن حنبل فى المسند ٣ -١٦ ورواه الترمذى فى الجنة ١٥، ٢٠.

(٢) أبو سعيد الخدرى: هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى، أبو سعيد، صحابى، كان من ملازمى النبى - ﷺ - وروى عنه أحاديث كثيرة، غزا اثنتى عشرة غزوة وله ١١٧٠ حديثاً توفى بالمدينة سنة ٧٤هـ.

(٣) جرير بن عبد الله البجلى بن مالك بن عمرو بن الغوث البجلى يكنى أبا عمرو وقيل أبا عبدالله. أسلم فى العام الذى توفى فيه رسول الله ﷺ قال: ما حجبنى رسول الله منذ أسلمت ولا رآنى قط إلا ضحك وتبسم وقال فيه رسول الله - ﷺ - يطلع عليكم خير ذى يمن كأن على وجهه مسحة لك فطلع جرير وبعثه رسول الله إلى ذى كلال.

ونزل جرير الكوفة ومات بها سنة أربع وخمسين (الاستيعاب جـ١ ص٢٣٦ - ٢٤٠).

القمرِ ليلة أربع عشرة، فقال: إنكم ستَرون ربَّكم عيانا، كما تَرون هذا، لا تضامون فى رؤْيَته»[١]، الحديث أخرجاه فى الصحيحين وحديث صهيب المتقدم، رواه مسلم وغيره.. وحديث أبى موسى عن النبى ﷺ، قال: «وجنتان من فضة، آنيتهما وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنه عدن»[٢]، أخرجاه فى الصحيحين. ومن حديث عدى بن حاتم[٣] «وليلقين الله أحدُكم يومَ يلقاه، وليس بينه وبينه حجابٌ ولا تُرجمان يُترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعْطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول، بل يا رَب»[٤]. أخرجه البخارى فى صحيحه.

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أنى التزمت الاختصار لسقت مافى الباب من الأحاديث.

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتى لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب. وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك إلى غير ذلك من الصفات التى سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق. وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى المقدمة ١٣ وذكره قريباً منه فى الزهد ٣٩ وأحمد بن حنبل ٣ – ١٦، ٤ – ١٣ وذكره مسلم فى الإيمان رقم ٣٠٢ عن أبى سعيد الخدرى بلفظ: هل تضارون فى رؤية شمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب قالوا لا يارسول الله.. إلخ.

(٢) الحديث رواه البخارى فى تفسيره سورة ٥٥، والتوحيد ٢٤ ورواه مسلم فى الإيمان ٢٩٦ والترمذى فى الجنة ٣ وابن ماجه فى المقدمة ١٣ والدارمى فى الرقاق ١٠١ وأحمد ابن حنبل ٤ – ٤١١، ٤١٦.

(٣) عدى بن حاتم بن عبد الله بن سعد، أبو وهب أمير صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس طى فى الجاهلية والإسلام وقام فى حروب الردة بأعمال كبيرة أسلم سنة ٩هـ وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين وفقئت عينه يوم صفين ومات بالكوفة عام ٦٨هـ روى عنه المحدثون ٦٦ حديثاً.

(٤) الحديث رواه البخارى فى صحيحه.

رسوله؟ وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم؟ وقد قال ﷺ: «من قالَ فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعدَه من النار»[1]. وفى رواية: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعدَه من النار»[2] وسئل أبو بكر رضى الله عنه عن قوله تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١] ما الأبُّ؟ فقال: أى سماءٍ تُظلُّنى، وأى أرض تقلنى، إذا قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلمُ؟.

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئى بالمرئى، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه. وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يرى لا فى جهة – فليراجع عقله! فإما أن يكون مكابراً لعقله[3] وفى عقله شىء، وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بلا مقابلة[4] بغير جهة، وإنما لم نره فى الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائى البصر فى شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع فى ذات المرئى، بل لعجز الرائى، فإذا كان فى الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته. ولهذا لما تجلي الله للجبل ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بأنه لا يراك حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك فى صورته، إلا من أيده الله كما أيد نبينا، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ**﴾ [الأنعام: ٨]. قال غير واحد من السلف: لا

---

(١) قال الشيخ الألبانى لا أصل لهذا الحديث باللفظ المذكور فى شىء من كتب السنة التى وقفت عليها، وأظنه وهماً من المؤلف رحمه الله تعالى، والمعروف بلفظ: «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» رواه أبو داود والنسائى والترمذى وابن جرير والبغوى فى شرح السنة وابن الأنبارى وغيرهم، وسنده ضعيف.

(٢) قال الشيخ الألبانى. ضعيف رواه أبو داود والترمذى وغيرهما ولم يعلل سبب الضعف.

(٣) فى ب: عقلها – وهو لا يجوز.

(٤) سقط من ب: بلا مقابلة.

يطيقون أن يروا الملك فى صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه ملكاً لجعلناه فى صورة بشر، وحينئذ يشتبه عليهم: هل هو بشر أو ملك؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه.. لكن قول من أثبت موجوداً يرى لا فى جهة – أقرب إلى العقل من قوله من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يرى ولا فى جهة.

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عدمياً؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً كان التقدير: كل ما ليس فى شىء موجود لا يرى، وهذه المقدمة ممنوعة، ولا دليل على إثباتها، بل هى باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يرى، وليس العالم فى عالم آخر. وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً، فالمقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس فى جهة بهذا الاعتبار.

وكيف يتكلم فى أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان؟! وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات النقلة، الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه بمعانيه. .ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثور وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقوله: والرؤية حق لأهل الجنة: تخصيص أهل الجنة بالذكر، يفهم منه نفى الرؤية عن غيرهم، ولا شك فى رؤية أهل الجنة لربهم فى الجنة، وكذلك يرونه فى المحشر قبل دخولهم الجنة، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. واختلف فى رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون. الثانى: يراه أهل الموقف، مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار . . وكذلك الخلاف فى تكليمه لأهل الموقف . .

اتفاق الأمة على أنه لا يرى الله تعالى أحد فى الدنيا بعينه

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا فى ذلك إلا فى نبينا ﷺ خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ . وحكى القاضى عياض[1] فى كتابه «الشفا»[2] اختلاف الصحابة ومن بعدهم فى رؤيته ﷺ ، وإنكار عائشة رضى الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمدٌ ربَّه؟ فقالت : لقدْ قفَّ شعرى مما قلتَ، ثم قالتْ : من حدَّثك أن محمداً رأى ربَّه فقد كذب[3]. ثم قال : قال جماعة بقول عائشة رضى الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبى هريرة واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته فى الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه ﷺ رآه بعينه[4]، وروى عطاء عنه : أنه رآه بقلبه ثم ذكر أقوالاً وفوائد، ثم قال : وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه رأى قاطع ولا نص، والمعمول فيه على آيتى

---

(١) القاضى عياض : بن عمرو بن اليحصبى السبتى أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولى قضاء « سبته » مولده فيها ٤٧٦ هـ تولى قضاء غرناطة وتوفى بمراكش مسموماً عام ٥٤٤ هـ قيل سمه يهودى من كتبه الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معركة أعلام مذهب الإمام مالك وغير ذلك (وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢) .

(٢) كتاب الشفا : شرحه الفقيه الحجة نور الدين القارى الهروى الحنفى الشهير بملا على قارى . ثم قام الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية سابقاً، وعضو جماعة كبار العلماء بتحقيقه فى خمسة أجزاء وقامت بطبعه مطبعة المدنى بالقاهرة .

(٣) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ٥٣ ومسلم فى الإيمان ٢٨٩ وأحمد بن حنبل ٦ – ٤٩ والترمذى فى التفسير سورة ٥٣ ولفظه عند مسلم : عن مسروق قال سألت عائشة : هل رأى محمد ﷺ ربه . . ؟ فقالت : سبحان الله لقد قف شعرى لما قلت وساق الحديث بقصته . و« قف » قام شعرى من الفزع قال ابن الأعرابى تقول العرب : عند إنكار الشيء « قف شعرى واقشعر جلدى واشمأزت نفسى » .

(٤) قال الشيخ الألبانى : ضعيف أخرجه ابن خزيمة فى « التوحيد » .

النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن. وهذا القول الذى قاله القاضى عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية فى الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سألها موسى عليه السلام؛ لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى به بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفى الرؤية، وهو ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «نُورٌ أنَّى أراه»(١). وفى رواية: «رأيت نورا».. وقد روى مسلم أيضاً عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال: «قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينامُ ولا ينبغى له أن ينامَ، يخفضُ القسط ويرفعهُ، يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النورُ»، وفى رواية: «النارُ، لو كشفه لأحرقَتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»(٢). فيكون - والله أعلم - معنى قوله لأبى ذر «رأيت نوراً»: أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله «نور أنى أراه»: النور الذى هو الحجاب يمنع من رؤيته، فأنى أراه؟ أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته؟ فهذا صريح فى نفى الرؤية. والله أعلم.

وحكى عثمان بن سعيد الدرامى اتفاق الصحابة على ذلك، ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

وقوله: بغير إحاطة ولا كيفية - هذا لكمال عظمته وبهائه، سبحانه وتعالى، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به، كما يعلم ولا يحاط به علماً.. قال تعالى ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٠].

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٢٠١ والترمذى فى التفسير سورة ٥٣ وأحمد بن حنبل ٥ - ١٥٧، ١٧١، ١٧٥.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٢٩٣، ٢٩٤ ورواه ابن ماجه فى المقدمة ١٣، وأحمد بن حنبل ٤ - ٤٠١، ٤٠٥.

وقوله: وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، إلى أن قال: لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين باهوائنا .أى كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة فى الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه. فالتأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد المخالف له. فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادى بكلامه إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع فى اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذى يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بياناً ولا هدى. فالتأويل إخبار بمواد المتكلم، لا إنشاء.

وفى هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذى عنى المتكلم، فن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم، ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة: منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى.. ومنها: أن يستعمل اللفظ الذى له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله: ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤]. و «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب»[(١)]. فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذى وضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً فى إخباره. وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه، وهو تأويل بالرأى، وتوهم بالهوى.

وحقيقة الأمر: أن قول القائل: نحمله على كذا، أو نتناوله بكذا، إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده، دفع معناه، وقال: أحمله على خلاف ظاهرة.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الزهد ١٦ ورواه أبو داود فى السنة ١٩، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ١٣.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر، لم يتذكروه، وهو: أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهرة على أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صدق وإما كذب، كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذى أراده، بل يعرف بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة. ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره. إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده! كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفى المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال.

وقوله: فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه. أى: سلم لنصوص الكتاب والسنة ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو بقوله: العقل يشهد بضد مادل عليه النقل! والعقل أصل النقل!! فإذا عارضه قدمنا العقل!! وهذا لا. يكون قط. لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك: فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذى يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك. وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً. ويعارض كلام من يقول ذلك بنظره، فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل، لأن ماليس بدليل لا يصلح لمعارضة شىء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه. وهذا بين واضح، فإن العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته، وان خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون النقل دليلاً صحيحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يجز أن يتبع بحال فضلاً عن أن يقدَّم، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً فى العقل.

وجوب التسليم للرسول والانقياد لأمره

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو نحمله شبهة أو شكاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا نحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوى مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلام فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوله ونحمله. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب – ما خلا الإشراك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال.. بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأى فلان وكلامه ومذهبه؟! بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله، من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأى فلان، بل يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل نهدر الأقيسة، ونتلقى نصوصه، ولا نحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول! ولا يوقف قوله على موافقة فلان دون فلان، كائناً من كان.

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض[1]، حدثنا أبو حازم، عن عمرو ابن شعيب[2] عن أبيه، عن جده، قال: لقد جلستُ أنا وأخى مجْلِساً ما أحب

---

(١) هو أنس بن عياض بن صخرة، روى عن شريك وأبى حازم وربيعة وهشام بن عروة وآخرين. قال ابن سعد كان ثقة، وقال الدورى عن ابن معين ثقة وقال أبو زرعة والنسائى: لا بأس به ولد سنة ١٠٤هـ وقال البخارى عن عبد الرحمن بن شيبة مات سنة مائتين. (تهذيب التهذيب جـ١ ص٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى روى عن أبيه وجل روايته عنه وعن عمته زينب بنت محمد وزينب بنت أبى سلمة ربيعة رسول الله – ﷺ، وروى عنه عطاء وعمرو بن دينار والزهرى وغيرهم. (تهذيب التهذيب جـ٨ ص٤٨).

أنْ لي به حُمر النعم، أقبلتُ أنا وأخي، وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ جلوسٌ عندَ باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرقَ بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آيةً من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعتْ أصواتُهم، فخرج رسولُ الله ﷺ فقال: أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتبَ بعضَها ببعض، إن القرآن لم ينزلْ يُكَذِّب بعضُه بعضاً، بل يُصدق بعضُه بعضاً، فما عرفتم منه فاعمَلوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه»[1].

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦]: فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم: هل خالفه أو وافقه – يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه – فإنه يمسك عنه ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول، لكن فى الأمور الدنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلومُ فيها ما أَخِذَ عن الرسول لا غير.

* * *

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى العلم ٢ وأحمد بن حنبل ١ – ٤٠١، ٤٢١، ٢ – ٤٦٧، ٤٩٥، ٥٠٣، ٥٠٨، ٥١٧، وقال الشيخ أحمد الشيخ أحمد شاكر هو الحديث ٦٧٠٢ فى مسند الإمام أحمد بتحقيقنا وهو حديث صحيح، ومعناه ثابت فى المسند أيضاً مختصراً برقم ٦٦٦٨ وثابت أيضاً باختصار من رواية عبد الرزاق ورواه البخارى فى كتاب خلق أفعال العباد ص ٧٨ عن طريق عبد الرازق وروى مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٢٠٤ نحو معناه من رواية عبد الله بن رباح عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو كذلك فى المسند ٦٨٠١ .

لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين

قوله: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

ش: هذا من باب الاستعارة، إذ القدم الحسى لا تثبت إلا على ظهر شىء. أى لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه روى عن الإمام محمد بن شهاب الزهرى[1] رحمه الله أنه قال: من الله الرسالةُ، ومن الرسول البلاغُ، وعلينا التسليمُ». وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامى المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامى يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامى المقلد عالماً، فدل عليه عاميا آخر: ثم اختلف المفتى والدال، فإن المستفتى يجب عليه قبول قول المفتى دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معى دون المفتى، لأنى أنا الأصل فى علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله على قولى قدحت فى الأصل الذى به عرفت أنه مفت، فلزم القدح فى فرعه! فيقول له المستفتى: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتى لك فى هذا العلم المعين، لا تستلزم موافقتك فى كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتى الذى هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك فى علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتى قد يخطىء.

والعقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين

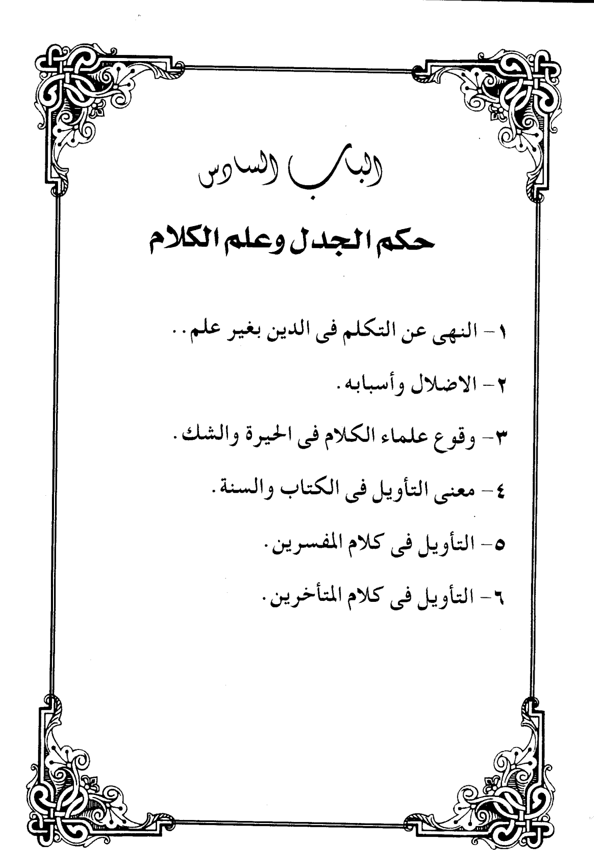
---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشى الزهرى.

أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام روى عن عبد الله بن عمرو وربيعة بن عباد وغيرهم قال البخارى عن على بن المدينى إن له نحو ألفى حديث، قال عمرو بن أبى سلمة عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول ما بقى على ظهرها أعلم بسنة ماضية من الزهرى. (راجع تهذيب التهذيب).

الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذى تلقيه علينا، والحكمة التى جئتنا بها، وقد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمنا بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحاً فيما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هدياً ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشىء مما جاء به الرسول، إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقى الوسواس فى النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمر به!! وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ** ﴾ [النور : ٥٤] وقال : ﴿ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النحل : ٣٥]. وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم : ٤]. ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ [المائدة : ١٥]. ﴿ **حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [الدخان : ١، ٢]. ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [القصص : ٢]. ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف : ١١١]. ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل : ٨٩]. ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن. فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر. إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟ الثانى باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة، فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم فى الموقف الأعظم فمن يدعى أنه فى أصول الدين لم يبلّغ البلاغ المبين فقد افترى عليه ﷺ.

* * *



الباب السادس

حكم الجدل وعلم الكلام

١ - النهى عن التكلم فى الدين بغير علم . .

٢ - الاضلال وأسبابه .

٣ - وقوع علماء الكلام فى الحيرة والشك .

٤ - معنى التأويل فى الكتاب والسنة .

٥ - التأويل فى كلام المفسرين .

٦ - التأويل فى كلام المتأخرين .

النهى عن التكلم فى الدين بغير علم

قوله: (فمن رام علم ما حظُر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمُه حجله مرامه عن خالص التوحيد، وصافى المعرفة، وصحيح الإيمان).

ش: هذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يتكلم فى أصول الدين – بل وفى غيرها – بغير علم. وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الحج: ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ [الحج: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٣]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبى أمامة الباهلى[١] – رضى الله عنه – قال: قال رسولُ الله – ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدى كانوا عليه إلاَّ أوتوا الجدلَ». ثم تلا: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا**﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

---

(١) هو صدى بن عجلان بن وهب الباهلى أبو امامة مشهور بكنيته، روى عن النبى – ﷺ – وعن عمر وعثمان وعلى، وروى عنه خالد بن معدان وآخرون، كان مع الإمام علي فى صفين. سكن الشام وتوفى في أرض حمص، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام عام ٨١هـ له فى الصحيحين ٢٥ حديثاً (الإصابة فى تمييز الصحابة جـ٢ ص١٧٥)..

وعن عائشة – رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إن أبغضَ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم»[١] . أخرجاه فى الصحيحين .

رفض التسليم للرسول نقص للتوحيد

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه ويقلد ذا رأى وهوى بغير هدى من الله، فينقص توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذه فى ذلك إلهاً غير الله . قال تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [الجاثية : ٢٣] أى عبد ما تهواه نفسه .

وإنما دخل الفساد فى العالم من ثلاث فرق، كما قال عبد الله بن المبارك[٢] رحمة الله عليه :

رأيت الذنوبَ تُميتُ القلوبَ ... وقد يُورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها
وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوك ... وأحْبارُ سُوء ورُهبانُها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، يعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله . . . وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك . والرهبان وهم جهال الصوفية المعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذى شرعه على لسان نبيه – ﷺ – والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ٣٠، ٣٧ والأحكام ٣٤، ومسلم فى علم ٥ والترمذى فى التفسير سورة ٢ والنسائى فى القضاء ٣٤ وأحمد بن حنبل ٦ – ٥٥، ٦٣، ٢٠٥ .

(٢) هو عبد الله بن المبارك المروزى، مولى بنى حنظلة ثقة، ثبت، فقيه عالم جواد مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، سمع معمراً ويونس وابن يزيد، وسمع منه يحيى القطان وابن مهدى، قال موسى بن إسماعيل، سمعت سلام بن أبى مطيع يقول : ما خلف بالمرو مثله قال أحمد، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، توفى سنة مائة وإحدى وثمانين وله ثلاث وستون . (تقريب التهذيب جـ١، ص٤٤٥) .

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل. وقال أصحاب الذوق إذا تعارض الذوق والكشف، وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

حكم الجدل وعلم الكلام

ومن كلام أبى حامد الغزالى[١] رحمه الله فى كتابه الذى سماه «إحياء علوم الدين»[٢] وهو من أجل كتبه، أو أجلها: فإن قلت فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه.. فاعلم أن للناس فى هذا غلواً وإسرافاً فى أطراف. فمن قائل: إنه بدعة وحرام، وإن العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام. ومن قائل: إنه فرض، إما على الكفاية وإما على الأعيان، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله.

قال: وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان[٣]، وجميع أئمة الحديث من السلف، وساق الألفاظ عن هؤلاء.

قال: وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه. قالوا: ما سكت عنه الصحابة – مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم – إلا لما يتولد منه من الشر. وكذلك قال –

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالى الطوسى أبو حامد. له نحو مائتى مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ فى الطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فبلاد الشام بمصر وعاد إلى بلدته من كتبه «إحياء علوم الدين» و«مقاصد الفلاسفة» «وتهافت الفلاسفة» توفى سنة ٥٠٥هـ، (راجع ترجمته فى وفيات الوفيات ١ : ٤٦٣).

(٢) طبع كتابه «إحياء علوم الدين» أكثر من مرة فى أربعة مجلدات.

(٣) الثورى: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى من بنى ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين فى الحديث. كان سيد أهل زمانة فى علوم الدين والتقوى ولد عام ٩٧ بالكوفة، وراوده المنصور العباسى علي أن يلى الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدى فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات بها مستخفياً عام ١٦١هـ من كتبه الجامع الكبير، والجامع الصغير فى الحديث وكتاب «الفرائض» (وفيات الأعيان: ١ : ٢١٠).

ﷺ «هلكَ المتنطِّعون»(١). أى المتعمقون فى البحث والإستقصاء. واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله - ﷺ - ويعلم طريقه ويثنى على أربابه. ثم ذكر بقية استدلالهم ثم ذكر استدلال الفريق الآخر إلى أن قال: فإن قلت: فما المختار عندك..؟ فاجاب بالتفصيل، فقال: فيه منفعة، وفيه مضرة، فهو فى وقت الانتفاع حلال، أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال. وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام.

قال: فأما مضرته، فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل بالإبتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرورة فى اعتقاد الحق، وله ضرر فى تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل.

قال: وأما منفعته، فقد ظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيئتها، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف..

قال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قاله بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر سوى نوع الكلام، وتحقيق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود.. ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور انتهى ما نقلته عن الغزالى رحمه الله.

وكلام مثله فى ذلك حجة بالغة، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى علم ٧ وأبو داود فى السنة ٥ وأحمد بن حنبل جـ١ ص ٣٨٦ ولفظه عند أبى داود عن عبد الله بن مسعود: قال: ﷺ: «هلك المتنطعون» ثلاث مرات..
المتنطع: المتعمق فى الشيء، المتكلف البحث عن مذاهب الكلام، الداخل فيما لا يبلغه عقله.

أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق..

ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام فى إثباتها مع قلة نفعها، فهى لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى.

وأحسن ما عندهم فهو فى القر أصح تقريراً وأحسن تفسيراً فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد.. كما قيل:

لولا التنافُسُ فى الدنيا لما وضعَتْ كتب التناظر لا المغنى ولا العمدُ
يحلِّلون بزعمٍ منهمُ عُقَداً وبالذى وضعُوه زادت العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقله ويعرف برهانه ودليله العقلى والخبرى السمعى، ويعرف دلالته على هذا وهذا يجعل أقوال الناس التى توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقول لأصحابها هذه الألفاظ تحمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

وهذا مثل لفظ المركَّب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض، ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ لن تأت فى الكتاب والسنة بالمعنى الذى يريده أهل الصلاح بل ولا فى اللغة، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتُفسر تلك المعانى بعبارات أخرى، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

مثال ذلك فى التركيب: فقد صار له معانى: —

أحدهما: التركيب من متباينين فأكثر ويسمى: تركيب مَزج، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك.. وهذا المعنى منفى عن الله

سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور.

والثاني: تركيب الجوار، كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب.

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى الجواهر المفردة..

الرابع: التركيب من الهيولى والصورة، كالخاتم مثلاً، هيولاه: الفضة وصورته معروفة. وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة ولهم كلام في ذلك يطول، ولا فائدة فيه، وهو أنه: هل يمكن التركيب من جزئين، أو من أربعة، أو ستة، أو ثمانية، أو ستة عشر..؟

وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه. والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهذا مبسوط في موضعه.

الخامس: التركيب من الذات والصفات، هم سموه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة، ولا في استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة.

ولئن سموا إثبات الصفات تركيباً فنقول لهم: العبرة للمعاني لا للألفاظ سموه ما شئتم ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم، فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً لم يحرم بهذه التسمية.

السادس: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، وأما في الخارج، هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها مجرد عنها؟ هذا محال.. فنرى أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير وأمثلهم طريقة رأى الوقف والشك في ذلك.. وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل؟.

الأضلال وأسبابه

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله، والاشتغال

بكلام اليونان والآراء المختلفة. وإنما سمى هؤلاء أهل الكلام، لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به فى موضع آخر، ومع من ينكر الحس. وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته -- مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهي إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليماً.

وقوع علماء الكلام فى الحيرة والشك

قوله: (فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار موسوساً، تائهاً، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً).

ش: يتذبذب: يضطرب ويتردد وهذه الحالة التى وصفها الشيخ -- رحمه الله -- حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص، ويرده إلى الرأى والآراء المختلفة فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد[1]، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم فى كتابه «تهافت

---

(١) هو محمد بن أحمد بن رشد أبو الوليد. الفيلسوف من أهل قرطبة، عنى بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة وصنف نحو خمسين كتاباً، اتهمه الناس بالزندقة والالحاد وأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه إلى مراكش ثم رضى عنه وأذن له بالعودة إلى موطنه مات بمراكش سنة ٥٩٥هـ من مؤلفاته: منهاج الأدلة. وتهافت التهافت وبداية المجتهد ونهاية المقتصد.

التهافت »[1] : « ومن الذى قال فى الإلهيات شيئاً يعتد به . . ؟ » وكذلك الآمدى[2] أفضل أهل زمانه، واقف فى المسائل الكبار حائر وكذلك الغزالى رحمه الله – انتهى آخر امره إلى الوقف والحيرة فى المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول – ﷺ ، فمات والبخارى[3] على صدره . وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى قال فى كتابه الذى صنفه « أقسام اللذات :

نهايةُ إقْدام العقول عِقالُ ... وغايةُ سعْى العالمين ضلالُ
وأرواحُنا فى وحْشَةٍ من جسُومنا ... وحاصلُ دُنيانا أذًى ووَبالُ
ولم نستفدْ من بحثنا طُول عمرنا ... سَوى أن جمعْنا فيه قيلَ وقالوا
فكمْ قدْ رأينا من رجالٍ ودوْلةٍ ... فبادُوا جميعاً مُسرعين وزَالُوا
وكمْ من جبالٍ قد علَتْ شرفاتُها ... رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ[4]

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ فى الإثبات : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] . ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر : ١٠] . . واقرأ فى النفى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى : ١١] . ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾

---

(١) تهافت التهافت : هو الكتاب الذى رد فيه ابن رشد على ما أثاره أبو حامد العزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » وقد قام بتحقيق الكتابين تحقيقاً جيداً الدكتور سليمان دنيا .

(٢) الآمدى : هو على بن محمد بن سالم التغلبى، أبو الحسن، سيف الدين الآمدى الأصولى . باحث أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها، وتعلم فى بغداد والشام، وانتقل إلى القاهرة، فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة فخرج مستخفياً إلى « حماة » ومنها إلى دمشق فتوفى عام ٦٣١هـ من كتبه : « الإحكام فى أصول الأحكام » و« أبكار الأفكار » و« دقائق الحقائق »، (ابن خلكان ١ : ٣٩٩) .

(٣) يقصد كتاب : صحيح البخارى : للإمام محمد بن إسماعيل البخارى .

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر : فى المطبوعة « اللذات » فقط ولم أجد اسم هذا الكتاب إلا فى هامشه كتاب « مختصر الصواعق المرسلة » لابن القيم طبعة السلفية بمكة المكرمة ١٣٤٨هـ جـ١ ص١٠ وقد ذكرت الأبيات الثلاثة الأولى هناك والأبيات الخمسة مذكورة فى ترجمة الفخر الرازى من كتاب « طبقات الشافعية » لابن السبكى جـ٥ ص٤٠ ومنها بيتان فى ترجمته عند الحافظ ابن كثير فى تاريخه جـ١٣ ص٥٦

[طه: ١١٠]. ثم قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي؟».. وكذلك قال الشيخ محمد بن عبد الكريم الشهرستانى[١] إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم حيث قال:

لعمرى لقدْ طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلكَ المعالم

فلم أر إلا واضعـاً كفَّ حائرٍ على ذَقْنه أو قارعاً سنَّ نادم

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فى الذى نهونى عنه، والآن فإن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى، وها أنا أموت على عقيدة أمى. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور[٢].

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهى[٣]، وكان من أجل تلاميذ فخر الدين الرازى لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقده..؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال،

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستانى: كان إماما فى علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، يلقب الأفضل ولد فى شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) وانتقل الى بغداد سنة ٥١٠ هـ فأقام ثلاث سنين وعاد إلى بلده وتوفى بها عام ٥٤٨هـ من كتبه الملل والنحل، ونهاية الإقدام فى علم الكلام، والإرشاد الى عقائد العباد، وغير ذلك (الإعلام جـ٧ ص٨٣).

(٢) نيسابور: مدينة عظيمة: معدن الفضلاء، ومنبع العلماء قال: بطليموس: فى كتاب الملحمة مدينة نيسابور طولها خمس وثمانون درجة وعرضها تسع وثلاثون درجة، واختلف فى تسميتها فقال بعضهم: إنما سميت بذلك لأن «سابور» مر بها وفيها قصب كثير فقال يصلح أن يكون ههنا مدينة فقيل لها نيسابور وقيل غير ذلك. ومن الرى إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً وكان أهلها قديما يشربون من قنوات تحت الأرض. وفيها حدائق وبساتين كثيرة: (راجع معجم البلدان جـ٥).

(٣) الخسر وشاهى: هو عبد الحميد بن عيسى بن عموية أبو محمد، شمس الدين من علماء الكلام نسبته إلى خسروشاه «من قرى تبريز» أقام فى دمشق عند الملك الناصر داود سنين كثيرة وتوفى بدمشق سنة ٦٢٥هـ له تلخيص البينات للفخر الرازى واختصار المهذب فى فقه الشافعية. (النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٢).

فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكنى والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، وبكى حتى اخضلت لحيته... ولابن أبى الحديد[1] الفاضل المشهور بالعراق.

فـيك يـا أغلوطة الفكر	حارَ أمرى وانقضى عُمرى
سافرتْ فيك العقولُ فما	ربحتْ إلا أذى السفر
فلحى الله الأُولى زَعموا	أنَّك المعروفُ بالنظرِ
كذبوا، إن الذى ذكرُوا	خارجٌ عن قوَّةِ البَشرِ

وقال الخوفجى عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح ثم قال: الافتقار وصف سلبى، أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر: اضطجع على فراشى وأضع اللحفة على وجهى وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندى منها شىء.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب.

وقال الشافعى رحمه الله: حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه – ما خلا الشرك بالله – خير له من أن يبتلى بالكلام. انتهى.

ونجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التى كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون فى نهاياتهم – إذا سلموا من العذاب – بمنزلة أتباع العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

---

(١) ابن أبى الحديد: هو عبد الحميد بن وهبة الله بن محمد بن الحسين بن أبى الحديد، أبو حامد عز الدين، من أعيان المعتزلة، له شعر جيد واطلاع على التاريخ، توفى ببغداد سنة ٦٥٥هـ (فوات الوفيات جـ١ ص٢٤٨).

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله - «إذا قامَ من الليل يفتتح الصلاة: «اللهُمَّ ربَّ جَبْرَائيلَ وميكائيل واسْرافيلَ، فاطر السَّمَوات والأرْض، عالم الْغَيْبِ والشَّهَادَة، أَنْتَ تَحْكُمُ بينْ عبادكَ فيما كَانُوا فيه يخْتَلفُونَ، اهْدني لما اخْتُلفَ فيه منَ الحَقِّ بإذنكَ، إنَّكَ مَنْ تَشاءُ إلىَ صراط مُسْتَقيم» .أخرجه مسلم[1] ..

توجه - ﷺ إلى ربه بربوبيه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلوب[2] بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة. فجبرائيل موكل بالوحى الذى هو سبب حياة القلوب وميكائيل بالقطر الذى هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ فى الصور الذى هو سبب حياة العالم، وعود الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم فى حصول المطلوب والله المستعان.

الرد على من أنكر أو تأول رؤية الله تعالى..

قوله: (ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوقَّ النفى والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم فى نفى الرؤية، وعلى من يشبه الله بشىء من مخلوقاته. فإن النبى - ﷺ قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر[3]». الحديث: أدخل «كاف» التشبيه على «ما» المصدرية أو الموصولة بـ«ترون» التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذى هو الرؤية، فيكون التشبيه فى الرؤية لا فى المرئى.

---

(1) الحديث كما قال الشارح رواه مسلم فى صلاة المسافرين رقم ٧٧٠ باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه، ورواه الترمذى رقم ٣٤١٦ فى الدعوات باب ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل، ورواه أبو داود رقم ٧٦٧ فى الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، والنسائى ٣ - ٢١٢، ٢١٣، فى صلاة الليل باب بأى شىء تستفتح الصلاة.

(2) فى ب: القلب. (3) سبق تخريج هذا الحديث.

وهذا بيّن واضح فى أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟ فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص، كيف يستدل بنص من النصوص؟ وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟ ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ [الفيل: ١]. ونحو ذلك مما استعمل فيه «رأى» التى من أفعال القلوب؟..

ولا شك أن «ترى» تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أصل معانيه من الباقى. وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعانى لكان مجملاً ملغزاً، لا مبينا موضحاً، وأى بيان وقرينة فوق قوله: «تَرونَ ربَّكم كما ترون الشمسَ فى الظهيرة ليس دونَها حجابٌ»(١).

فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر، أو برؤية القلب؟ وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟.

فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل أن رؤيته تعالى محالاً لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم، خالفكم فيها أكثر العقلاء وليس فى العقل ما يحيلها بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال وقوله: «لمن اعتبرها منهم بوهم» أى توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيهاً، ثم بعد هذا التوهم – إن أثبت ما توهمه من الوصف – فهو مشبه، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم – فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيها رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق..

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: ومن لم يتوق النفى والتشبيه

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

زل ولم يصب التنزيه . فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفى ! !
وهل يكون التنزيه بنفى صفة الكمال ؟ فإن نفى الروية ليس بصفة كمال، إذ المعدوم لا يُرى، وإنما الكمال فى إثبات الروية ونفى إدراك الرائى له إدراك إحاطة، كما فى العلم، فإن نفى العلم به ليس بكمال، وإنما الكمال فى إثبات العلم ونفى الإحاطة به علماً . فهو سبحانه لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علماً .

وقوله : « أو تأولها بفهم » أى ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربى من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين فى معنى التأويل : أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا : نحن نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف : تأويلاً، تزييناً له وزخرفة ليقبل وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ [الأنعام : ١١٢] . .

والعبرة للمعانى لا للألفاظ . فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم « لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا » ثم أكد هذا المعنى بقوله : إذا كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين ومراده ترك التأويل (الذى يسمونه تأويلاً) وهو تحريف . . ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتى هى أحسن كما أمر الله تعالى بقوله : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلاً، ولا ترك شىء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة، وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف، الذى يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم .

فمن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً .

ثم قد صار لفظ « التأويل » مستعملاً فى غير معناه الأصلى .

معنى التأويل فى الكتاب والسنة

فالتأويل فى كتاب الله وسنة رسوله: هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام. فتأويل الخبر، هو عين المخبر به، وتأويل الأمر: نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة – رضى الله عنها – «كان رسول الله – ﷺ – يقول فى ركوعه: سبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهم اغفْر لى»(1)، يتأول القرآن. وقال تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ومنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿ **هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقوله: ﴿ **وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ [يوسف: ٦] وقوله ﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله: ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف: ٧٨] إلى قوله ﴿ **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف: ٨٢].

فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما تعلق بالأمر والنهى منه؟ وأما ما كان خبراً، كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله، الذى هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك – لم يعرف حقيقته التى هى تأويله، بمجرد الإخبار وهذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله. لكن لا يلزم من نفى العلم بالتأويل نفى العلم بالمعنى الذى قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما فى القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله مالا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له.

التأويل فى كلام المفسرين

والتأويل فى كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، يريدون به تفسير

---

(1) الحديث رواه البخارى عن عائشة، كتاب المغازى باب ٥١، ورواه مسلم عن عائشة، كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود، ورواه أبو داود عن عائشة فى كتاب الصلاة، باب الدعاء فى الركوع والسجود رقم ٨٧٧ والنسائي عن عائشة قريبا من هذا اللفظ كتاب الافتتاح باب الذكر فى الركوع.

الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه ويرد باطله. وقوله تعالى: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾ [آل عمران: ٧] فيها قراءتان: قراءة من يقف على قوله (إلا الله)، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله. ولا يريد من وقف على قوله (إلا الله) أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون فى العلم لاحظ لهم فى معرفة معناها سوى قولهم: ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ [آل عمران: ٧] وهذا القدر يقوله غير الراسخ فى العلم من المؤمنين، والراسخون فى العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين فى ذلك. وقد قال ابن عباس – رضى الله عنهما: أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله. ولقد صدق – رضى الله عنه – فإن النبى – ﷺ – دعا له وقال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»(١). رواه البخارى وغيره ودعاؤه ﷺ لا يرد.

قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، من أوله إلى آخره، أقفه عند كل آية وأسأله عنها، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم فى جميع معانى القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذى لا يعلم أحدٌ تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله فى الأصول: المتشابه: الحروف المقطعة فى أوائل السور، ويروى هذا عن ابن عباس. مع أن هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً، فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً وهى المتشابه، كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا المطلوب

وأيضاً فإن الله قال: ﴿ **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾ [آل عمران: ٧] وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ١ ص ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥، وأخرجه البخارى كتاب الوضوء رقم ١٤٣ ومسلم عن ابن عباس كتاب فضائل الصحابة «ابن عباس» رقم ١٣٨.

معنى التأويل فى كلام المتأخرين

والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك. وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية.

فالتأويل الصحيح منه: الذى يوافق مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط فى موضعه وذكر فى «التبصرة» أن نصير بن يحيى البلخى روى عن عمرو بن إسماعيل بن حماد بن أبى يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله: أنه سئل عن الآيات والأخبار التى فيها من صفات الله تعالى ما يؤدى ظاهرة إلى التشبيه؟ فقال: نمرُّها كما جاءت، ونؤمن بها ولا نقول: كيف وكيف..

ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفرى ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه وأن من فهم ذلك منه لقصور فهمه، ونقص علمه، وإذا كان قد قيل فى قول بعض الناس:

وكم من عائب قولا صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

عليَّ نحتُ القوافى من مقاطعها ... وما عليَّ إذا لم تفهمَ البقرُ(1)

فكيف يقال فى قول الله، الذى هو أصدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتاب الذى ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود: ١] أن حقيقة قولهم: إن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال، وأنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه؟.

هذا حقيقة قول المتأولين. والحق أن ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه. والمنازعون يدَّعون دلالته على الباطل الذى يتعين صرفه

---

(١) هو من قصيدة للشاعر البحترى من أجود قصائده وهى فى ديوانه رقم ٢: ١٨٢ – ١٨٤ طبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ. ص٦٧٣ – ٦٧٥ طبعة بيروت ١٩١١م. وأثبت فى المطبوعة محرفاً وصوابه ما أثبتنا عن الديوان. أحمد شاكر:

فيقال لهم: هذا الباب الذى فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين فى مواضع قليلة خفية - فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهوم بغير دليل شرعى، فما الضابط فيما يسوغ تأويله ومالا يسوغ؟ فإن قلتم: ما دل القاطع العقلى على استحالته تأولناه، وإلا أقررناه، قيل لكم: وبأى عقل نزن القاطع العقلى؟ فإن القرمطى[1] الباطنى يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع؟ ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد؟ ويزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى؟ وباب التأويلات التى يدعى أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر فى هذا المقام، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان: أحدهما: أن لا نقر بشىء من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة فى إمكان ذلك بالعقل؟ وكل طائفة من المختلفين فى الكتاب يدَّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة.

الثانى: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشىء تعتقده مما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصة النبى هى الإنباء، والقرآن: هو النبأ العظيم. ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، أن وافقت ما أدعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه؟ وهذا فتح باب الزندقة نسأل الله العافية.

النفى والتشبيه من أمراض القلب..

قوله: (ومن لم يتوق النفى والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه).

ش: النفى والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان:

---

(١) قرمط: رأس القرامطة من الباطنية وإليه نسبتهم اختلف فى اسمه وأصله قيل: اسمه «حمدان» أو الفرج بن عثمان، وقرمط لقبه، كثر اتباعه، واندمج أكثرهم فى الإسماعيلية والنصيرية وغيرهما من طوائف الباطنية قبض عليه عامل الرحمة سنة ٢٩٣ وقتله المكتفى بالله العباسى وفى المنتظم لابن الجوزى شرح لبعض أحوال القرامطة يرجع إليه: جـ٥ ص١١٠ - ١١٩.

مرض شبهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور فى القرآن، قال تعالى: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] فهذا مرض الشهوة وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

والشبهة التى فى مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفى أردأ من سبهة التشبيه، فإن شبهة النفى رد وتكذيب لما جاء به الرسول - ﷺ - وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاد به الرسول - ﷺ - وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ونفى الصفات كفر فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهذا أصل نوعى التشبيه فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذى يتعب أهل الكلام فى رده وإبطاله، وأهله فى الناس أقل من النوع الثانى، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعبَّاد المشايخ، وعُزَيْر، والشمس والقمر، والأصنام، والملائكة، والنار، والماء، والعجل، والقبور، والجن، وغير ذلك. وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

تنزيه الله تعالى عن الحدود والغايات...

قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية ليس فى معناه أحد من البرية).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذى هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. كلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص. فقوله: موصوف بصفات الوحدانية. مأخوذ من قوله تعالى: (قل هو الله أحد. الله الصمد). وقوله: منعوت بنعوت الفردانية. من قوله تعالى: (الله الصمد. لم يلد ولم يولد). وقوله: ليس فى معناه أحد من البرية من قوله تعالى: (ولم يكن له كفواً أحد) وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفى التشبيه. والوصف والنعت مترادفان. وقيل: متقاربان، فالوصف للذات، والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية وقيل الفرق بينهما.. إن الوحدانية للذات،

والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد فى ذاته، منفرد بصفاته. وهذا المعنى حق لم ينازع فيه أحد، ولكن فى اللفظ نوع تكرير. وللشيخ نظير هذا التكرير فى مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق. و(ليس كمثله شيء)، أكمل فى التنزيه من قوله: ليس فى معناه أحد من البرية.

قوله: (وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات كسائر المبتدعات).

ش: أذكر بين يدى الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهى: أن الناس فى إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين، ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفى بها فهو منفى. لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ فى اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها فى نفس معناها اللغوى. ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتها مالا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً، مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

الواجب فى باب الصفات إثبات ما أثبته الله تعالى ورسوله ونفى ما نفاه الله تعالى ورسوله

فالواجب أن ينظر فى هذا الباب، أعنى باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه والألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الإثبات والنفى، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعانى، وننفى ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعانى. وأما الألفاظ التى لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر فى مقصود قائلها: إن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك.

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجواربى[1] وأمثاله القائلين: إن الله جسم وأنه جثة وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فالمعنى الذ ى أراده الشيخ رحمه الله من النفى الذى ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل فى عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك وهو: أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حداً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته.

قال أبو داود الطيالسى[2]؛ كان سفيان وشعبة[3] وحماد بن زيد، وحماد ابن سلمة[4] وشريك[5] وأبو عوانة[6] لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف، وإذا سئلوا قالوا بالأثر وسيأتى كلام الشيخ: وقد

---

(١) داود الجواربى: رأس الرافضة والتجسيم من مرامى جهنم، قال يزيد بن هرون: الجواربى، والمريسى كافران، وإنما عبر داود جسر واسط فانقطع الجسر فغرق ومن كان عليه، فخرج شيطان وقال: أنا داود الجواربى وحكى عنه المراد بالتشبيه وقد أخذ داود عن هشام الجواليقى وأخذ قوله أن معبوده له جميع أعضاء الإنسان إلا الفرج واللحية «لسان الميزان حـ٢ ص ٤٢٧».

(٢) أبو داود الطيالسى: هو سليمان بن داود بن الجارود مولى قريش من كبار حفاظ الحديث، فارسى الأصل، سكن البصرة وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ كان يحدث من حفظة سمع يقول: أسرد ثلاثين ألف حديث ولا فخر، له مسند جمعه بعض الحفاظ الخراسانيين. (تاريخ بغداد ٩ : ٢٤).

(٣) شعبة بن الحجاج بن الورد - الأزدى، من أئمة رجال الحديث، حفظاً ودراسة وتثبتاً. ولد ونشأ بواسط عام ٨٢هـ وسكن البصرة إلى أن توفى عام ١٦٠هـ قال الإمام أحمد: هو أمة وحده فى هذا الشأن وقال الشافعى: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق له كتاب «الغرائب فى الحديث» (تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٨)..

(٤) حماد بن سلمة بن دينار البصرى أبو سلمة.. مفتى البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة، وكان حافظاً ثقة مأموناً إلا أنه لما كبر ساء حفظه فتركه البخارى، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع منه قبل تغيره. ونقل الذهبى: كان حماد إماماً فى العربية فقهياً فصيحاً مفوهاً، شديداً على المبتدعة، له تآليف.

(٥) شريك النخعى: هو شيرك بن عبد الله الحارس النخعى الكوفى أبو عبد الله: عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بذكائه وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العباسى على الكوفة سنة ١٥٣هـ ثم عزلة وأعاده المهدى فعزله موسى الهادى وكان عادلاً فى قضائه مولده فى بخارى سنة ٩٥هـ ووفاته بالكوفة ١٧٧هـ. (الكامل لابن الأثير ٤ : ١٩١).

(٦) أبو عوانة: هو الوضاح بن خالد اليشكرى. من حفاظ الحديث الثقات من سبى جرجان، كان مع سعة علمه، شبه أمى، يقرأ ويستعين بمن يكتب له، مات بالبصرة سنة ١٧٦هـ. (تذكره الحفاظ ١ : ٢١٩)

أعجز خلقه عن الإحاطة به. فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحدٌ بحده، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم.

سئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا..؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه؛ قيل: بحد؟ قال: بحد انتهى.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال فى خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفى وجود الرب ونفى حقيقته.

وأما الحد بمعنى العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة. قال أبو القاسم القشيرى[1] فى «رسالته»[2]: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى[3]، سمعت أبا منصور بن عبد الله، سمعت أبا الحسن العنبرى سمعت سهل بن عبد الله التسترى[4] يقول: وقد سئل عن ذات الله...؟ فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون فى العقبى، ظاهراً فى ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه

---

(١) أبو القاسم القشيرى، هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى، من بنى قشير بن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام شيخ خراسان فى عصره، كان زاهداً ورعاً عالماً بالدين، كانت وفاته بنيسابور سنة ٤٦٥هـ وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه. من كتبه: لطائف الإشارات فى التفسير، والرسالة القشيرية فى التصوف، واليسير فى التفسير. (الأعلام جـ ٤ ص ١٨٠).

(٢) الرسالة: هى الرسالة القشيرية نسبة إلى القشيرى وقد قام بتحقيقها ونشرها الدكتور عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر السابق رحمه الله.

(٣) أبو عبد الرحمن السلمى: اسمه عبد الله بن حبيب بن ربيعة، وكنيته أبو عبد الرحمن الكوفى السلمى، ولأبيه صحبة، روى عن عمر وعثمان وعلى وسعد وغيرهما من الصحابة - رضى الله عنهم.

وروى عنه إبراهيم النخعى، وعلقمة بن مرثد وآخرون. قال العجلى: تابعى ثقة قال النسائى: ثقة مات سنة ٧٢هـ رحمه الله (تهذيب التهذيب حـ ٥ ص١٨٤).

(٤) سهل بن عبد الله بن يونس التسترى، أبو محمد أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال له كتاب فى تفسير القرآن مختصر، وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك.

ذاته، ودلهم عليه بأياته، فلا قلوب تعرفه، والعيون لا تدركه ينظر إليه المؤمن بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية. وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات، فيستدل بها النفاة على نفى بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه.

قال أبو حنيفة – رضى الله عنه – فى (الفقه الأكبر) له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى فى القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف ولا يقال.. إن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة، انتهى.

وهذا الذى قاله الإمام – رضى الله عنه، ثابت بالأدلة القطعية قال تعالى: ﴿ **مَا منعك أَن تَسْجُدَ لما خلقت بيديَّ** ﴾ [ص: ٧٥] ﴿ **والأَرْضُ جميعا قَبْضته يوْمَ الْقيَامَة وَالسَّموَاتُ مَطْويَّاتٌ بيَمينه** ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ **كُلُّ شيْءٍ هالك إلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبّك ذُو الْجلال والإكْرام** ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ **تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نفسك** ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال تعالى ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسه الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال تعالى ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لنَفْسي** ﴾ [طه: ٤١]. وقال تعالى: ﴿ **وَيُحَذّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال – ﷺ فى حديث الشفاعة لما يأتى الناسُ آدم فيقولون له: «خلقَكَ الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلَّمك أسماء كل شيء»[1]. الحديث ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: القدرة، فإن قوله (لما خلقت بيدى) لا يصح أن يكون معناه بقدرتى مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس، وأنا أيضاً خلقتنى بقدرتك، فلا فضل له علىَّ بذلك، فإبليس – مع كفره – كان أعرف بربه من الجهمية.

ولا دليل لهم فى قوله تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مّمَّا عَملَتْ أَيْدينا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالكُونَ** ﴾ [يس: ٧١]، لأنه تعالى جمع الأيدى لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة. ولم يقل «أيدى» مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا «يدينا» بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع.. فلم يكن قوله: «مما عملت أيدينا» نظير قوله «لما خلقت بيدى» وقال

---

(١) الحديث رواه البخارى فى باب التوحيد ٢٧، ١٩، ٢٤ ورواه مسلم باب الإيمان ولفظه عند مسلم: «خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك».. رقم ٣٢٢، ٣٢٧ وفى سنن أبى داود – قيامة ١٠ وقدر ٢ وهو جزء من حديث طويل.

النبى – ﷺ عن ربه عز وجل : « حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلقه »[1]..

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزأ سبحانه وتعالى، والأعضاء فيه معنى التفريق والتعضية[2] تعالى الله عن ذلك. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾ [الحجر: ٩١]. والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع وكذلك الأدوات هى الآلات التى ينتفع بها فى جلب المنفعة ودفع المضرة.

وكل هذه المعانى منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها فى صفات الله تعالى. فالألفاظ الشرعية صحيحة المعانى، سالمة من الاحتمالات الفاسدة فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت معنى فاسد، أو ينفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق المبطل. وأما لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً، والله تعالى لا يحصره شىء ولا يحيط به شىء من المخلوقات، تعالى الله عن ذلك، وإن أريد بالجهة أمر عدمى، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده.

فإن قيل: إنه فى جهة بهذا الاعتبار، فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عال عليه ونفاة لفظ « الجهة » الذين يريدون بذلك نفى العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات، وأن من قال إنه فى جهة يلزمه القول بقدم شىء من العالم وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها.

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى الإيمان ٢٩٣، ٢٩٤ ورواه ابن ماجه فى المقدمة ١٣ ولفظه عند مسلم: « قام فينا رسول الله – ﷺ – بخمس كلمات فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور (وفى رواية النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »..

(٢) التعضية: من عضوته أى فرقته « الذين جعلوا القرآن عضين » لأن المشركين فرقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً.

وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس فى شيء، من المخلوقات، سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، ولكن الجهة، ليست أمراً وجودياً، بل أمر اعتبارى، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لايوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ رحمه الله: لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، بل هو محيط بكل شيء وفوقه وهذا المعنى هو الذى أراده الشيخ رحمه الله، لما يأتى فى كلامه: أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه. فإذا جمع بين كلامه، وهو قوله: لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات، وقوله: محيط بكل شيء وفوقه – علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء، ولا يحيط به شيء كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء العالى عن كل شيء.

لكن بقى فى كلامه شيئان: أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال – كان تركه أولى، وإلا تسلط عليه، وألزم بالتناقض فى إثبات الإحاطة والفوقية ونفى جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم، من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الثانى: أن قوله كسائر المبتدعات – يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوى، وفى هذا نظر، فإنه إن أراد أنه محوى بأمر وجودى فممنوع، فإن العالم ليس فى عالم آخر، وإلا لزم التسلسل، وإن أراد أمراً عدمياً فليس كل مبتدع فى العدم، بل منها ما هو داخل فى غيره، كالسموات والأرض فى الكرسى، ونحو ذلك، ومنها ما هو منتهى المخلوقات كالعرش، فسطح العالم ليس فى غيره من المخلوقات، قطعاً للتسلسل، كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال، بأن: «سائر» بمعنى البقية، لا بمعنى، الجميع، هذا أصل معناها ومنه «السؤر» وهو ما يبقيه الشارب فى الإناء فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها، إذ «السائر» على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى: أن الله تعالى غير محوى كما يكون أكثر المخلوقات محوياً، بل هو غير محوى بشيء، تعالى الله عن ذلك.

ولا نظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفى التعيين كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده: أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن يكون مفتقراً إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفى ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبى حنيفة – رضى الله عنه – نظر، فإن

أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به. وقد نقل أبو مطيع البلخي[1] عنه إثبات العلو، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظراً، وأن الأولى التوقف في إطلاقه فإن الكلام بمثله خطر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع، كالاستواء والنزول ونحو ذلك.

ومن ظن من الجهال أنه إذا «نزل إلى سماء الدنيا» كما أخبر الصادق – ﷺ – يكون العرش فوقه، ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم فقوله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسنة.

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني[2]: سمعت الأستاذ أبا منصور بن حماد – بعد روايته حديث النزول – يقول: سئل أبو حنيفة – رضي الله عنه فقال: ينزل بلا كيف. انتهى.

وإنما توقف من توقف في نفي ذلك، لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش بل يقول: لا مباين ولا مجانب، ولا داخل العالم ولا خارجه فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش، ويقول بعضهم بحلوله في كل موجود، أو يقول هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

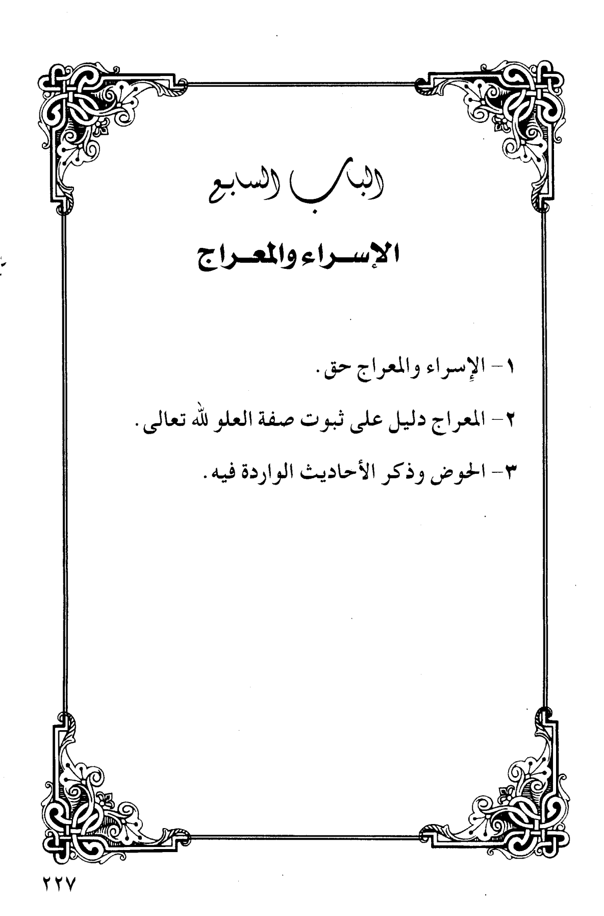
وسيأتي لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان، عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله: محيط بكل شيء وفوقه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) اسمه الحكم بن عبد الله أبو مطيع البلخي الفقيه، صاحب أبي حنيفة، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال «إنه واهٍ في ضبط الأثر».

وأشار إليه خليفة بن خياط في الطبقات، في الطبقة الخامسة من الفقهاء (الطبقات لخليفة بن خياط ص٣٢٤).

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني وهو شيخ الإسلام الخطيب الواعظ أوحد وقته في طريقته وكان أكثر أهل العصر من المشايخ سماعاً وحفظاً ونشراً لمسموعاته وكان شاعراً فصيحاً واسع العلم عارفاً بالحديث، جيد العربية والفارسية وله كتاب «عقيدة السلف» والفصول في الأصول. توفي سنة ٤٤٩هـ (طبقات الشافعية ٣: ١١٧).



الباب السابع

الإسراء والمعراج

١- الإسراء والمعراج حق.

٢- المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى.

٣- الحوض وذكر الأحاديث الواردة فيه.

الإسراء والمعراج حق

قوله: (والمعراج حق، وقد أسرى بالنبى - ﷺ - وعرض بشخصه فى اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى. فصلى الله عليه وسلم فى الآخرة والأولى).

ش: المعراج: مفعال من العروج، أى الآلة التى يعرج فيها، أى يصعد، وهو بمنزلة السلم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: وقد أسرى بالنبى - ﷺ وعرج بشخصه فى اليقظة - اختلف الناس فى الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يُفقد جسده، نقله ابن إسحاق[١] عن عائشة ومعاوية[٢] - رضى الله عنهما - ونقل عن الحسن البصري[٣] نحوه. لكن ينبغى أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، فعائشة ومعاوية - رضى الله عنهما - لم يقولا كان مناماً، وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين: أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم فى الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء، وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار من أقدم مؤرخى العرب من أهل المدينة له السيرة النبوية هذبها ابن هشام، وكان قدرياً ومن حفاظ الحديث زار الاسكندرية سنة ١١٩هـ وسكن بغداد فمات فيها سنة ١٥١هـ. (تهذيب التهذيب ٩: ٣٨).

(٢) سقط من ب: معاوية.

(٣) الحسن البصرى: أبو سعيد تابعى، كان إمام البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك ولد بالمدينة ٢١هـ وشب فى كنف على بن أبى طالب واستكتبه الربيع بن رياد والى خراسان فى عهد معاوية وسكن البصرة، له مع الحجاج ابن يوسف مواقف توفى بالبصرة ١١٠هـ (تهذيب التهذيب).

الرؤيا ضرب له المثال . . فما أرادا[1] أن الإسراء مناماً، وإنما أرادا أن الروح ذاتها أسرى بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت .

وقيل : كان الإسراء مرتين، مرة يقظة ومرة مناماً، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » وبين سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين، مرة قبل الوحى، ومرة بعده . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحى ومرتين بعده . وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق؟ وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذى عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة قبل الهجرة بسنة وقيل : بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر[2]، قال شمس الدين ابن القيم[3] « يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً . كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً فيقول : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى »[4] ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس! وقد غلط الحفاظ شريكاً فى ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال : « فقدم وأخر وزاد ونقص » ولم يرد الحديث . . وأجاد رحمه الله . انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله .

وكان من حديث الإسراء : أنه – ﷺ – أسرى بجسده فى اليقظة على

---

(١) يعنى : عائشة ومعاوية .

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى المالكى، أبو عمر من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب، بحاثة يقال له : حافظ المغرب ولد بقرطبة ٣٦٨هـ ورحل رحلات طويلة فى غربى الأندلس وشرقها وولى قضاء لشبونة، وتوفى بشاطبة سنة ٤٦٣هـ. (وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٨) .

(٣) محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى أبو عبد الله شمس الدين، أركان الإصلاح الإسلامى، وأحد كبار العلماء ولد سنة ٦٩١هـ فى دمشق تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شىء من أقوله، بل ينتصر له فى جميع ما يصدر عنه وهو الذى هذب كتبه ونشر علمه وسجن معه فى قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه من كتبه أعلام الموقعين، والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية وغير ذلك كثيراً توفى سنة ٧٥١هـ. (الدرر الكامنة ٣ : ٤٠٠) .

(٤) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق ٦ ومناقب الأنصار ٤٢ ورواه النسائى فى الصلاة ١ وأحمد بن حنبل فى المسند ٤ – ٢٤، ٢٠٨، ٢١٠، وفى البخارى بزيادة وأجزى الحسنة عشراً .

الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً على البراق، صحبه جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد.
وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة، ثم عرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، فلقيهما فسلم عليهما فردا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع إلى البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال بخمسين صلاة فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن: نعم إن شئت فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه - هذا لفظ البخارى فى صحيحه وفى بعض الطرق - فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر على موسى فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحيت من ربى، ولكن أرضى وأسلم، فلما نفد، نادى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى[1].

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث. وقلنا: فى البخارى بزيادة: وأجزى بالحسنة عشراً، وعند النسائى أجزى بالحسنة عشر أمثالها.

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة فى رؤيته – ﷺ – ربه عز وجل بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ [النجم: ١١] ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١٣]. صح عن النبى – ﷺ – أن هذا المرئى جبرائيل، رآه مرتين على صورته التى خلق عليها، وأما قوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدنو التدلى المذكورين فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود – رضى الله عنهما – فإنه قال: ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ [النجم: ٥ – ٨]. فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وأما الدنو والتدلى الذى فى حديث «الإسراء: فذلك صريح فى أنه دنو الرب تعالى وتدليه.

وأما الذى فى سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، فهذا جبرائيل رآه مرتين مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

ومما يدل على أن الإسراء بجسده فى اليقظة قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء: ١].

والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدى إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس أولاً.؟ فالجواب – والله أعلم – أن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول – ﷺ – المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التى مر عليها فى طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن إطلاعهم على مافى السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته.

وفى حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره، وبالله التوفيق.

ذكر الحوض وإكرام الله تعالى لرسوله به

قوله: (والحوض الذى أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته - حق)

ش: الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير[١]، تغمده الله برحمته، فى آخر تاريخه الكبير المسمى بـ «البداية والنهاية»[٢]. فمنها ما رواه البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن قدر حوضى كما بين أَيْلَةَ إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»[٣] وعنه أيضاً عن النبى - ﷺ قال: «ليردنَّ علىَّ ناس من أصحابى، حتى إذا عرفتهم اختلجُو دُونى، فأقول: أصحابى، فيقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك»[٤] رواه مسلم وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: أغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءه، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلتْ علىَّ آنفاً سورةٌ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿**إنا أعطنا الكوثر**﴾. حتى ختمها، ثم قال لهم: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: هو نهرٌ أعْطانيه ربى عزَّ وجل فى الجنة عليه خيرٌ كثير، تَرد عليه أمتى يومَ القيامة، آنيتهُ الكواكب، يختلجُ العبدُ منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتى، فيقولُ لى: إنك

---

(١) عماد الدين ابن كثير: الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، البصرى ثم الدمشقى، الفقيه الشافعى ولد سنة ٧٠٠ هـ وقدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه، كان كثير الاستحضار قليل النسيان، جيد الفهم، كان راوية للحديث ومفسراً ومؤرخاً. ومن مصنفاته كتاب البداية والنهاية، والتفسير، وكتاب فى جمع المسانيد العشرة وغير ذلك، توفى سنة ٧٧٤هـ رحمه الله.

(٢) البداية والنهاية: طبع الكتاب أكثر من طبعة وآخر هذه الطبعات هى التى قام بطبعها الأستاذ أبو الفضل إبراهيم.

(٣) الحديث رواه الترمذى فى القيامة ١٤، ١٥ وأحمد بن حنبل فى المسند ٣ - ٢٢٥، ٢٣٠، ٤ - ١٤٩، ١٥٤، ٥ - ١٤٩ - حلبى.

(٤) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٥٣، وفتن١، ومسلم فى الفضائل ٤٠، وأحمد بن حنبل ٥ - ٤٨، ٥٠ - حلبى.

لا تدرى ما أحدثوا بعدك»[١] ورواه مسلم، ولفظه: «هو نهر وعدنيه ربى، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة» والباقى مثله.

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض فى العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه، ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلى، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «أنا فَرَطكم على الحوض»[٢] والفرط الذى يسبق إلى الماء. وروى البخارى عن سهل بن سعد الأنصارى[٣]، قال: قال رسول الله - ﷺ: «إنى فَرطُكُم على الحوض، من مرّ علىَّ شربَ، ومن شربَ لم يظمأْ أبداً، ليردنَّ علىَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوننى ثم يُحال بينى وبينهَم»[٤]. قال أبو حازم: فسمعنى النعمان بن أبى عياش[٥] فقال هكذا سمعت من سهل... فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبى سعيد الخدرى، سمعته وهو يزيد: «فأقول: إنهم أمتى فقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك. فقال: سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدى». سحقاً: أى بعداً.

---

(١) الحديث رواه البخارى ٨ - ٥٦٢، و٥٦٣، فى نفس سورة إنا أعطيناك الكوثر وفى الرقاق، باب الحوض ورواه مسلم رقم ٤٠٠ فى الصلاة ولم يذكر «آنيته عدد النجوم» والترمذى رقم ٣٣٥٧ فى التفسير وفيه: إذ عرض لى نهر حافتاه قباب اللؤلؤ، قلت للملك ما هذا؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاكه الله قال: ثم ضرب بيده إلى طينه فاستخرج لى مسكاً، وأبو داود رقم ٤٧٤٧، ٤٨٤٨، فى السنة مثل رواية مسلم إلى قوله: عليه خير كثير.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى الفتن ٥ والزهد رقم ٣٦ ورواه النسائى فى الطهارة ١٠٩، وأحمد بن حنبل ٣- ٣٤٥، ٣٨٤، ورواه مسلم فى الطهارة ٣٩ والإمارة ١٠ وفضائل ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٢، ٤٤، ٤٥.

(٣) سهل بن سعد الخزرجى الأنصارى، من بنى ساعدة. صحابى من مشاهيرهم، من أهل المدينة، عاش نحو مئة سنة، له فى كتب الحديث ١٨٨ حديثاً (الوفيات ١: ٢١٨).

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا - ﷺ - وصفاته رقم ٢٦ ورقم ٣٢ وفيه «ولأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم» ورواه ابن ماجه فى الفتن رقم ٢٩٤٤ وفيه: وإنى مكاثر بكم الأمم فلا تقتلن بعدى، وأحمد بن حنبل ١ - ٢٥٧، ٣٨٤.

(٥) النعمان بن عياش الأنصارى أبو سلمة المدنى روى عن أبى سعيد الخدرى، وابن عمر وجابر، وعنه ابن سعيد الأنصارى وسهل بن أبى صالح، وأبو حازم سلمة بن دينار وغيرهم قال إسحاق ابن منصور عن يحيى بن معين: ثقة ذكره ابن حبان فى الثقات. (تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٤٥٥).

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض: أنه حوض عظيم ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر، الذى هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك وهو فى غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفى بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع وأنه ينبت فى خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر ألوان الجواهر. فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شىء.

وقد ورد فى أحاديث «أن لكل نبى حوضاً، وأن حوض نبينا – ﷺ – أعظمهما وأحلاها وأكثرها وارداً. جعلنا الله منهم بفضله وكرمه»[1]. قال العلامة أبو عبد الله القرطبى[2] – رحمه الله – فى «التذكرة»[3]: واختلف فى الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر..؟ فقيل: الميزان، وقيل الحوض قال: أبو الحسن ابن القابسى[4]: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبى: والمعنى

---

(١) قال الشيخ الألبانى: ضعيف وحديث حوض نبينا – ﷺ – له طرق كثيرة متواترة، ولم أجد فى شىء منها «إن لكل نبى حوضاً» اللهم إلا فى حديث سمرة بن جندب أخرجه الترمذى ٢ – ٦٧ طبع الهند، وصفه بقوله (غريب) ثم ذكر أنه ورد مرسلاً وقال: وهو أصح، ورواه الطبرانى أيضاً كما فى المجمع ١٠ – ٣٦٣ وقال فيه مروان بن جعفر السمرى وثقة ابن أبى حاتم وقال الأزدى يتكلمون فيه وبقية رجاله ثقات.

(٢) القرطبى: هو محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى أبو عبد الله القرطبى من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب فى شمالى أسيوط – بمصر، وتوفى بها عام ٦٧١هـ من كتبه «الجامع لأحكام القرآن». «والتذكار فى أفضل الأذكار» و«التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» وغير ذلك. نفح الطيب ١: ٤٢٨.

(٣) التذكرة للإمام القرطبى – طبعت أكثر من مرة فى مجلدين وقد اختصرها عبد الوهاب الشعرانى وطبع المختصر أيضاً.

(٤) هو على بن محمد بن خلف المعافرى الشيروانى أبو الحسن ابن القابسى عالم المالكية بإفريقيا فى عصره. كان حافظاً للحديث وعلله ورجاله فقيهاً أصوليا من أهل القيروان رحل إلى المشرق سنة ٣٥٢ وعاد إلى القيروان ٣٥٧ وتولى الفتيا مكرهاً وتوفى بها عام ٤٠٣هـ له تصانيف منها «المنهد» فى الفقه والمنقذ من شبهة التأويل، وملخص الموطأ وغير ذلك، (وفيات الأعيان ١: ٣٢٩).

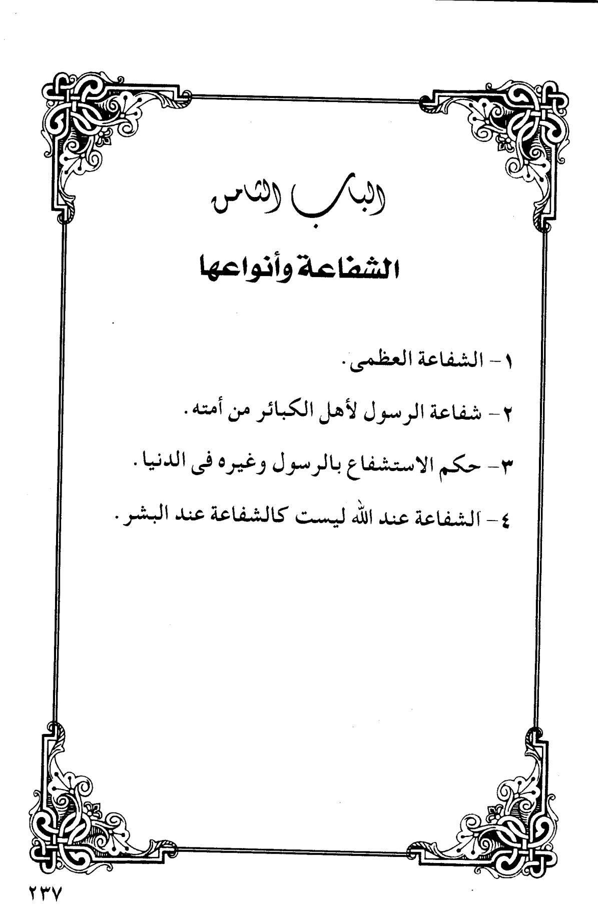
يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط. قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب كشف علم الآخرة: حكى بعض السلف من أهل التصنيف، أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله.

قال القرطبى: هو كما قال: ثم قال القرطبى: ولا يخطر ببالك أنه فى هذه الأرض، بل فى الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء. انتهى.

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

* * *





الباب الثامن

الشفاعة وأنواعها

١ - الشفاعة العظمى .

٢ - شفاعة الرسول لأهل الكبائر من أمته .

٣ - حكم الاستشفاع بالرسول وغيره فى الدنيا .

٤ - الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر .

الشفاعة وأنواعها

قوله : (الشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما روى في الأخبار) .

ش : الشفاعة أنواع : منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع .

النوع الأول : الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا – ﷺ – من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين . في : الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة .

منهـا : عن أبي هريرة – رضي الله عنه، قال : «أُتيَ رسولُ الله – ﷺ – بلحم، فدفعَ إليه منها الذِّراع، وكانت تعجبُه، فنهسَ نهسةً ثم قال : أنا سيدُ الناسِ يوم القيامة، وهل تدرون لِمَ ذلك . . ؟ يجمعُ الله الأوَّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فيقولُ بعضُ الناس لبعضٍ : ألا ترون إلى ما أنتمْ فيه . . ؟ ألا ترون إلى ما قد بلغَكم . . ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربِّكم . . ؟ فيقول بعضُ الناس لبعض : أبوكم آدم، فيأتون آدمَ فيقولون : يا آدم، أنتَ أبو البشر[1]، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من رَوْحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفعْ لنا إلى ربِّك ألا ترى إلى ما نحن فيه . . ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدمُ : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضب بعدَه مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتهُ، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون : يا نوحُ، أنت أولُ الرسلِ إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوحٌ : إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى

---

(١) في ب : رب البشر .

غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض ألا ترى إلى ما نحنُ فيه.؟ ألا ترى ما قد بلغنا فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَه مثلَه، ولن يغضب بعده مثلَه، وذكر كذباته نفسى نفسى، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى: فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناسِ، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه..؟ ألا ترى ما قد بلغنا..؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثله، ولنْ يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنى قتلتُ نفساً لم أؤمرْ بقتلها، نفسى نفسى، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، قال: هكذا هو، وكلَّمت الناسَ فى المهد، فاشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه.؟ ألا ترى ما قد بلغنا..؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضبَ اليوم غضباً لم يغضبْ قبلَه مثله، ولن يغضب بعدَه مثلَه، ولم يذكرْ له ذنباً اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمدٍ رسول الله ﷺ، فيأتونى، فيقولون: يا محمدُ أنت رسولُ الله وخاتَمُ الأنبياء، غفر اللهُ لك ذنبكَ، ما تقدمَ منه وما تأخرَ فاشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه..؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتى تحت العرشِ، فأَقع ساجداً لربى عز وجل، ثم يفتحُ اللهُ علىَّ ويلهمنى من محامدة وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحْه على أحدٍ قبلى، فيقال: يا محمدُ ارفعْ رأسَك، سلْ تعطَ، اشفع تشفَّعْ، فأقول: يارب أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى، فيقول: أدخلْ من أمتك من لا حساب عليه من البابِ الأيمن من أبواب الجنةِ، وهم شركاءُ الناس فيما سواه من الأبواب ثم قال: والذى نفسى بيده، لما بين المِصْراعَيْن مِنْ مَصَارِعِ الجنةِ كما بين مكة وَهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى»(١).

أخرجاه فى «الصحيحين» بمعناه، واللفظ للإمام أحمد.

والعجب كل العجب، من إبراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير ١٧، ومسلم فى الإيمان ٣٢٧ والزهد ١٤ والترمذى فى القيامة ١٠ وأحمد بن حنبل فى مسنده ٢ – ٤٣٦، ٢٩٣، ٤ – ١٧٤، ٥ – ٣.

يذكرون أمر الشفاعة الأولى، فى مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد فى حديث الصور، فإنه المقصود فى هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث: فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء فى أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة فى عصاة الأمة وإخراجهم من النار

وكان مقصود السلف - فى الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها فيذكرون هذا القدر من الحديث الذى فيه النص الصريح فى الرد عليهم، فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن مضمونه: أنهم يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى، ثم يأتون رسو ل الله - محمداً ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش فى مكان يقال له الفحص، فيقول الله: ما شأنك..؟ وهو أعلمْ، قال رسول الله ﷺ، فاقول: يارب وعدتنى الشفاعة فشفعْنى فى خلقك، فاقض بينهم فيقولُ سبحانه وتعالى: شفعتُك أنا آتيكم فاقضى بينهم، قال فأرجع فاقف مع الناس، ثم ذكر انشقاقَ السموات وتنزلَ الملائكة فى الغمام ثم يجيءُ الربُّ سبحانه وتعالى لفصل القضاء والكروبيونَ والملائكة المقربونَ يسبحون بأنواع التسبيح قال: فيضع الله كرسيَّه حيث شاء من أرضه ثم يقول: إنى أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم وأرى أعمالكم فانصتوا إلىَّ، فإنما هى أعمالُكم وصُحفُكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، إلى أن قال: فإذا أفضى أهلُ الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربِّنا فندخل الجنة فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلاً، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً - ﷺ - إلى أن قال: قال رسولُ - ﷺ -: «فآتى الجنةَ، فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح فيفتح لى، فأحيَّا ويرحب بى، فإذا دخلتُ الجنةَ فنظرتُ إلى ربى عز وجل خررت له ساجداً، فيأذن لى من حمده وتمجيده بشىءٍ ما أذن به لأحد من خلقه، ثم

يقول الله لي : ارفعْ يا محمدُ، واشفعْ تشفَّعْ وسَلْ تعطَهْ، فإذا رفعتُ رأسي، قال الله – وهو أعلم – ما شأنُك .؟ فأقول : يا ربِّ، وعدتني الشفاعةَ، فشفِّعْني في أهل الجنة يدخلون الجنةَ، فيقول الله عز وجل : قد شفعتُك، وأذنتُ لهم في دخولَ الجنة »[1] الحديث .

رواه الأئمة : ابن جرير في تفسيره، والطبراني، وأبو يعلى[2] الموصلي، والبيهقي[3] وغيرهم .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته – ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها .

النوع الرابع : شفاعته – ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه أعمالهم . وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عُكاشة بن محصن[4]، حين دعا له رسول الله

---

(١) قال الشيخ الألباني : ضعيف، أخرجه ابن جرير في تفسيره، كما ذكر الشارح ٢ – ٣٣٠ – ٣٣١، ٢٤ – ٣٠، ١٨٦ – ١٨٧ . من حديث أبي هريرة مرفوعاً وإسناده ضعيف لأنه من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد وكليهما ضعيف بسندهم عن رجل من الأنصار وهو مجهول لم يسم، وقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ١– ٢٤٨، ٤– ٦٣ أنه حديث مشهور، لا يستلزم صحته كما لا يخفى على أهل العلم .

(٢) أبو يعلى : هو أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، أبو يعلى . حافظ من علماء الحديث . ثقة مشهور . نعته الذهبي بأنه محدث الموصل . عمر طويلاً حتى ناهز المئة وتوفي بالموصل ٣٠٧هـ له كتب منها المعجم في الحديث، ومسندان أحدهما صغير والآخر كبير أحدهما مخطوط في ١٨٢٦ صفحة أربعة مجلدات في الآصفية والسندية . (تذكرة النوادر ص٣٩) .

(٣) البيهقي : هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر من أئمة الحديث ولد في خسر وجرد من قرى بيهق بنيسابور عام ٣٨٤ ورحل إلى بغداد والكوفة ومكة قال إمام الحرمين مامن شافعي إلا والشافعي له فضل عليه غير البيهقي وقال الذهبي : لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً فيه لكان قادرا . . من مؤلفاته : السنن الكبرى والسنن الصغرى والأسماء والصفات وغير ذلك توفي سنة ٤٥٨ هـ . (شذرات الذهب ٣ : ٣٠٤) .

(٤) هو عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة . قتل في حرب الردة ببزاخة « بأرض نجد » قتله طليحة الأسدي عام ١٢هـ .

ﷺ – أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[1]، والحديث مخرج فى الصحيحين

النوع السادس: الشفاعة فى تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته فى عمه أبى طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبى فى التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال الله تعالى ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر: ٤٨]. قيل له: لا تنفعه فى الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة، كما تقدم. وفى «صحيح مسلم» عن أنس – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ قال: «أنا أول شفيع فى الجنة»[2].

شفاعة الرسول لأهل الكبائر من أمته

النوع الثامن: شفاعته فى أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفى علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا فى ذلك، جهلاً منهم بصحة الأحاديث وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته. وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً. وهذه الشفاعة تتكرر منه – ﷺ أربع مرات ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»[3]. رواه الإمام أحمد رحمه الله.

وروى البخارى رحمه الله فى كتاب «التوحيد»[4] حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزى، قال: اجتمعنا ناس

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٥٠ واللباس ١٨ ورواه مسلم فى الإيمان ٢٦٧، ٢٦٩ والترمذى فى القيامة ١٦ وأحمد بن حنبل جـ ١، ٢٧١، ٤٠١.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم فى الإيمان ٣٣٢ ورواه أحمد بن حنبل المسند ٣ – ١٤٠.

(٣) الحديث رواه أبو داود فى السنة ٣١، والترمذى فى القيامة ١١ وابن ماجه فى الزهد ٣٧ وأحمد بن حنبل ٣ – ٢١٣

(٤) فى باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم جـ ٩ ص ١٥٦.

من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البنانى إليه، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو فى قصره، فوافقناه يصلى الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة فقال: حدثنا محمد - ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم فى بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك. فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد - ﷺ، فيأتونى فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربى فيؤذن لى، ويلهمنى محامد أحمده بها، لا تحضرنى الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع وسل تعط، فأقول يارب يارب أمتى أمتى، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثمَّ أخر له ساجداً، فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يارب أمتى أمتى، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمتى أمتى فيقول: انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل»[1].

قال: فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن، وهو متوار فى منزل أبى خليفة[2]، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ١٩، ٢٤، ٣٦، ورواه مسلم فى الإيمان ٣٢٢، ٣٢٧ ورواه الترمذى فى التفسير سورة ١٧ وابن ماجه فى الزهد ٣٧ والدارمى فى المقدمة ٨، وأحمد بن حنبل فى المسند ١ - ٥، ٢٨٢.

(٢) هو حجاج بن عتاب العبدى البصرى، والد عمر بن أبى خليفة، سماه البخارى فى تاريخه وتبعه الحاكم أبو أحمد فى الكنى. (فتح البارى جـ١٣ ص ٤٧٦)..

فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا فى الصفاعة، فقال: هيه..؟ فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه؟ فقلنا لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثنى وهو جميع، منذ عشرين سنة فما أدرى، أنسى أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثنى كما حدثكم به، قال: ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفَع رأسَك، وقل يُسمعْ، وسَلْ تعْطَهْ، واشْفعْ تشفَع، فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتى وجلالى، وكبريائى وعظمتى لأخرجَنَّ منها من قال: لا إله إلا الله[1].

وهكذا رواه مسلم وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ: «يشفعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ، ثم العلماءُ، ثم الشهداءُ»[2]. وفى الصحيح من حديث أبى سَعيد رضى الله عنه مرفوعاً قال: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبييون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحمُ الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قَط»[3] الحديث.

ثم إن الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة فى المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة فى الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره فى أهل الكبائر. وأما أهل

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان رقم ٣٢٦ ورواه البخارى فى كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم رقم ٧٥١٠.

(٢) قال الشيخ الألبانى موضوع، رواه ابن ماجه ٤٣١٣ والعقيلى فى الضعفاء ص ٣٣١ فى ترجمته عنبسة بن عبد الرحمن القرشى وقال: «لا يتابع عليه» وروى البخارى أنه قال: تركوه. وقال أبو حاتم: كان يضع الحديث.

(٣) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٢٤، وأحمد بن حنبل فى المسند ٣ – ٩٤ وذكره الإمام مسلم فى حديث طويل فى الإيمان رقم ٣٠٢ وعند البخارى فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار: «بقيت شفاعتى فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا فيلقون فى نهر بأفواه الجنة. إلخ».

السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا – ﷺ – في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة: «إنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فاذهب، فإذا رأيت ربى خررت له ساجداً، فأحمد ربى بمحامد يفتحها على، لا أحسنها الآن، فيقول: أى محمد، ارفع رأسك وقل يسمع، واشفع تشفع فأقول: ربى أمتى فيحدُ لى حداً فادخلهم الجنة ثم أنطلق، فأسجد، فيحد لى حداً» ذكرها ثلاث مرات.

حكم الاستشفاع بالرسول وغيره فى الدنيا

وأما الاستشفاع بالنبى – ﷺ – وغيره فى الدنيا إلى الله تعالى فى الدعاء ففيه تفصيل: فإن الداعى تارة يقول: بحق نبيك، أو بحق فلان يقسم على الله بأحد من مخلوقاته فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله. والثانى اعتقاده أن لا لأحد على لله حقاً. ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت فى الصحيحين من قوله ﷺ – لمعاذ – رضى الله عنه – وهو رديفه: «يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حق العباد على الله إذ فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسولهُ أعلم، قال: حقهم عليه أن لا يعذِّبهم»[١]

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ١، ورواه مسلم فى الإيمان ٤٨ ورواه ابن ماجه فى الزهد ٣٥، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند ٢ – ٣٠٩، ٥٢٥، ٥٣٥.

الله سبباً. وكذلك الحديث الذى فى المسند من حديث أبى سعيد عن النبى - ﷺ - فى قول الماشى إلى الصلاة: «أسألكَ بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك»[1]. فهذا حق السائلين، وهو أوجبه على نفسه فهو الذى أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حقٌ واجب ... كلا ولا سعىٌ لديه ضائعُ

إن عُذِّبوا فبعدله، أو نعِّموا ... فبفضله وهو الكريم السامع

فإن قيل: فأى فرق بين قول الداعى: «بحق السائلين عليك» وبين قوله «بحق نبيك». أو نحو ذلك فالجواب: إن معنى قوله: «بحق السائلين عليك» أنك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائى، بخلاف قوله: بحق فلان - فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق - فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاى، وأى مناسبة فى هذا وأى ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء فى الدعاء.. وقد قال تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبى - ﷺ - ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة - رضى الله عنهم - وإنما يوجد مثل هذا فى الحروز والهياكل التى يكتب بها الجهال والطرقية. والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع.

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضاً لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟ وقد قال - ﷺ - «من حلف بغير الله فقد أشرك»[2]. ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه - رضى الله عنهم: يكره أن يقول

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى المساجد ١٤ وأحمد بن حنبل ٣ - ٢١ ولفظه عند ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله - ﷺ -: من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاى هذا فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك... أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك.

(٢) الحديث رواه الترمذى فى النذور ٩٨ والنسائى فى الإيمان ٤ وابن ماجه فى الكفارات، والدارمى فى النذور ٦ وأحمد بن حنبل فى المسند ١ - ٤٧، ٢ - ٢٤، ٦٧.

الداعي: أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلك، حتى كره أبو حنيفة ومحمد - رضى الله عنهما - أن يقول الرجل: اللهم إنى أسألك بمَعْقَد العزِّ من عرشك، ولم يكره أبو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه. وتارة يقول: بجاه فلان عندك، أو يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك. ومراده أن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا، وهذا أيضاً محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذى كان الصحابة يفعلونه فى حياة النبى - ﷺ - لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون فى حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمنون على دعائه، كما فى الاستسقاء وغيره، فلما مات - ﷺ قال عمر - رضى الله عنه - لما خرجوا يستسقون «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقنا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا». معناه بدعائه هو ربه شفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً كان جاه النبى - ﷺ - أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعى لرسولك ومحبتى له وإيمانى به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقى لهم، ونحو ذلك، فهذا من أحسن ما يكون فى الدعاء والتوسل والاستشفاع..

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا فى حياته يكون، أو لكون الداعى محباً له مطيعاً لأمره، مقتدياً به وذلك أهل المحبة والطاعة والاقتداء فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثانى هو الذى كرهوه ونهو عنه.. وكذلك السؤال بالشىء، قد يراد به التسبب به لكونه سبباً فى حصول المطلوب وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك

فافرجْ عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1]. فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه ويسأل به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله..

الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عن البشر

فالحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع «للطالب شفعة» فى الطلب، بمعنى أنه صار شفاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه بشفاعته صار فاعلاً للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب منه والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عند أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه.

فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: «ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع» فيحد له حداً فيدخلهم الجنة، فالأمر كله لله كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للَّه**﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وقل تعالى ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإذا كان لا يشقع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال - ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاءُ»[2]. وفى الصحيح: أن النبى - ﷺ - قال: «يا بنى عبد مناف، لا أملك لكم من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله - ﷺ - لا أملك لك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أملك لك من الله شيئاً»[3].. وفى الصحيح أيضاً عن

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد جـ٣ ص ١١٦ ورواه البخارى فى الأدب ٥، حرث ١٣ والبيوع ٩٨ والإجارة ١٢، ورواه مسلم فى الذكر رقم ١٠٠.

(٢) الحديث رواه النسائى فى الزكاة ٦٥..

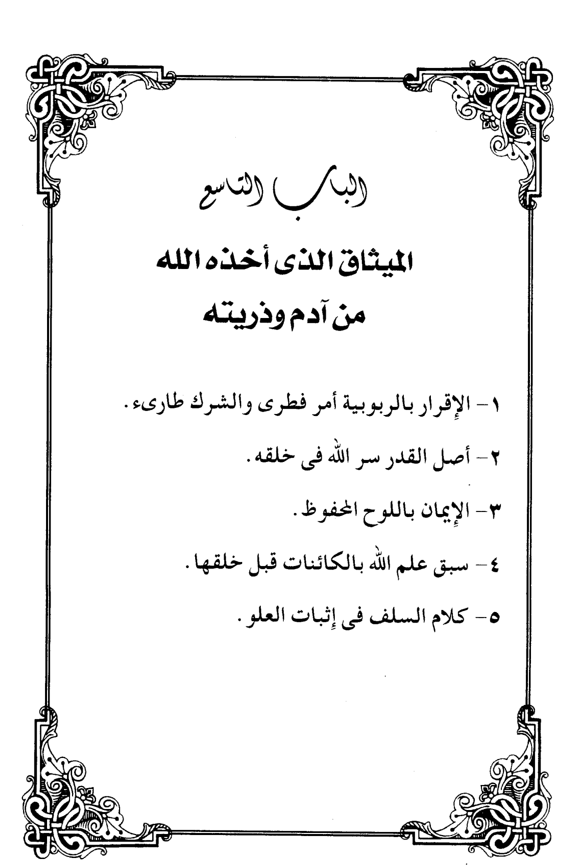
(٣) الحديث رواه البخارى فى الوصايا ١١ وتفسير سورة ٣٦ والمناقب ١٣، ورواه مسلم فى الإيمان ٣٥١، والنسائى فى الوصايا ٦ والدارمى فى الرفاق ٢٣ ولفظه عند البخارى يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً إلخ.

النبى - ﷺ - «لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء أو شاة لها ثغاء، أو تخفق فيقول: أغثنى أغثنى فأقول: قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شىء»[1] فإذا كان سيد الخلق وأفضل. الشفعاء يقول لأخص الناس به «لا أملك لكم من الله من شىء فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعى وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق فى المخلوق، فإنه سبحانه وتعالى هو الذى جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذ ى وفقه للدعاء ثم أجابه وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شىء.

* * *

(١) الحديث رواه البخارى حيل ١٥ والجهاد ١٨٩ والإيمان ٣ وأحكام ٣، ورواه مسلم فى الإمارة ٢٤، ٢٦، ٢٨، وأبو داود فى الإمارة ١١، ١٢ والنسائى فى الزكاة ٦٦ وأحمد ابن حنبل ٣ - ٤٢٦، ٥ - ٢٢٧.





الباب التاسع

الميثاق الذى أخذه الله من آدم وذريته

١- الإقرار بالربوبية أمر فطرى والشرك طارىء.

٢- أصل القدر سر الله فى خلقه.

٣- الإيمان باللوح المحفوظ.

٤- سبق علم الله بالكائنات قبل خلقها.

٥- كلام السلف فى إثبات العلو.

الميثاق الذى أخذه الله من آدم وذريته

قوله : (والميثاق الذى أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق) .

ش : قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . أخبر[١] سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين علي أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو . وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفى بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم .

فمنها : ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى – ﷺ – قال : « إن الله أخذ الميثاقَ من ظهر آدمَ عليه السلام بنعمان يوم عرفه فأَخرجَ من صلبه كلَّ ذرية ذرأها . فنشرها بين يديْه، ثم كلمهم قبلاً قال : ألست بربِّكم؟ قالوا : بلى شهدْنا . . إلى قوله : المبطلون »[٢] . ورواه النسائى أيضاً، وابن جرير، وابن أبى حاتم والحاكم فى « المستدرك » وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه سئل عن هذه الآية، فقال : سمعت رسول الله – ﷺ سئل عنها فقال : « إن اللهَ خلق ادم عليه السلام، ثم مسح ظهرَه بيمينه فاستخرج منه ذريةً، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسحَ ظهره، فاستخرج منه ذريةً قال : خلقتُ هؤلاء للنار وبعملِ أهل النار يعملون، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل . . ؟ قال رسول الله – ﷺ – إن الله عزَّ وجل إذا خلقَ العبَد للجنة استعمله

---

(١) فى ب : يخبر .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ١ – ٢٧٢ . وقال الشيخ أحمد شاكر هو فى المسند بتحقيقنا : ٢٤٥٥ – تفسير الطبرى ٩ : ٧٥ – ٧٦ (طبعه بولاق) ومجمع الزوائد ٧ : ١٨٨ – ١٨٩ ، ونقله ابن كثير فى التفسير ٣ : ٥٨٤ – ٥٨٥ ، وفى التاريخ ١ : ٩٠ .

بعمل أهل الجنة حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهلِ الجنة، فيدخل به الجنةَ، وإذا خلقَ العبدَ للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النارَ»[1]. رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حاتم وابن جرير وابن حبان فى صحيحه..

وروى الترمذى عن أبى هريرة، قال: رسول الله - ﷺ: «لما خلق الله آدمَ مسح على ظهره، فسقط من ظهره كلُّ نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينيْ كلِّ إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، مَن هؤلاء..؟ قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيصَ ما بين عينَيه فقال: أى ربِّ، من هذا..؟ قال: هذا رجلٌ من آخر الأمم من ذريتك يقال له داودُ، قال: رب، كم عمره..؟ قال: ستون سنةً، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنةً، فلما انقضى عمرُ آدمَ، جاء مَلَكُ الموت، قال: أو لم يبقَ من عمرى أربعون سنةً؟ قال: أو لم تعطها ابنكَ داود؟ قال: فجحد آدم فجحدتْ ذريتُه، ونسى آدم فنسيتْ ذريتُه»[2]. ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال: «يقالُ للرجلِ من أهلِ النارِ يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شئ، أكنتَ مفتدياً به؟ قال: فيقولُ: نعمْ، قال فيقول: قد أردتُ منكَ أهونَ من ذلكَ، قد أخذتُ عليكَ فى ظهر آدمَ أن لا تشركَ بى شيئاً فأبيْتَ إلا أن تشركَ بى شيئاً»[3]. وأخرجاه فى الصحيحين أيضاً. وذكر أحاديث أخرى أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل النار وأهل الجنة، ومن هنا قال من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، وغايتها أن تدل على أن باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدَّر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى السنة ١٦ والترمذى فى التفسير سورة ٧٥ وصاحب الموطأ فى القدر ٢ وأحمد بن حنبل ١ - ٤٥.

(٢) الحديث رواه الترمذى فى التفسير سورة ٧ وأحمد بن حنبل ١ - ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١.

(٣) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ١ والرقاق ٤٩ ومسلم فى المنافقين ٥٢ وأحمد بن حنبل ٣ - ١٢٧، ١٢٩ وعند مسلم يقال للكافر يوم القيامة أرأيت لو كان ملء الأرض ذهباً إلخ.

الصور من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدّر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها فى موضع واحد لم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قال ابن حزم، فهذه لا تدل الآثار عليه، نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة، كما قاله على الوجه الذى سبق به التقدير أولاً، فيجيء الخلق الخارجى مطابقاً للتقدير كشأنه سبحانه فى جميع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيآت، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق.

فالآثار المروية فى ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة. وأما الاشهاد عليهم هناك، فإنما هو فى حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر – رضى الله عنهم. ومن ثم[1] قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة فى حديث أبى هريرة – رضى الله عنه.

ومعنى قوله: (شهدنا) أى قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا. وهذا قول ابن عباس وأبىّ بن كعب[2]. وقال ابن عباس أيضاً أشهد بعضهم على بعض وقيل: « شهدنا » منْ قول الملائكة، والوقف على قوله (بلى). وهذا قول مجاهد والضحاك[3]. وقال السُّدى[4] أيضاً: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته

---

(١) سقط من ب: ثم.

(٢) أبى بن كعب بن قيس بن عبيد من بنى النجارة من الخزرج أبو المنذر صحابى كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة يكتب ويقرأ ولما أسلم كان من كتاب الوحى وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله – ﷺ – وشهد مع عمر وقعة الجابية له فى الصحيحين ١٦٤ حديثاً مات بالمدينة عام ٢١هـ. « طبقات ابن سعد ص٥٩ ».

(٣) الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيبانى بالولاء. البصرى المعروف بالنبيل، شيخ حفاظ الحديث فى عصره له « جزء » فى الحديث ولد بمكة وتحول إلى البصرة فسكنها وتوفى بها. (تهذيب التهذيب ٤ : ٤٥٠).

(٤) السدى: إسماعيل بن عبد الرحمن السدى تابعى. حجازى الأصل: سكن الكوفة قال فيه ابن تعزى بردي: صاحب التفسير والمغازى والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس توفى سنة ١٢٨هـ. (النجوم الزاهرة ١ : ٣٠٨).

أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم والأول أظهر، وماعداه احتمال لا دليل عليه، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول.

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم بما أعادهم كالثعلبى[١] والبغوى[٢] وغيرهما، ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها الله فيهم، كالزمخشرى وغيره ومنهم من ذكر القولين، كالواحدى[٣] والرازى والقرطبى وغيرهم، لكن نسب الرازى القول الأول إلى أهل السنة، والثانى إلى المعتزلة، ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعنى أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهر آدم، والإشهاد عليهم هناك فى بعض الأحاديث، وفى بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، كما فى حديث عمرو - رضى الله عنه - وفى بعضها الأخذ وإراء آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهاد كما فى حديث أبى هريرة، والذى فيه الإشهاد على الصفة التى قالها أهل القول الأول - موقوف على ابن عباس وعمر، وتكلم فيه أهل الحديث ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم فى «المستدرك» على الصحيحن والحاكم معروف التساهل[٤] - رحمه الله.

---

(١) الثعلبى: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى أبو إسحاق: مفسر من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريخ من كتبه عرائس المجالس فى قصص الأنبياء والكشف والبيان فى تفسير القرآن يعرف بتفسير الثعلبى توفى سنة ٤٢٧هـ (ابن خلكان ١ : ٢٣).

(٢) البغوى: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوى، حافظ للحديث من العلماء أصله من بغشور كان محدث العراق فى عصره له معالم التنزيل فى التفسير ومعجم الصحابة وغير ذلك توفى سنة ٣١٧هـ (ميزان الاعتدال: ٢ : ٢٧).

(٣) الواحدى: على بن محمد بن على أبو الحسن الواحدى مفسر عالم بالأدب. نعته الذهبى بإمام علماء التأويل. كان من أولاد النجار أصله من ساوة ومولده ووفاته بنيسابور له البسيط والوسيط والوجيز فى التفسير. شرح ديوان المتنبى وأسباب النزول توفى سنة ٤٦٨هـ (الوفيات ١ : ٣٣٣).

(٤) فى ب: تساهله: قال الشيخ أحمد شاكر: حدثنا عمر وابن عباس صحيحان مرفوعان وتعليلهما بالوقف على ابن عباس وعمر غير سديد كما بينا بذلك فى شرحهما فى المسند.

والذى فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة، وبعضهم إلى النار دليل على مسألة القدر. وذلك شواهده كثيرة، ولا نزاع فيه بين أهل السنة وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون.

وأما الأول: فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة فى ذلك، وما قيل من الكلام عليها وما ذكر فيها من المعانى المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبى: وهذه الآية مشكلة، وقد تكلم العلماء فى تأويلها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه. فقال قوم: معنى الآية: أن الله أخرج من ظهر بنى آدم بعضهم من بعض، ومعنى ﴿ **وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. دلهم على توحيده لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحداً سبحانه وتعالى: قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى فى السموات و الأرض ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١] ذهب إلى هذا القفال[١] وأطنب. وقيل: إنه سبحانه وتعالى أخرج الأرواح قبل خلق الإجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها، ثم ذكر القرطبى بعد ذلك الأحاديث الواردة فى ذلك، إلى آخر كلامه، وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول حديث أنس المخرج فى الصحيحين الذى فيه: «قد أردتُ منكَ ماهو أهونُ من ذلك، قد أخذت عليكَ فى ظَهرِ آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيتَ إلا أن تشرك بى»[٢]. ولكن قد روى من طريق أخرى. قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم

---

(١) القفال: محمد بن على بن إسماعيل الشاشى القفال أبو بكر: من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب من أهل ما وراء النهر، وهو من أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء وعنه انتشر مذهب الشافعى فى بلاده. مولده ووفاته فى الشاش (وراء نهر سيحون) رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام، من كتبه محاسن الشريعة، وشرح رسالة الشافعى، توفى سنة ٣٦٥هـ، (وفيات الأعيان ١: ٤٥٨).

(٢) قال الشيخ الألبانى: هذا الحديث صحيح والذى قبله والرواية الأخرى عند مسلم ٨ - ١٣٤، ١٣٥، وكذا البخارى ٤ - ٢٣٩، ولا منافاة بينها وبين التى قبلها لأن زيادة الثقة مقبولة كما لا يخفى وفى هذا الحديث زيادات أخرى وقد جمعتها فى الحديث وخرجته فى المائة الثانية من «سلسلة» الأحاديث الصحيحة.

تفعل فيرد إلى النار، وليس فيه: فى ظهر آدم. وليس فى الرواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التى ذكرها أصحاب القول الأول.

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين:

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة.

والثانى: أن الآية دلت على ذلك. والآية لا تدل عليه لوجوه:

أحدها أنه قال: «ومن بنى آدم» ولم يقل: من آدم.

الثانى: أنه قال: من ظهورهم ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعض، أو بدل اشتمال وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: «ذرياتهم» ولم يقل ذريته.

الرابع: أنه قال: «وأشهدهم على أنفسهم» ولابد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار – كما تأتى الإشارة إلى ذلك – لا يذكر شهادة قبله.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿**إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢] والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥].

السادس: تذكيرهم بذلك، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿**إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم.

السابع: قوله تعالى: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ**﴾ [الأعراف: ١٧٣]. فذكر حكمتين فى هذا الإشهاد لئلا يدَّعوا الغفلة، أو يدَّعوا التقليد فالغافل لا شعور له. والمقلد متبع فى تقليده لغيره. ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ماقامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: قوله: ﴿**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٣]. أى

توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك. وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الاعذار، والإنذار بإرسال الرسل.

التاسع: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [لقمان: ٢٥]. فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها. وذكرهم بها رسله بقوله: ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [إبراهيم: ١٠].

العاشر: أنه جعل هذه آية، وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها وهذا شأن آيات الرب تعالى: فقال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٤]. وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله فما من مولود إلا يولد على الفطرة. لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا، والله أعلم. وقد تفطن لهذا ابن عطية[1] وغيره. ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم. وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدي[2] في «شرح التأويلات» ورجح القول الثاني وتكلم عليه ومال إليه.

الإقرار بالربوبية أمر فطرى والشرك طارىء.

ولاشك أن الإقرار بالربوبية أمر فطرى، والشرك حادث طارىء والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا، ونحن جرينا على عادتهم كما يجرى الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن يقال

---

(١) هو: عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية أبو محمد، مفسر فقيه أندلسى من أهل غرناطة عارف بالأحكام والحديث له شعر ولى قضاء المرية. توفى بلورقة ٥٤٢ هـ. له المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب وغير ذلك. (نفخ الطيب ١: ٥٩٢).

(٢) محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدى من أئمة علماء الكلام نسبة إلى ما تريد (محلة بسمرقند) من كتبه التوحيد وأوهام المعتزلة والرد على القرامطة وكتاب الجدل وغير ذلك مات بسمرقند عام ٣٣٣هـ.

لهم: أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا. قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [النساء: ١٣٥]. وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسى بكذا، بل من أقرَّ بشيء فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذى شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى مالا يعلم له حقيقة، تقليداً لمن لا حجة معه، بخلاف اتباعهم فى العادات الدنيوية فإن تلك لم تكن عندكم ما يعلم به فسادها، وفيه مصلحة لكم. بخلاف الشرك فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب.

فإن الدين الذى يأخذه الصبى عن أبويه هو دين التربية والعادة، وهو لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لابد له من كافل، وأحق الناس به أبواه ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبوية على دينهما فى أحكام الدنيا الظاهرة، وهذا الدين لا يعاقبة الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل وهو الذى يعلم بعقله هو أنه دين صحيح، فإن كان آباؤه مهتدين، كيوسف الصديق مع آبائه قال: ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [يوسف: ٣٨]. وقال ليعقوب بنوه ﴿ **نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وإن كان الآباء مخالفين الرسل، كان عليه أن يتبع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** ﴾ [العنكبوت: ٨].

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه، فهذا اتبع هواه كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له فى قبره من ربك؟ قال: هاه هاه

لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. فليتأمل اللبيب هذا المحل، ولينصح نفسه، وليقم معه، ولينظر من أى الفريقين هو؟ والله الموفق. فإن توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل فإنه مركوز فى الفطر. وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة، وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب: عظام الصدر ثم صارت تلك النطفة فى قرار مكين فى ظلمات ثلاث، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولوكانت موضوعة على لوح أو طبق واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا. ومحال توهم عمل الطبائع فيها، لأنها موات عاجزة ولا توصف بحياة ولن يتأتى من الموت فعل وتدبير، فإذا تفكر فى ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له رباً أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيداً والله الموفق، لا رب غيره، ولا إله سواه.

علم الله أزلاً بأهل الجنة وأهل النار

قوله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزداد فى ذلك العدد ولا ينقص منه. وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

ش: قال الله تعالى: ﴿**إنَّ اللَّهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿**وكَانَ اللَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عليماً**﴾ [الأحزاب: ٤٠] فالله تعالى موصوف بانه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة. وما كان ربك نسياً.

وعن علي بن أبي طالب – رضى الله عنه – قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغَرْقَد فأتانا رسول الله – ﷺ – فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخْصرةٌ فنكس رأسه فجعل ينكتُ بمخصَرته، ثم قال: ما من نَفْسٍ منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كُتبت شقيةً أو سعيدةً قال: فقال رجلٌ: يا رسول الله، أفلا نمكثُ على كتابنا وندعُ العملَ؟ فقال: من كانَ من أهل السعادة فسيصيرُ إلى عمل أهل السعادة، ومن كانَ من أهل الشقاوة فسيصيرُ إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: اعملوا فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلقَ له، أما أهلُ السعادة فييسَّرون لعمل، أهل

السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشاقوة ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾. أخرجاه في الصحيح[1].

الأعمال بالخواتيم

قوله: (وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

ش: تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له»[2]. وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: لا. بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر»[3]. رواه مسلم. وعن سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعملِ أهل الجنة فيما يبدو للناس وهُو من أهلِ النار، وأنَّ الرجلَ ليعمل عملَ أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة». خرجاه في «الصحيحين» وزاد البخاري، «وإنما الأعمال بالخواتيم»[4].

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله – ﷺ – وهو الصادق المصدوق – «إن أحدكم يُجمعُ خَلقُه في بْطن

---

(1) الحديث رواه البخاري في الجنائز ٨٣، وتفسير سورة ٩٢ ورواه مسلم في القدر ٦، وأبو داود في السنة ١٦ والترمذي تفسير سورة ٩٢ وأحمد بن حنبل ٣ – ٢٨٤، ٣٠٥، ٣١٤ وابن ماجه في المقدمة ١٠.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب القدر رقم ٨ بسنده عن سراقة بن مالك ورواه البخاري في القدر ٤، والتوحيد ٥٤، والترمذي في القدر ٣ وأحمد بن حنبل جـ ١ – ٦، ٢٩، ٨٢، ١٢٩، ١٣٣، ١٤٠، ١٥٧.

(٤) الحديث رواه البخاري في الجهاد وتوحيد ٢٨ ورواه مسلم في الإيمان ١٧٩، وأبو داود في السنة ١٦ وأحمد بن حنبل ١– ٣٨٢، ٤١٤.

أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملكُ فينفخ فيه الروحَ، ويُؤمرُ بأربع كلمات: يُكتب رزقُه وأجلُه وعملهُ وشقيٌ أو سعيدٌ فوالذى لا إله غيره، إن أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينَه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينَه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1]. والأحاديث فى هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر فى «التمهيد» قد أكثر الناس من تخريج الآثار فى هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادهم وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

أصل القدر سر الله فى خلقه

وقوله: (وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبى مرسل، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى فى كتابه: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فمن سأل: لم فعل..؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

ش: أصل القدر سر الله فى خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى قال على كرم الله وجهه ورضى عنه. القدر سر الله فلا نكشفه. والنزاع بين الناس فى مسألة القدر مشهور. والذى عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه. ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً. وخالف فى ذلك

(١) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق ٦، وأنبياء ١ وقدر ١ ورواه مسلم فى القدر ١ وأبو داود فى السنة ١٦، والترمذى فى القدر ٤ وابن ماجه فى المقدمة ١٠.

القدرية والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فردوا إلى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئه الله تعالى فإن الله قد شاء الإيمان منه – على قولهم – والكافر شاء الكفر – فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى. وهذا من أقبح الاعتقاد وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائى[1] من حديث بقية[2] عن الأوزاعى[3] حدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد الملكى، عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلونى عليه، وهو يومئذ قد عمى – فقالوا له: ماتصنع به؟ فقال: والذى نفسى بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدى لادقنها، فإنى سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: كأنى بنساء بنى فِهرٍ يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شركٍ فى الإسلام. والذى نفسى بيده لينتهين بهم سوءُ رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدِّر الخيرَ، كما أخرجوه من أن يقدر الشر»[4] وهذا أول شرك فى الإسلام إلى آخره، من كلام ابن عباس. وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

وروى عمرو بن الهيثم قال: خرجنا فى سفينة، وصحبنا فيها قدرى ومجوسى، فقال القدرى للمجوسى: أسلم، قال المجوسى: حتى يريد الله، فقال

---

(١) هو: هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى الرازى أبو القاسم اللالكائى، حافظ للحديث من فقهاء الشفاعية توفى سنة ٤١٨هـ.

(٢) بقية بن الوليد بن صائد الحميرى الكلاعى أبو يحمد حافظ من أهل حمص كان محدث الشام فى عصره، له كتاب فى الحديث توفى ١٩٧هـ.

(٣) الأوزاعى: عبد الرحمن بن عمر بن يحمد الأوزاعى أبو عمرو إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد ولد فى بعلبك عام ٨٨هـ عرض عليه القضاء فامتنع له كتاب السنن فى الفقه والمساعى وغير ذلك توفى عام ١٥٧هـ. (الوفيات ١ : ٢٧٥).

(٤) قال الشيخ الألبانى: ضعيف وعلته العلاء بن الحجاج، فإنه فى عداد المجهولين ولم يوثقه أحد، حتى ولا ابن حبان؟؟ بل ضعفه الأزدى. كما قال الذهبى وتضعيفه وإن كان مغموزاً فيه فهو معتبر ههنا لأنه لم يخالف بذلك توثيق أحد.

القدرى : إن الله يريد ولكن الشيطان لايريد . قال المجوسى : أراد الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان هذا شيطان قوى!! .

وفى رواية أنه قال : فأنا مع أقواهما!! ووقف أعرابى على حلقه فيها عمرو ابن عبيد[1] فقال : يا هؤلاء إن ناقتى سرقت فادعوا الله أن يردها علىَّ، فقال : عمرو بن عبيد : اللهم إنك لم ترد إن تسرق ناقته فسرقت فارددها عليه!! فقال الأعرابى : لا حاجة لى فى دعائك! قال ولم؟ قال : أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت أن يريد ردها فلا ترد! .

وقال رجل لأبى عصام القسطلانى[2] : أرأيت إن منعنى الهدى وأوردنى الضلال ثم عذبنى أيكون منصفاً؟ .

فقال له أبو عصام : إن يكن الهدى شيئاً هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء .

وأما الأدلة من الكتاب والسنة : فقد قال تعالى : **﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾** [السجدة : ١٣] . وقال تعالى : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** [يونس : ٩٩] . وقال تعالى : **﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾** [التكوير : ٢٩] . **﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾** [الدهر : ٣٠] وقال تعالى : **﴿ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** [الأنعام : ٣٩] . وقال تعالى : **﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن**

---

(١) عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان البصرى . شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها كان جده من سبى فارس ولد سنة ٨٠هـ له رسائل وكتب منها الرد على القدرية والتفسير وغير ذلك توفى بمران قرب مكة عام ١٤٤هـ قال عنه يحيى بن معين : كان من الدهرية الذين يقولون : إنما الناس مثل الزرع . (وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤) .

(٢) أبو عاصم القسطلانى : لعله والله أعلم محمد بن أحمد بن على القيسى القسطلانى . عالم بالحديث ورجاله، أصله من توزر بإفريقيا من بلاد قسطيليه ومولده ومنشأه بمكة . تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن توفى : له (الإفصاح عن الحروف) و(رسالة فى تفسير القرآن الكريم) وغير ذلك كانت وفاته ٦٨٦هـ . (طبقات الشافعية) : ١٨ .

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

منشأ ضلال الفرق

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضى فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا: فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً. وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصى محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدَّرة ولا مقضية، فهى خارجة عن مشيئته وخلقه. وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة. أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها وأما نصوص المحبة والرضى فقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ﴿**وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى عقيب مانهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿**كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ [الإسراء: ٣٨]. وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - «إن الله كرهَ لكم ثلاثاً: قيلَ وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»[١]. وفى المسند «إن الله يحبُّ أن يؤخذَ برُخَصه، كما يكره أن تُؤتَى معصيتُه»[٢]. وكان من دعائه - ﷺ: «اللهم إنى أعوذُ برضاك من سَخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منكَ»[٣]. فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول الصفة، والثانى أثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك. إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه فإعاذتى مما أكره ومنعه أن يحل بى، هى بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذى بك

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الزكاة ٥٣؛ ومسلم فى الأقضية ١٢، ١٣ وأحمد بن حنبل ٢ - ٣٢٧، ٣٦٠، ٤ - ٢٤٦، ٢٤٩.

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى المسند ٢ - ١٠٨.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث.

منك وعياذى بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شىء صادر عن غير مشيئتك بل هو منك . فلا يعلم ما فى هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته .

فإن قيل : كيف يرد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟ قيل : هذا السؤال هو الذى افترق الناس لأجله فرقاً وتباينت طرقهم وأقوالهم . فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذ علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشىء، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوقه . من ذلك : أنه خلق إبليس الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى : وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه . ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها . منها : أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هى أخبث الذوات وشرها، وهى سبب كل شر، فى مقابلة ذات جبرائيل، التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهى مادة كل خير . فتبارك خالق هذا وهذا كما ظهرت قدرته فى خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح،

والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدبيره فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذى البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لابد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء. ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبى - ﷺ - إلى هذا بقوله: «لو لم تُذنبوا لذهبَ الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»(١).

ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذى يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء فى غير موضعه ولا ينزله فى غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ماهو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر. ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى، والمعاداه وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه، ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها.

(١) الحديث رواه مسلم فى التوبة ١١، ٩، والترمذى فى الجنة ٢ والدعوات ٩٨، وأحمد ابن حنبل ١ - ٢٨٩، ٢ - ٣٠٥، ٣٠٩، ٥ - ٤١٤.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد؟ وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب، فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضى إليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هى مسخوطة من جميع الوجوه؟ قيل: هذا السؤال يرد على وجهين: أحدهما: من جهة الرب تعالى وهل يكون محباً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟ والثانى من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه. مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت فى الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هى حركة: خير، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هى حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء فى غير محله، فلو وضع فى موضعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة فى محالها خيراً فى نفسها، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذى حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه فى موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك. فلا يكون(١) فى جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه ولا مصلحة فى خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيديه والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شراً، فتأمله. فانقطاع نسبته إليه هو الذى صيره شراً.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟ قيل: هو من هذه الجهة ليس

---

(١) فى ب: فلا يمكن.

بشر. فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذى فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشىء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

أسباب الخير ثلاثة

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل. وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذ أوجده؟ قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلا أمد الموجوات كلها؟ فهذا سؤال فاسد، يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ فى الحكمة وهذا عين الجهل؟ بل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الذى بين الأشياء، وليس فى خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس فى خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس فى الخلق من تفاوت. فإن اعتاد عليك هذا ولم تفهمه، حق الفهم، فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟ قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ**﴾ فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى تترتب على خروجهم مع رسوله فقال: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا**﴾ [التوبة: ٤٧]. أى فساداً وشراً ﴿**وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ**﴾ [التوبة:

٤٧]. أى سعوا بينكم بالفساد والشر، ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٤٧]. أى قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعى هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه فاجعل هذا المثال أصلاً وقس عليه.

وأما الوجه الثانى : وهو الذى من جهة العبد : فهو أيضاً ممكن بل واقع فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصى ويكرهها، من حيث هى فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره؛ ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكونى، فيرضى بما منَّ الله، ويسخط ما هو منه. فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان. وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هذا القول، لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته وسر المسألة : أن الذى إلى الرب منها غير مكروه والذى إلى العبد مكروه

فإن قيل : ليس إلى العبد شيء منها قيل : هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدرى المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبرى وأهل السنة، المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل : كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة فى التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ قيل هذا هو الذى أوقع من عميت بصيرته فى شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى تلك الأعمال[١] طاعات، لموافقته فيها[٢] المشيئة والقدر، وقال : إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته وفى ذلك قيل :

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... منى ففعلى كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية فإن الطاعة : هى موافقة الأمر الدينى الشرعى، لا موافقة القدر والمشيئة ولو كان موافقة القدر طاعة، لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود، وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون – كلهم مطيعين وهذا غاية الجهل. لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه

---

(١) فى ب : الأفعال. (٢) سقط من «أ» فيها.

عن عصمته وحفظه طرفة عين: كان بالله فى هذه الحال لا بنفسه فوقوع الذنب منه لا يتأتى فى هذه الحال البتة، فإن عليه حصناً حصيناً، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى، فلا يتصور منه الذنب فى هذه الحالة. فإذا حجب عن هذا المشهد وبقى بنفسه استولى عليه حكم النفس فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع[1] عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعى المشهور فهنالك يضره الندم والتوبة والإنابة فإذا[2] كان فى المعصية محجوباً بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار فى وجود آخر فبقى بربه لا بنفسه.

ما يرضى من المقضى وما يسخط

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟!

فالجواب: أن يقال أولاً: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنّة، بل من المقضى ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضى لاقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم

ويقال ثانياً: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى ومقضى، وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضى قسمان: منه ما يرضى به، ومنه مالا يرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به. والوجه الثانى تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى «مالا يرضى به مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران فمن حيث قدَّره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول، ونهاية لعمره - يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله - نسخطه ولا نرضى به.

---

(١) فى ب: انتفى.　　(٢) فى ب: فإنه وهى الصواب.

وقوله: والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان. إلى آخره – التعمق: هو المبالغة فى طلب الشىء، والمعنى: أن المبالغة فى طلب القدر والغوص فى الكلام فيه ذريعة الخذلان. الذريعة: الوسيلة والذريعة والدرجة والسلم – متقاربة المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى أيضاً، لكن الخذلان فى مقابلة النصر، والحرمان فى مقابلة الظفر، والطغيان فى مقابلة الاستقامة.

وقوله: فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسه. عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: «جاء ناسٌ من أصحاب النبىِّ ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فسألوه: إنَّا نجدُ فى أنفسنا ما يتعاظمُ أحدُنا أن يتكلم به؟ قال وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريحُ الإيمان»[١] رواه مسلم، الإشارة بقوله: «ذلك صريح الإيمان» إلى تعاظم أن يتكلموا به ولمسلم أيضاً عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه، قال: «سُئل رسولُ الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: تلك محضُ الإيمان». وهو بمعنى حديث أبى هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان هذا طريقة الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان. ثم خلف من بعدهم خلف، سودوا الزوراق بتلك الوساوس التى هى شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله فى ذم الخوض فى الكلام فى القدر والفحص عنه. وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أبغضَ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصمُ»[٢]. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبى هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: «خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ والناسُ يتكلمون فى القدر، قال: فكأنما تفقَّأ فى وجهه حبُّ الرمان من الغضب، قال:

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٢٠٩ وأبو داود فى الأدب ١٠٩ وأحمد بن حنبل ٢ – ٣٩٦، ٤٤١. أما الرواية الثانية وهى محض الإيمان، فرواه مسلم فى الإيمان ٢١١ وأحمد بن حنبل ٢ – ٤٥٦، ٦ – ١٠٦.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ٢ – ٢٧ مظالم ١٥ أحكام ٣٤، ورواه مسلم فى العلم ٥ والترمذى فى التفسير سورة ٢ والنسائى فى القضاء ٣٤ وأحمد بن حنبل ٦ – ٥٥، ٦٣، ٢٠٥.

فقال لهم: مالكم تضربون كتابَ الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسولُ الله لم أشهدْه، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أنى لم أشهده»[1] ورواه ابن ماجه أيضاً: وقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ﴾ [التوبة: ٦٩] الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ** ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أى استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذى خاضوا، أى كالخوض الذى خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذى خاضوا وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض، لأن فساد الدين إما فى العمل وإما فى الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثانى من جهة الشبهات وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «لتأخذن أمتى مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، قالوا: فارس والرُّوم؟ قال: فمن الناس إلا أولئك؟»[2] وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ على أمتى ما أتى على بنى إسرائيلَ حذْوَ النعْل بالنعْل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّه علانيةً كان من أمتى من يصنعُ ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملَّةً، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملةً، كلُّهم فى النار إلا ملة واحدة، قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصْحَابى»[3]. رواه الترمذى. وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقةً أو اثنتين وسبعين فرقةً، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتى على ثلاثٍ وسبعين فرقة»[4] رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح. وعن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى المقدمة ١٠ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ – ١٧٨ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأنبياء برقم ٥٠ والاعتصام ١٤ ومسلم فى باب العلم ٦ وابن ماجه فى الفتن ١٧ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ – ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٦، ٣٣٧، ٤٥٠ .

(٣) الحديث رواه الترمذى فى الإيمان ١٨ وأبو داود فى السنة والدارمى فى السير ٧٥ وأحمد ابن حنبل ٤ – ١٠٢ وقال الشيخ الألبانى ضعيف بهذا الإسناد.

(٤) الحديث رواه الترمذى فى الإيمان ٨ وهو صحيح.

اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة. يعنى الأهواء، كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة » وأكبر المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

مبنى العبودية الإيمان على التسليم

إعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله – على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة فى الأوامر والنواهى والشرائع. ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبى صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن [1] ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها؛ بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفى عنها لم تتوقف فى انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما فى الإنجيل: « يا بنى إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟ »، ولهذا كان سلف هذه الأمة، التى هى أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً – لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح فى الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأموراً، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته – فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فإن هذا ينافى الانقياد، ويقدح فى الامتثال. قال القرطبى ناقلاً عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهماً راغباً فى العلم ونفى الجهل عن نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف فى الديانة عليه: فلا بأس به فشفاء العى السؤال. ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم، فهو الذى لا يحلّ قليل سؤاله ولا كثيره قال ابن العربى: الذى ينبغى للعالم أن يشتغل به هو بسط

(١) سقط من ب: عن.

الأدلة، وإيضاح سبل النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد قال: فإذا عرضت نازلة[1]، أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها انتهى. وقال ﷺ: «من حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[2]. رواه الترمذى وغيره. ولا شك فى تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تاول[3] حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بُين له الصواب ليرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا بمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه ويأتى لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله[4].

قوله: (فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى وهى درجة الراسخين فى العلم، لأن العلم علمان: علم فى الخلق موجود، وعلم فى الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود).

ش: الإشارة بقوله: فهذا، إلى ما تقدم ذكره، مما يجب اعتقاده والعمل به، مما جاءت به الشريعة. وقوله: وهى درجة الراسخين فى العلم. أى علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا، نفياً وإثباتاً. ويعنى بالعلم المفقود، علم القدر الذى طواه الله عن أنامه، ونهاهم عن مرامه ويعنى بالعلم الموجود، علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] الآية. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان: ٣٤]. ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا جهلنا انتفاء حكمته.. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا فى خلق الحيَّات والعقارب والفأر والحشرات، التى لا يعلم

---

(١) فى ب: فإذا عرضت لك مسأله.

(٢) الحديث رواه الترمذى فى الزهد ١١ وابن ماجه فى الفتن ١٢ وصاحب الموطأ فى حسن الخلق ٣ وكلام ١٧ ولفظه عند ابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعينه».

(٣) فى ب: تأويل. (٤) فى ب: يستحقه.

منها إلا المضرة: لم ينف أن يكون الله تعالى خالقا لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم.

الإيمان باللوح المحفوظ

قوله: (ونؤمن: باللوح والقلم، ما فيه قد رقم)

ش: قال تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده إلى النبى ﷺ أنه قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً، من درَّةٍ بيضاء، صفحاتها ياقوتةٌ حمراء، قلمُه نورٌ وكتابه نورٌ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظةً، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظُرُ فيه كلَّ يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلقُ ويرزقُ ويُميتُ ويُحيى، ويعزُّ ويُذل، ويفعلُ ما يشاء»[1]. اللوح المذكور هو الذى كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذى خلقه الله وكتب به فى اللوح المذكور المقادير، كما فى «سنن أبى داود» عن عبادة بن الصامت[2]، قال: «سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن أولَ ما خلقَ الله القلمَ، فقال له: اكتبْ، قال: ياربِّ، وماذا أكتبُ؟ قال: اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتى تقوم الساعةُ»[3].

---

(٤) قال الشيخ الألبانى: ضعيف، رواه الطبرانى فى «المعجم الكبير» ٣ – ٥ ١٦٥ – ١ وفيه زياد ابن عبد الله وهو البكائى عن ليث وهو أبى سليم وكلاهما ضعيف وقد رواه ٣ – ٨٨ – ٢ من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفا عليه وإسناده يحتمل التحسين فإن رجاله كلهم ثقات غير بكير بن شهاب وهو الكوفى قال فيه أبو حاتم: «شيخ» وذكره ابن حبان فى الثقات ٢ – ٣٢.

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخارجى أبو الوليد، صحابى، من الموصوفين بالورع والتقوى، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وبدرا والمشاهد كلها ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين، ومات بالرملة أو بيت المقدس روى ١٨١ حديثاً اتفق البخارى ومسلم على ستة منها وكان من سادات الصحابة. توفى ٣٤هـ (الإصابة ت ٤٤٨٨).

(٣) الحديث رواه أبو داود فى السنة ١٦ والترمذى فى القدر ١٧ وأحمد بن حنبل ٥ – ٢١٧ ولفظه عند أبى داود عن أبى حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بنى إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال رب وماذا أكتب..؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» يا بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «من مات على غير هذا فليس منى». يقول الشيخ الألبانى: وفى الحديث إشارة لطيفة إلى الرد على من يقول من العلماء بحوادث لا أول لها، وأنه ما من مخلوق إلا هو مسبوق بمخلوق وهكذا إلى مالا أول له فتأمل.

اختلاف العلماء فى القلم

واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمذانى[1]، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت فى «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»[2].

فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بحديث عبادة هذا. ولا يخلو قوله: «أول ما خلق الله القلم»... الخ. إما أن يكون جملة أو جملتين.. فإن كان جملة، وهو الصحيح، كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: «اكتب» كما فى اللفظ: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» بنصب «أول» و«القلم»، وإن كان جملتين، وهو مروى برفع «أول» و«القلم». فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح فى أن العرش سابق على التقدير مقارن لخلق القلم، وفى اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له: اكتب»، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذى أقسم الله به فى قوله تعالى: ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [القلم: ١] والقلم الثانى: قلم الوحى: وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم.. والأقلام كلها خدم لأقلامهم. وقد رفع النبى ﷺ ليلة أسرى به إلى مستوي يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدبرها، أمر العالم العلوى والسفلى.

---

(١) هو الحافظ العلامة شيخ الإسلام الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد شيخ همذان مولده سنة ٤٨٢ هـ - رحل إلى بغداد قال أبو سعد السمعانى حافظ متقن ومقرىء فاضل حسن السيرة مرضى الطريقة عزيز النفس مات رحمه الله سنة تسع وستين وخمس مائة. (تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص١٣٢٧).

(٢) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق ١ والترمذى تفسير سورة ٥، ٣، ١١، ١ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ - ٣١٣، ١، ٥٠١، ٤ - ٤٢١، ورواه مسلم فى القدر ٢٦٥٣ ولفظه عند الترمذى: قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة

قوله: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن، ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه.. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً - لم يقدروا عليه. جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

ش: تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ، قال: «جاء سُراقةُ بنُ مالك بن جعشم[1]، فقال: يا رسول الله، بيِّنْ لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العملُ اليوم، أفيما جفَتْ به الأقلام وجرت به المقاديرُ؟ أم فيما استُقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفتْ به الأقلامُ وجرتْ به المقادير»[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنتُ خلفَ رسول الله ﷺ يوماً، فقال: يا غلامُ ألا أعلِّمُك كلمات: احفظْ الله يحفظْك، احفظْ الله تجدْه تجاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، وأعلمْ أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحفُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجدْه أمامَك، تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، واعلم أن ما أخطأكَ لم يكن ليصيبك، وما أصابَك لم يكن ليخطئك، واعلمْ أن النصرَ مع الصبر، وأن الفرَجَ مع الكرْب، وأن مع العُسر يُسراً»[3].

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

---

(١) سراقة بن مالك بن جعشم الكناني، أبو سفيان. صحابي له شعر كان ينزل قديداً، له في الحديث ١٩ حديثاً وكان في الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله حين خرج إلى الغار مع أبي بكر وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨هـ.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب القدر برقم ٢٦٤٨، ورواه الإمام أحمد في جـ٣ ص ٢٩٣، ورواه بن حبان في صحيحه برقم ٣٣١ الجزء الأول.

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد رقم ٢٦٦٩ جـ٤ ورواه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٢٥١٦.

والذى دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره: القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذى تقدم ذكره مع اللوح. القلم الثانى: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبنى آدم، ورد فى هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بنى آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم. القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين فى بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد. كما ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة. القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذى بأيدى الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك فى الكتاب والسنة

وإذا علم العبد أن كلاً من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى. قال تعالى: ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠]. ﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** ﴾ [البقرة: ٤١]. ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [النور: ٥٢]، ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [المدثر: ٥٦]. ونظائر هذا المعنى فى القرآن كثيرة. ولابد لكل عبد أن يتقى أشياء، فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكاً مطاعاً فلابد أن يتقى أشياء يراعى بها رعيته. فحينئذ فلابد لكل إنسان أن يتقى، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذى يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعى رضى الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذى يصلحك فالزمه، ودع ماسواه فلا تعانه. فإرضاء الخلق لامقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور. وأيضاً فالمخلوق لا يغنى عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس.. كما كتبت عائشة إلى معاوية[١]، روى مرفوعاً، وروى موقوفاً عليها: من أرضى الله بسُخْط

---

(١) معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية مؤسس الدولة الأموية ولد بمكة ٢٠ ق هـ وتعلم الكتابة والحساب: كان من كتاب الوحى، ولاه أبو بكر قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبى سفيان، ولما تولى عمر – رضى الله عنه – جعله واليا على الأردن ودمشق بعد موت أميرها يزيد أخيه وجاء عثمان فجمع له الديار الشامية مات سنة ٦٠هـ. (ابن الأثير جـ٤ ص٢).

الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، عاد حامدة من الناس له ذاما»(١). فمن أرضى الله كفاه مؤنة الناس ورضى عنه، ثم فيما يرضون، إذ العاقبة للتقوى، ويحبه الله فيحبه الناس، كما فى الصحيحن عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى: يا جبريلُ، إنى أحبُّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبرائيلُ، ثم ينادى جبرائيلُ فى السماء: إن الله يحبُّ فلاناً فاحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يُوضعُ له القبولُ فى الأرض»(٢). وقال فى البغض مثل ذلك فقد بين أنه لابد لكل مخلوق من أن يتقى إما المخلوق، وإما الخالق. وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هى التى يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل التقوى، وهو أيضاً أهل المغفرة، فإنه هو الذى يغفر الذنوب، لا يقدر مخلوق أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذى يجير ولا يجار عليه. قال بعض السلف: ما احتاج تقى قط.. لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢ – ٣]، فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيِّق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن فى التقوى خللا، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣] أى فهو كافية لا يحوجه إلى غيره.

---

(١) قال الشيخ الألبانى: رواه الترمذى ٢ – ٦٧ من طريق عبد الوهاب بن الورد عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – أن اكتبى لى كتاباً وصينى فيه ولا تكثرى على، فكتبت عائشة – رضى الله عنها – إلى معاوية سلام عليك: أما بعد فإنى سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس والسلام عليك».

ثم رواه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كتبت إلى معاوية فذكر الحديث بمعناه ولم يرفعه. قلت: والمرفوع إسناده ضعيف لجهالة الرجل الذى لم يسم وأما الموقوف فسنده صحيح رجاله كلهم ثقات.

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق برقم ٣٢٠٩ ورواه فى كتاب الأدب برقم ٦٠٤٠ ورواه فى كتاب التوحيد برقم ٧٤٨٥ ورواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب برقم ٢٦٣٧ ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم ٣٠٨ جـ ١ ص ٣٥١، ٣٥٢ والترمذى فى التفسير برقم ٣١٦١.

الرد على من يقول إن التوكل ينافى تعاطى الأسباب

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب وتعاطى الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب. وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عرف فى موضعه. وقد كان النبى ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشى فى الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿ **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان: ٧]. ولهذا نجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافى التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة، وإما هدية، وقد يكون ذلك من مكامن، أو وإلى شرطة، أو نحو ذلك، وهذا مبسوط فى موضعه، لا يسعه هذا المختصر، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٣٩]. وأما قوله تعالى: ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال البغوى: قال مقاتل[١]: نزلت فى اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضى يوم السبت! قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى ويميت، ويرزق، ويعز قوماً ويذل آخرين، ويشفى مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطى سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه فى خلقه ما يشاء.

قوله: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه).

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

ما قضى الله كائنٌ لا محالة … والشقيَّ الجهولُ من لام حاله

والقائل الآخر:

اقنعْ بما تُرزقُ ياذا الفتى … فليس ينسى ربّنا نملهْ

إن أقبلَ الدهرُ فقمْ قائماً … وإن تولىَّ مُدبراً نَمْ لَهْ

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء البلخى، أبو الحسن من أعلام المفسرين، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدث بها وتوفى بالبصرة كان متروك الحديث من كتبه التفسير الكبير، ونوادر التفسير والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كانت وفاته ١٥٠هـ. (وفيات ٢: ١١٢).

سبق علم الله بالكائنات قبل خلقها

قوله : (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في : كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه)

ش : هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وأنه قدر مقادير ها قبل خلقها، كما قال ﷺ : «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنه، وعرشه على الماء»(١) . فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها، على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم . فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها . قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] . وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا : إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا! تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا . قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروا كفروا . فإن(٢) الله يعلم أن هذا مستطع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأ نه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه . ومن لا يستطع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟ قيل : هذه مغالطة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه؛ بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع، وإذا(٣) لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع . ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أى شيء وقع كان هو المعلوم، والعبد الذى لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادرٌ على فعلٍ لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع، لا أنه لا يقع .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث . (٢) سقط من ب : فإن .
(٣) في ب : وإن .

وإذا قيل: فمن عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم؟ قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه! وهو فرض محال. وذلك بمنزلة من يقول: أفرض وقوعه مع عدم وقوعه! وهو جمع بين النقيضين.

فإذا قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً؟ قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالماً بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه. وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال! مما يُلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء، لا الرب، ولا الخلق. فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده. والله تعالى أعلم.

القدرية مجوس هذه الأمة

قوله: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ش: الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها. قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: «أن تُؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدرِ خيره وشره». وقال ﷺ في آخر الحديث: «ياعمرُ، أتدرى من السائل؟ قال: الله ورسولُه أعلم، قال: فإنه جبرائيلُ، أتاكم يعلمكم دينكم»[1]. رواه مسلم.

---

(١) الحديث رواه مسلم في الإيمان ١، وأبو داود في السنة ١٦، والترمذي في الإيمان ٤، والنسائي في المواقيت ٦، وابن ماجه في المقدمة ٩، وأحمد بن حنبل ١ - ٢٧، ٢٨، ٥٢، ٥٣.

وقوله: والإقرار بتوحيد الله وربوبيته » أى لا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى. فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، وأحاديثهم فى « السنن ». روى أبو داود عن ابن عمر، عن النبى ﷺ، قال: « القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »(1). وروى أبو دادو أيضاً عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « لكلِّ أمةٍ مجوسٌ ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم وهم شيعة الدجال، وحقٌّ على الله أن يلحقهم بالدجال »(2). وروى أبو داود أيضاً عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: « لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم »(3) وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « صنفان من بنى آدمَ ليس لهما فى الإسلام نصيبٌ: المرجئةُ والقدرية »(4). لكن أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة.. وإنما يصح الموقوف منها: فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: « القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده »(5). وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذى لا يحاط به كتابة مقادير الخلائق. وقد ضل فى هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل فى التكذيب بالقدر. وأما قدرة الله على شىء فهو الذى يكذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوه عن قدرته وخلقه.

---

(1) قال الشيخ الألبانى: ضعيف ولكن له طريق يتقوى بها.

(2) إسناده ضعيف، ورواه أبو داود فى سننه رقم ٤٦٩٢.

(3) الحديث رواه أبو داود فى السنة ١٦، ١٧ ورواه أحمد بن حنبل فى المسند ١ – ٣٠ وقال الشيخ الألبانى ضعيف.

(4) الحديث رواه الترمذى فى القدر ١٣ وابن ماجه فى المقدمة ٩ ولفظه عند ابن ماجه: « صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء وأهل القدر ».

(5) قال الشيخ الألبانى: ضعيف موقوفاً ومرفوعاً أما الموقوف فرواه اللالكائى فى شرح السنة ١ – ١٤٢، ٢٦٢ – ٢ وفيه من لم يسم وأما المرفوع فرواه الطبرانى فى الأوسط وفيه هانىء بن المتوكل وهو ضعيف.

والقدر، الذى لا ريب فى دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، وأن الذى جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع: هو ما قدره الله من مقادير العباد. وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة فى ذم القدرية يعنى به هؤلاء، كقول ابن عمر رضى الله عنهما، لما قيل له: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف: أخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منى برآء.

القدر يتضمن أصولاً عظيمة

والقدر، الذى هو التقدير المطابق للعمل: يتضمن أصولاً عظيمة: **أحدها**: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفى ذلك الرد على من ينكر علمه القديم. **الثانى**: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرهاهى صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شىء قدراً، قال تعالى: ﴿ **وخلق كُلَّ شىءٍ فقدَّرهُ تقديراً** ﴾ [الفرقان: ٢]. فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشىء فى نفسه، بأن يجعل له قدراً، وتقديره قبل وجوده. فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذى يخصه فى كميته وكيفيته، كان ذلك أبلغ فى العلم بالأمور الجزئية المعينة، خلافاً لمن أنكر ذلك وقال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات. **الثالث**: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، فيقتضى أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلاً، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم. فإنه إذا كان يُعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو؟! **الرابع**: أنه مختار لما يفعله، محدث له بمشيئته وإرادته، ليس لازماً لذاته. **الخامس**: أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

للقلب حياة وموت ومرض وشفاء

قوله: (فويل لمن صار الله تعالى فى القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً).

ش: اعلم أن القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن. قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أى كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحى إذاً عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر. وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة، ومرض شبهة. وأردؤها مرض الشبهة، وأراداً الشبه ما كان من أمر القدر. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة. .فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته. ما لجرح بميت إيلام. وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه فى مخالفة الهوى، وذلك أصعب شىء على النفس، وليس له أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل فى طريق مخوف. مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلى أسوة بهم! وهذه حال أكثر الخلق، وهى التى أهلكتهم. فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩].

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن المعروف بأبي شامة[1] - في كتاب «الحوادث والبدع» -: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنه، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال: السنة - والذى لا إله إلا هو - بين الغالى والجافى، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم، ولا مع أهل البدع فى بدعتهم، صابراً على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا.

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة، إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع، إلى دوائه الضار. فههنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك. فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافى على الضار المؤذى، والقلب المريض بضد ذلك؛. وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء فى غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين، وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [الإسراء: ٨٢]. «ومن» فى قوله: من القرآن لبيان الجنس، لا للتبعيض. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧]. فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للإستشفاء به. وإذا أحسن العليل التدواى به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان

(١) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الدمشقى أبو القاسم شهاب الدين، أبو شامة: مؤرخ، محدث، باحث أصله من القدس ومولده فى دمشق عام ٥٩٩ هـ ولى بها مشيخة الحديث الأشرفية. من مؤلفاته «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين الصلاحية والنورية» ومختصر تاريخ ابن عساكر، ووقف كتبه ومصنفاته جميعها فى الخزانة العادلية فأصابها حريق التهم أكثرها توفى عام ٦٦٥هـ. (فوات الوفيات ١: ٢٥٢).

وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه: لم يقاوم الداءُ أبداً. وكيف تقاوم الأدواءُ كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهماً في كتابه.

وقوله: لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، أي طلب بوهمه في البحث عن الغيب سراً مكتوماً، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الإطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله: وعاد بما قال فيه، أي في القدر: أفاكاً كذاباً أثيماً، أي مأثوماً..

العرش والكرسي

وقوله: (والعرش والكرسي حق)

ش: كما بين تعالى في كتابه، قال تعالى: ﴿ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [البروج: ١٥، ١٦]. ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ** ﴾ [غافر: ١٥]. ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]، في غير ما آية من القرآن: ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه: ٥]. ﴿ **لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. ﴿ **اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ [النمل: ٢٦]. ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [غافر: ٧] ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ [الحاقة: ١٧] ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ [الزمر: ٧٥].

وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم»[1].. وروى الإمام أحمد في حديث الأوعال عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بينَ السماء والأرض؟ قال: قلنا الله ورسولهُ أعلم، قال: بينهما مسيرةُ خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماءٍ مسيرةُ خمسمائة سنة، وكثف كل سماءٍ مسيرةُ خمسمائة، وفوقَ

---

(١) متفق عليه.

السماء السابعة بحرٌ بينَ أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرشُ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوقَ ذلك، ليس يخفَى عليه من أعمالِ بنى آدم شىءٌ»[1]. ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه. وروى أبو داود وغيره، بسنده إلى رسول الله ﷺ، من حديث الأطيط أنه ﷺ قال: «إن عرشَه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثلَ القبة»[2]. الحديث، وفى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردَوْسَ، فإنه أوسطُ الجنة، وفوقهُ عرش الرحمن»[3]. يروى وفوقه بالنصب على الظرفيه، وبالرفع على الابتداء، أى: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح، لأنه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: «فإن الناسَ يَصعقون فأكون أول من يفيقُ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزىَ بصعقة الطُّور»[4]. والعرش فى اللغة: عبارَة عن السرير الذى للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ [النمل: ٢٣]. وليس هو فلكاً، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العَرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات. فمن شعر أمية بن أبىِ الصلت[5]:

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى السنة ١٨ وابن ماجه فى المقدمة ١٣. وأحمد بن حنبل ١ / ٢٠٦.

(٢) قال الشيخ الألبانى: ضعيف الإسناد ولا يصح فى أطيط العرش حديث.

(٣) الحديث رواه البخارى فى الجهاد ٤، والترمذى فى الجنة ٤، وأحمد بن حنبل ١ / ٢٠٧، ٣ / ١٩٧، ٣٣٥.

(٤) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٢٢ والخصومات والأنبياء ٢٥، ٣٥، ومسلم فى الفضائل ١٥٩ والترمذى تفسير سورة ٣٩ وابن ماجه فى الزهد ٣٣، وأحمد بن حنبل ٢ ٠ ٤٥١، ٣ – ٣٣، ٤١.

(٥) أمية بن عبد الله بن أبى الصلتِ بن أبى ربيعة شاعر جاهلى من أهل الطائف، كان مطلعاً على الكتب القديمة يلبس المسوح تعبداً وحرم على نفسه الخمر فى الجاهلية ونبذ عبادة الأصنام مات بالطائف عام ٥هـ (تهذيب ابن عساكر ٣: ١١٥).

مـجّدُوا الله فـهـو للمـجْـد أهلٌ ربنا في السـماء أمـسى كـبـيـرا
بالبناء العـالي الذي بهـرَ النَّاسَ وسـوى فـوقَ السـمـاء سـريرا
شـرجـعـا لا يناله بصـرُ العـيْن ترى حـولـه الملائكَ صُـورا

الصور هنا: جمع أصور، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرجع: هو العالي المنيف. والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة[1] رضي الله عنه، الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شَـهِـدْتُ بأن وعـدَ الله حقٌّ وأن النارَ مـثـوى الكافـرينا
وأن العـرشَ فـوقَ الماء طاف وفـوقَ العـرش رب العـالمينا
وتحـمـلُه مـلائكةٌ شـدادٌ مـلائكةُ الإله مُـسـوَّمـينا

ذكره ابن عبد البر[2] وغيره من الأئمة، وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «أذن لي أن أحدثَ عن مَلَك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[3] ورواه ابن أبي حاتم ولفظه: «تخفق الطير سبعمائة». وأما من حرَّف كلامَ الله، وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]. أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟! وكان ملكه على الماء! ويكون موسى عليه السلام آخذاً بقائمة من قوائم الملك؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول؟!

وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقد قيل: هو العرش.. والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. روى ابن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش»، والحاكم في

---

(١) عبد الله بن رواحه بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج صحابي يعد من الأمراء والشعراء كان يكتب في الجاهلية وكان أحد النقباء الإثنى عشر وشهد بدراً وأحداً والخندق كان أحد الأمراء في وقعة مؤتة فاستشهد فيها عام ٨هـ. (تهذيب التهذيب ٥: ٢٢٩).

(٢) هو: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، راجع ترجمته فيما تقدم.

(٣) الحديث رواه أبو داود في السنة ١٨ وأحمد بن حنبل ١- ٢١٨، ٥- ٢٧٩، ٦ - ١١٧.

مستدركه، وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: «وسعَ كُرسيُّه السموات والأرضَ» أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى»[1] وقد روى مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وقال السدى: السموات والأرض في جوف الكرسي بين يدى العرش. وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرشِ إلا كحلقةٍ من حديد أُلقيتْ بين ظهرَىْ فلاةٍ من الأرضِ»[2]. وقيل كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس.. والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة، كما تقدم. ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن. والظاهر أنه من جواب الكلام المذموم، كما قيل في العرش. وإنما هو – كما قال غير واحد من السلف: بين يدى العرش كالمرقاة إليه.

قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

ش: أما قوله: وهو مستغن عن العرش وما دونه. فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦]. وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥]. وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا، لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه، ليس لحاجته إليه؛ بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالى فوق السافل، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالى محيطاً به، حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه. فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يلزم من علوه ذلك،

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح موقوفاً، وأما المرفوع فضعيف كما بينته في تخريج كتاب «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» للآلوسي. وقد طبعه المكتب الإسلامي وقال الشيخ أحمد شاكر: المستدرك للحاكم جـ ٢ ص ٢٨٢ موقوفاً. وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: بلفظ «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة» وسنده ضعيف لكن له شاهد بإسناد أصح. وقال بعض المحدثين لا يصح في صفه الكرسي غير هذا الحديث.

بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل، لو فصلوا بهذا التفصيل، لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل، فضلوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله، لما سُئل عن قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] وغيرها: كيف استوى؟ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول. ويروى هذا الجواب عن أم سلمة[1] رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وأما قوله: محيط بكل شيء وفوقه، وفي بعض النسخ: محيط بكل شيء فوقه، بحذف الواو من قوله: فوقه، والنسخة الأولى هي الصحيحة، ومعناها: أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء. ومعنى الثانية: أنه محيط بكل شيء فوق العرش. هذه – والله أعلم – إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد، وإنكاراً لصفة الفوقية وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله: محيط – بمعنى: محيط بكل شيء فوق العرش، والحالة هذه: معنى! إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به، فتعين ثبوت الواو. ويكون المعنى: أنه سبحانه محيط بكل شيء، وفوق كل شيء.

أما كونه محيطاً بكل شيء، فقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾ [البروج: ٢٠]. ﴿ **أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** ﴾ [فصلت: ٥٤]. ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي**

---

(١) أم سلمة: هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية يعرف بزاد الراكب بن المغيرة، القرشية المخزومية من زوجات النبي – ﷺ – تزوجها في السنة الرابعة للهجرة، وكانت من أكمل الناس عقلا، كان لها يوم الحديبية رأي أشارت به. لها في الحديث ٣٧٨ حديثاً توفيت عام ٦٢هـ. (طبقات ابن سعد جـ٨، ٦٠، ٦٧).

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٦]، وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما المراد: إحاطة عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة. كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «ما السمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن – إلا كخردلةٍ فى يدِ أحدكم». ومن المعلوم – ولله المثل الأعلى – أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو فى الحالين مباين لها، عال عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذى لا يحيط بعظمته وصف واصف. فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته؟ أو يدنى إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره. وفى حديث أبى زرين المشهور الذى رواه عن النبى ﷺ فى رؤية الرب تعالى: فقال له أبو زرين: «كيف يسَعنا – يا رسولَ الله – وهو واحدٌ ونحن جميعٌ؟ فقال: سأنبئك مثلِ ذلك فى الاء الله: هذا القمرُ، آيةٌ من آيات الله، كلكم يراه مخلياً به، والله أكبر من ذلك، وإذا أفل تبين أنه أعظمُ وأكبرُ من كل شىءٍ»[1] فهذا يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال.

بحث الفوقية

وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١] ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال ﷺ فى حديث الأوعال المتقدم ذكره: «والعرشُ فوقَ ذلك، واللهُ فوقَ ذلك كله»[2]. وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدى النبى ﷺ، وأقره على ما قال، وضحك منه وكذا أنشده حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه قوله:

---

(١) قال الألبانى: ضعيف الإسناد.

(٢) قال الشيخ الألبانى: ضعيف، وقول ابن عبد البر «رويناه من وجوه صحاح، فيه نظر» فقد قال الذهبى فى «العلو» ص ١٠٦ معقباً عليه روى من وجوه مرسلة ثم ذكرها.

شهدتُ بإذن الله أن محمدا ... رسولُ الذى فوقَ السمواتِ من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهُما ... له عملٌ من ربِّه مُتقبل
وأن الذى عادَى اليهودَ ابنُ مريم ... رسولٌ أتى من عند ذى العرش مُرسلُ
وأن أخا الأَحقافِ إذْ قام فيهمُ ... يجاهدُ فى ذات الإله ويعْدلُ

فقال النبى ﷺ : « وأنا أشهدُ »(١). وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ، أنه قال : « لما قضى الله الخلقَ كتب فى كتاب فهو عندَه فوقَ العرش : إن رحمتى سبقتْ غضبى »(٢). وفى رواية : « تغلبُ غضبى » رواه البخارى وغيره.. وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه، قال « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذْ سطع لهم نورٌ، فرفعوا إليه رؤوسَهم، فإذا الجبارُ جل جلاله قد أشرفَ عليهم من فوقهم، وقال : يا أهلَ الجنة، سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس : ٥٨]. فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه »(٣). وروى مسلم عن النبى ﷺ ، فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ** ﴾ [الحديد : ٣] بقوله : « أنت الأَولُ فليس قبلَك شىءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدَك شىءٌ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شىء »(٤). والمراد بالظهور هنا : العلو. ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾ [الكهف : ٩٧] أى يعلوه. فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، وإسمان لعلوه وقربه. وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن

---

(١) ضعيف رواه ابن سعد فى الطبقات بسند ضعيف ومنقطع.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٥٥، وبدء الخلق ١، ومسلم فى التوبة ١٤– ١٦، وابن ماجه فى الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ – ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٠.

(٣) الحديث رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله فى المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية. وعند ابن ماجه « وذلك قول الله »، وأيضاً لا يوجد عند ابن ماجه « إليه » وعنده « فإذا الرب قد أشرف »، وعند ابن ماجه زيادة « حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم ».

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم ٦١ بزيادة « إقض عنا الدين واغننا من الفقر » ورواه ابن ماجه فى كتاب الدعاء باب « ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه » رقم ٣٨٧٣ بالزيادة التى ذكرها مسلم.

جده، قال: «أتى رسولَ الله ﷺ أعرابىٌّ، فقال يا رسولَ الله، جهدت الأنفسُ وضاعت العيالُ ونهكت الأموال، وهلكت الأنعامُ، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ويحك! أتدرى ما تقول؟ وسبح رسُول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عُرف ذلك فى وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك ويحك! أتدرى ما الله؟ إن الله فوقَ عرشه، وعرشُه فوق سمواته، وقال بأصابعه! مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحْل بالراكب». وفى قصة سعد ابن معاذ يوم بنى قريَظة، لما حكم فيهم أن تُقتل مُقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فقال النبى ﷺ: «لقد حكمتَ فيهمْ بحكم الملك من فوقَ سبع سمواتٍ»[1]. وهو حديث صحيح، أخرجه الأموى فى مغازيه، وأصله فى الصحيحين. وروى البخارى عن زينب رضى الله عنها: أنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ، وتقول: «زوَّجكن أهاليكن، وزوجنى الله من فوق سبع سمواتٍ»[2] وعن عمر رضى الله عنه: أنه مر بعجوز، فاستوقفته، فوقف معها يحدثها، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس بسبب هذه العجوز؟ فقال: ويلك! أتدرى من هذه؟ امرأة سَمعَ الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة التى أنزل الله فيها: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [المجادلة: ١]. أخرجه الدارمي[3] وروى عكرمة عن ابن عباس، فى قوله: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ**﴾ [الأعراف: ١٧] قال: ولم يستطع أن يقول من فوقهم، لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم.

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف، وجد منه فى إثبات الفوقية مالا ينحصر. ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم فى ذاته المقدسة،

---

(١) قال الألبانى: صحيح بدون قوله: «فوق سبع سماوات» كذلك هو فى الصحيحين والمسند، وأما هذه الزيادة فتفرد بها محمد بن صالح النمار، كما فى «العلو» ١٠٢ وقال: وهو صدوق، وفى التقريب صدوق يخطىء. قلت: فمثله لا يقبل تفرده وإن صححه المؤلف وكذا الذهبى فى إثبات الفوقية أحاديث صحيحة تغنى عن هذا وسيذكر المؤلف بعضها.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التوحيد ٢٢ ورواه الترمذى فى التفسير سورة ٣٣، ١٦.

(٣) قال الألبانى: أخرجه أبو سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص٢٦ من طريق أبى يزيد المدنى عن عمر، به قال الذهبى: ١١٣ وهذا إسناد صالح فيه انقطاع «أبو يزيد لم يلحق عمر.

تعالى الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفاً بضد ذلك، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها. قيل: لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمةبنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود فى الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط، بل وجوده خارج الأذهان قطعاً، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو: إما داخل العالم وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين. وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً، فنفى حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذى لا تأتى به شريعة أصلاً. فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله: إلا بذلك؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطرة المستقيمة، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، التى تقرب من عشرين نوعاً: **أحدها**: التصريح بالفوقية مقروناً بأداة: من، المعينة للفوقية بالذات. كقوله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٥٠]. **الثانى**: ذكرها مجردة عن الأداء، كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١] **الثالث**: التصريح بالعروج إليه نحو ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: ٤]. وقوله ﷺ: «يعرج الذين باتوا فيكم فيسالهم»[1]. **الرابع**: التصريح بالصعود إليه. كقوله

(١) الحديث رواه البخارى فى المواقيت ١٦ والتوحيد ٢٣، ٣٣، ورواه مسلم فى المساجد ٢١، والنسائى فى الصلاة ٢١، والموطأ فى السفر ٨٢ وأحمد بن حنبل فى ٢ - ٢٥٧، ٣١٢، ٤٨٦.

تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر: ١٠] **الخامس**: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿ **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله: ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ [آل عمران: ٥٥]. **السادس**: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً وقدراً وشرفاً، كقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [سبأ: ٢٣]. ﴿ **إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الشورى: ٥١]. **السابع**: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [غافر: ٢] ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ [الزمر: ١]. ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [فصلت: ٢]. ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ** ﴾ [النحل: ١٠٢]. ﴿ **حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ [الدخان: ١ ـ ٥]. **الثامن**: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ** ﴾ [الأنبياء: ١٩]. ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصاً. وقول النبى ﷺ فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى على نفسه: «انه عندهَ فوقَ العرشِ»[1]. **التاسع**: التصريح بأنه تعالى فى السماء، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون «فى» بمعنى «على»، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون فى ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره. **العاشر**: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة «على» مختصاً بالعرش، الذى هو أعلى المخلوقات، مصاحباً فى الأكثر لأداة: «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة. **الحادى عشر**: التصريح برفع الأيدى إلى الله تعالى، كقوله ﷺ: «إن الله يستحى من عبده إذ رفع إليه يديْه أن يردَّهما صفراً»[2]. والقول بأن

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث رواه الترمذى فى الدعوات ١٠، وأبو داود فى الوتر ٢٣، وابن ماجه فى الدعاء ١٣، ولفظه عند ابن ماجه «إن ربكم حى كريم يستحى من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفراً أو قال خائبتين».

العلو قبلة الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع، كما يأتى إن شاء الله تعالى. **الثانى عشر**: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل. **الثالث عشر**: الإشارة إليه حساً إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذى لم يجتمع لأحد مثله، فى اليوم الأعظم، فى المكان الأعظم، قال لهم: «أنتم مسؤولون عنى، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهدُ أنكَ قد بلغتَ وأديتَ ونصحتَ»[1]، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شىء، قائلاً: «اللهم اشهد». فكأنما نشاهد تلك الأصبع الكريمة، وهى مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: «اللهم اشهد»، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحذلقين! والحمد لله رب العالمين. **الرابع عشر**: التصريح بلفظ: «الأين» كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: «أين الله» فى غير موضع. **الخامس عشر**: شهادته ﷺ لمن قال: إن ربه فى السماء - بالإيمان. **السادس عشر**: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات، فقال: ﴿**يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعونى ومن أثبته فهو موسوى محمدى. **السابع عشر**: إخباره ﷺ «أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربِّه ليلةَ المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعد إلى ربِّه ثم يعود إلى موسى عدة مرات»[2] **الثامن عشر**: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى: من الكتاب والسنة، وإخبار النبى ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، فلا يرونه إلا من فوقهم، كما قال

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى المناسك ٨٤، ورواه أبو داود فى المناسك ٣٤، وهو حديث طويل رواه جابر بن عبد الله وذكره ابن ماجه فى باب حجة رسول الله ﷺ.

(٢) متفق عليه.

ﷺ : «بينا أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]. ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم» رواه الإمام أحمد فى المسند، وغيره، من حديث جابر رضى الله عنه. ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية. ولهذا طرد الجهمية الشقين، وصدق أهل السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مـذبذباً بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك!

كلام السلف فى إثبات صفة العلو

وكلام السلف فى إثبات صفة العلو كثير جداً: فمنه: ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى[1] فى كتابه «الفاروق» بسنده إلى مطيع البلخى[2]: أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض؟ فقال: قد كفر لأن الله يقول: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. وعرشه فوق سبع سمواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أنه فى السماء، فمن أنكر أنه فى السماء فقد كفر. وزاد غيره: لأن الله فى أعلى عليين، وهو يدعى من أعلى، لا من أسفل. انتهى. ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبى حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم، مخالفون له فى كثير من اعتقاداته. وقد ينتسب إلى مالك والشافعى وأحمد من يخالفهم فى بعض اعتقاداتهم. وقصة أبى يوسف فى استتابة بشر المريسى، لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش: مشهورة، رواها عبد الرحمن بن أبى حاتم وغيره.

---

(١) سبق الترجمة لأبى إسماعيل الأنصارى.

(٢) اسمه الحكم بن عبد الله أبو مطيع البلخى الفقيه صاحب أبى حنيفة قال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال: إنه واه فى ضبط الأثر ترجمة ٢١٨١ جـ ١ ص٥٧٤ وأشار إليه خليفة بن الخياط فى طبقاته ص٣٢٤ توفى عام ١٩٩هـ.

ومن تأول «فوق» بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة! فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه: من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة والشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى ورسول الله أفضل من فلان اليهودى، والسماء فوق الأرض!! وليس فى ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه! فكيف يليق بكلام الله، الذى لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟! بل فى ذلك تنقص، كما قيل فى المثل السائر:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقصُ قدرُه إذا قيل إنَّ السيفَ أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك! لضحك منه العقلاء للتفاوت الذى بينهما، فإن التفاوت الذى بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضى ذلك، بأن كان احتجاجاً على مبطل، كما فى قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [يوسف: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿ **آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [النمل: ٥٩] ﴿ **وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه: ٧٣].

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية فى ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقيه القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات. ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه. فإن قالوا، بل علو المكانة لا المكان؟ فالمكانة: تأنيث المكان، والمنزلة: تأنيث المنزل فلفظ «المكانة والمنزلة» تستعمل فى المكانات النفسانية والروحانية، كما يستعمل لفظ «المكان والمنزل» فى الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل: لك فى قلوبنا منزلة، ومنزلة فلان فى قلوبنا وفى نفوسنا أعظم من منزلة فلان، كما جاء فى الأثر: «إذا أحب أحدُكم أن يعرفَ كيفَ منزلته عندَ الله، فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإن الله ينزِّل العبدَ من نفسه حيث أنزله العبدُ من قلبه». فقوله: «ومنزلة الله فى قلبه»: هو

ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن «المكانة والمنزلة»: تأنيث المكان والمنزل، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابع له، فعلو المثل الذى يكون فى الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقاً، وإلا كان باطلاً. فإن قيل: المراد علوه فى القلوب، وأنه أعلى فى القلوب من كل شيء. قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه فى نفسه على كل شيء. فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء، كان علوه فى القلوب غير مطابق، كمن جعل ماليس بأعلى أعلى.

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه: أحدها: العلم البديهى القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً فى الآخر قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر. الثانى: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه فى ذاته، أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل: أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثانى يقتضى كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه – غير معقول. الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه – يقتضى نفى وجوده بالكلية، لأنه غير معقول: فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه. والأول باطل، فتعين الثانى، فلزمت المباينة.

وأما ثبوته بالفطرة، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. وذكر محمد بن طاهر المقدسى[1] أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مجلس الأستاذ أبى المعالى الجوينى المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم فى نفى صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان! فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط:

---

(١) محمد بن طاهر بن على بن أحمد المقدسى الشيبانى، أبو الفضل رحالة مؤرخ من حفاظ الحديث، مولده ببيت المقدس، ووفاته ببغداد، وله كتب كثيرة منها تاريخ أهل الشام ومعرفة الأئمة منهم والاعلام» وتذكرة الموضوعات» و« أطراف الكتب الستة»، وكان داوودى المذهب. توفى سنة ٥٠٧هـ. (وفيات الأعيان ١: ٤٨٦).

يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالى على رأسه ونزل! وأظنه قال: وبكى! وقال: حيرنى الهمدانى حيرنى! أراد الشيخ أن هذ أمر فطر الله عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون فى قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه فى العلو.

وقد اعترض على الدليل العقلى بإنكار بداهته، لأنه أنكره جمهور العقلاء فلو كان بديهياً لما كان مختلفاً فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية. والجواب عن هذا الأعتراض مبسوط فى موضعه، ولكن أشير أليه هنا إشارة مختصرة وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم رداً، فإن كان قولنا باطلاً فى العقل، فقولكم أبطل، وإن كان قولكم حقاً مقبولاً فى العقل أولى أن يكون مقبولاً فى العقل. فإن دعوى الضرورة مشتركه، فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التى تحكم ببطلان قولنا هى من حكم الوهم لا من حكم العقل؟ قابلناكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس – ليسوا منكم ولا منا – موافقون لنا على هذا، فإن كان حكم فطر بنى آدم مقبولاً ترجحنا عليكم، وإن كان مردوداً غير مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلت عقلياتنا أيضاً، وكان السمع الذى جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم.

فإن قلتم: أكثر العقلاء يقولون بقولنا؟ قيل: ليس الأمر كذلك؛ فإن الذين يصرحون بإن صانع العالم شيء موجود ليس فوق العالم: وأنه لا مباين للعالم ولا حال فى العالم – طائفة من النظار؛ وأول من عرف عنه ذلك فى الإسلام جهم ابن صفوان وأتباعه.

بحث فى كون السماء قبله الدعاء

واعترض على الدليل الفطرى: أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس

في جهة الأرض؟ وأوجب على هذا الاعتراض من وجوه: أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة للدعاء – لم يقله أحد من سلف الأمة؛ ولا أنزل الله به من سلطان؛ وهذا من الأمور الشرعية الدينية؛ فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها. الثاني أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة. وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال: إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة؛ أو أن له قبلتين: إحدهما الكعبة والأخرى السماء – فقد ابتدع في الدين؛ وخالف جماعة المسلمين. الثالث أن القبلة: هي ما يستقبله العابد بوجه؛ كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح؛ وكما يوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت وجهة. والاستقبال خلاف الاستدبار؛ فالاستقبال بالوجه؛ والاستدبار بالدبر، فأما ما حذا الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة؛ لا حقيقة ولا مجازاً، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازاً، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجه، بل نهو ا عن ذلك. ومعلوم أن التوجه بالقلب؛ واللجأ والطلب الذي يجده الداعى من نفسه أمر فطرى، يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة. وأمر التوجه[1] فى الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز فى الفطر؛ والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعى، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه. ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده. وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا أن يميل إليه إذ هو تحته! هذا لا يخطر فى قلب ساجد. لكن يحكى عن بشر المريسى أنه سمع وهو يقول فى سجوده: سبحان ربى الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. وإن من أفضى به النفى إلى هذه الحال حرى أن يتزندق، إن لم يتداركه الله

(١) فى ن: التوحيد وهو خطأ.

برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: وقد أعجز عن الإحاطة خلقه – أى لا يحيطون به علماً ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل سبحانه محيط بكل شىء، ولا يحيط به شىء.

اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكلَّمَ موسى تكليماً

قوله: (ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، إيماناً وتصديقاً وتسليماً).

ش: قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٥]. وقال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. الخلة: كمال المحبة. وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم، كما تقدم، وكان أول من ابتدع هذا فى الإسلام هو الجعد بن درهم[١]، فى أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسرى[٢] أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا، تقبل الله صحاياكم، فإنى مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضى الله عنهم، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً. وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان، فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول: «الجهمية». فقتله مسلم بن أحوز أمير خرسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم فى أثناء خلافة المأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك. وأصل هذا مأخوذ عن

---

(١) الجعد بن درهم مبتدع له أخبار فى الزندقة قال الذهبى: عداده فى التابعين مبتدع ضال. زعم أن الله لم يتخذ إبراهم خليلاً ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر عام ١١٨هـ.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسيد القسرى أمير العراق يمانى الأصل من أهل دمشق ولى مكة سنة ٨٩ للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراق سنة ١٠٥هـ عزله هشام سنة ١٢٠هـ وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وأمره أن يحاسبه فسجنه ثم قتله عام ١٢٦هـ، (الوفيات ١ : ١٦٩).

المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قد تخللْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منى ولذا سُمِّيَ الخليلُ خَليلا

محبة الله وخلته وكما يليق به

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى، كسائر صفاته، ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لو كنتُ متَّخذاً من أهلِ الأرضِ خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليلُ الله»[١]، يعني نفسه. وفي رواية: «إني أبرأ إلى كلِّ خليل من خلته، ولو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا»[٢]. وفي رواية: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيمَ خليلا»[٣]

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق. مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً، كقوله لمعاذ: «والله إني لأحبك». وكذلك قوله للأنصار. وكان زيد ابن حارثة حب[٤] رسول الله ﷺ وابنه أسامة حبه[٥]. وأمثال ذلك. وقال له

---

(١) الحديث رواه الترمذي برقم ٣٦٦٢ في المناقب، باب مناقب أبي بكر - رضي الله عنه - وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وقد ذكره الحافظ في الفتح وسكت عليه.

(٢) الحديث رواه الترمذي في مناقب أبي بكر رقم ٣٧٣٥ عن عبد الله وأخرجه مسلم رقم ٢٣٨٣ في فضائل الصحابة باب مناقب أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الأولى لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلاً. والثانية ألا إني أبرأ إلى كل خل من خله.

(٣) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٣٢ في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور بلفظ: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل: وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا.. إلخ.

(٤) زيد بن حارثة بن شراحيل: صاحبي اختطف في الجاهلية صغيراً واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته للنبي - ﷺ - فأعتقه. كان النبي لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها عام ٨هـ. (الإصابة ١: ٥٦٣).

(٥) أسامة بن زيد بن حارثة من كنانة عوف، صحابي جليل ولد بمكة ونشأ على الإسلام وكان الرسول يحبه حباً جماً وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين أمره الرسول قبل أن يبلغ العشرين من عمره ولما توفي رسول الله رحل إلى وادي أم القرى فسكنه ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية إلى أن مات بالجرف عام ٥٤هـ له في كتب الحديث ١٢٨ حديثاً. (طبقات ابن سعد ٤: ٤٢).

عمرو بن العاص: «أى الناس أحب إليك؟ قال عائشةُ، قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها»[1]. فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محباً لذاته، لا لشيء آخر، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، لتخللها المحبة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب. ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه به بذبحه، ليظهر سر الخلة فى تقديمه محبة خليله على محبة ولده،فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، فظهر سلطان الخلة فى محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، فظهر سلطان الخلة فى الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبه خليله على محبته، نسخ الله ذلك عنه، وفداه بالذبح العظيم، لأن المصلحة فى الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة، فنسخ فى حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة فى أتابعه إلى يوم القيامة. وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ، كما ثبت ذلك فى حديث الإسراء.

وهنا سؤال مشهور، وهو: أن النبى ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ، فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق الشبه؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟ وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة، يضيق هذا المكان عن بسطها. وأحسنها: أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس فى آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبى ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما

---

(١) الحديث رواه الترمذى رقم ٣٨٧٩ فى المناقب، باب مناقب عائشة - رضى الله عنها - وهو حديث صحيح.

لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء، حصل لآل محمد ما يليق بهم لأنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التى للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ، فيحصل له من المزية مالم يحصل لغيره. وأحسن من هذا: أن النبى ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: «كما صليت على آل إبراهيم» - متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم [وهو متناول لإبراهيم أيضاً. كما فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٣٣] فإبراهيم وعمران دخلا فى آل إباهيم وآل عمران، وكما فى قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ** ﴾ [القمر: ٣٤]. فإن لوطاً داخل فى آل لوط، وكما فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾ [البقرة: ٤٩]. وقوله: ﴿ **أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٦] فإن فرعون داخل فى آل فرعون. ولهذا والله أعلم، أكثر روايات حديث الصلاة على النبى ﷺ إنما فيها كما صليت على آل إبراهيم. وفى كثير منها كما صليت على إبراهيم ولم يرد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلا فى قليل من الروايات وما ذلك إلا لأن فى قوله: كما صليت على إبراهيم، يدخل آله تبعاً. وفى قوله: كما صليت على آل إبراهيم، هو داخل فى آل إبراهيم. وكذلك لما جاء أبو أوفى رضى الله عنه بصدقته إلى النبى ﷺ دعا له النبى ﷺ وقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى»][(١)] ولما كان بيت إبراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله بخصائص: منها أنه جعل فيهم النبوة والكتاب فلم يأت بعد إبراهيم نبى إلا من أهل بيته. ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة

---

(١) سقط من النسخة ب: ما بين القوسين، والحديث رواه البخارى فى الدعوات ٣٢، ورواه أبو داود فى الزكاة ٧، والنسائى فى الزكاة ١٣، وابن ماجه فى الزكاة ٨، وأحمد بن حنبل ٤ - ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٨١، ٣٨٢ ولفظه عن شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: «كان رسول الله - ﷺ - إذا أتاه الرجل بصدقه ماله - صلى عليه فأتيته بصدقة مالى فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى».

يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم. ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره. ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس. قال تعالى: ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذى جعله قياماً للناس، ومثابة للناس وأمناً، وجعله قبلة لهم وحجا، فكان ظهور هذا البيت فى الأكرمين. ومنها: أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت. إلى غير ذلك من الخصائص.

* * *

تم الجزء الأول بعون الله
ويليه الجزء الثانى - إن شاء الله



الفهارس العامة

فهرس الآيات

السورة	رقم الآية	الصفحة
االأعراف	٧٣	٥٨
الأعراف	٨٥	٥٨
النحل	٣٦	٥٨
الأنبياء	٢٥	٥٨
إبراهيم	١٠	٦١
الإسراء	١٠٢	٦١
النحل	١٤	٦١
الشعراء	٢٤–٢٨	٦١
الأنبياء	٢٢	٦٣
لقمان	٢٥	٦٣
المؤمنون	٨٤–٨٥	٦٣
نوح	٢٣	٦٣
يونس	١٨	٦٥
الروم	٣٠–٣٦	٦٥
إبراهيم	١٠	٦٥
النمل	٥٩–٦٠	٦٨
الأنعام	١٩	٦٨
النمل	٦١	٦٨
البقرة	٢١	٦٨
الأنعام	٦٤	٦٨
المؤمنون	٩١	٦٩
الأنبياء	٢٢	٧٠
الأعراف	١٩	٧٠
النحل	١٧	٧١
الإسراء	٤٢	٧١
الإنسان	٢٩	٧١
الزمر	٣	٧١
آل عمران	٦٤	٧١
آل عمران	١٨–١٩	٧٢
الزخرف	٨٦	٧٣
الزخرف	١٩	٧٣
التوبة	١٧	٧٤
الإسراء	٢٣	٧٤
النحل	٥١	٧٤
البينة	٥	٧٤
التوبة	٣١	٧٤
الإسراء	٢٢	٧٤
القصص	٨٨	٧٤
الصافات	١٥١–١٥٤	٧٥
القلم	٣٥، ٣٦	٧٥
الزخرف	١–٢	٧٥
يوسف	١–٢	٧٥
الحجر	١–٢	٧٥
آل عمران	١٣٨	٧٥
المائدة	٩٢	٧٥
النحل	٤٤	٧٥
المائدة	٣	٧٥
الحديد	٢٥	٧٦

السورة	رقم الآية	الصفحة	السورة	رقم الآية	الصفحة
النحل	٤٣، ٤٤	٧٦	البقرة	٢٥٥	٨٢
آل عمران	١٨٣	٧٦	النساء	١٦٦	٨٢
آل عمران	١٨٤	٧٦	فاطر	١١	٨٢
الشورى	١٧	٧٦	الذاريات	٥٨	٨٢
هود	٥٤-٥٦	٧٦	فصلت	١٥	٨٢
فصلت	٥٣	٧٧	البلد	٨، ٩	٨٧
فصلت	٥٢	٧٧	النحل	٧٨	٨٧
فصلت	٥٣	٧٧	يوسف	١١١	٨٨
الحاقة	٤٤-٤٧	٧٨	البقرة	٢٠	٨٩
الحشر	٢٣	٧٨	الكهف	٤٥	٨٩
العنكبوت	٥١	٧٨	فاطر	٤٤	٨٩
الأنعام	٩٠	٧٩	البقرة	٢٥٥	٨٩
البقرة	١٣٠-١٣١	٧٩	الكهف	٤٩	٨٩
النساء	١٧١	٨٠	سبأ	٣	٨٩
المائدة	٧٧	٨٠	ق	٣٨	٨٩
الأنعام	٩٥	٨٢	البقرة	٢٨٥	٨٩
الذاريات	٢٨	٨٢	الأنعام	٧	٨٩
الصافات	١٠١	٨٢	الشورى	١١	٩١
التوبة	١٢٨	٨٢	فاطر	٤٤	٩١
الدهر	٢	٨٢	البقرة	١٦٣	٩٢
يوسف	٥١	٨٢	مريم	٩	٩٣
الكهف	٧٩	٨٢	الحديد	٣	٩٦
السجدة	١٨	٨٢	الطور	٣٥	٩٦
غافر	٣٥	٨٢	الفرقان	٢٣	٩٧

السورة	رقم الآية	الصفحة
يس	٣٩	٩٧
الأحقاف	١١	٩٧
الشعراء	٧٥، ٧٦	٩٧
هود	٩٨	٩٧
الرحمن	٢٦، ٢٧	٩٨
الأنعام	١٢٥	٩٩
هود	٣٤	٩٩
البقرة	٢٥٣	٩٩
البقرة	١٨٥	٩٩
النساء	٢٦	٩٩
النساء	٢٧، ٢٨	٩٩
المائدة	٦	٩٩
الأحزاب	٣٣	٩٩
القصص	٢٠	١٠١
طه	١١٠	١٠٢
البقرة	٢٥٥	١٠٢
الحشر	٢٣، ٢٤	١٠٢
الشورى	١١	١٠٣
الشورى	١١	١٠٥
النحل	٦٠	١٠٥
الرحمن	١٠	١٠٦
البقرة	٢٥٥	١٠٦
آل عمران	١–٣	١٠٦
طه	١١١	١٠٦
الفرقان	٥٨	١٠٦
غافر	٦٥	١٠٦
البقرة	٢٥٥	١٠٧
الذاريات	٥٦–٥٨	١٠٨
فاطر	١٥	١٠٨
محمد	٣٨	١٠٨
الأنعام	١٤	١٠٨
الملك	٢	١٠٩
الأعراف	٥٤	١١٠
آل عمران	٤٠	١١٥
البقرة	٢٥٣	١١٥
البروج	١٥، ١٦	١١٥
لقمان	٢٧	١١٥
الكهف	١٠٩	١١٥
البروج	١٥، ١٦	١١٨
النحل	٧	١١٨
هود	٧	١١٩
الشورى	١١	١٢٣
البقرة	٢٨٤	١٢٣
الحج	١	١٢٣
يس	٨٢	١٢٤
مريم	٩	١٢٤
الإنسان	١	١٢٤
الشورى	١١	١٢٤

السورة	رقم الآية	الصفحة
النجم	٢٣	٢٠٢
الزخرف	٥٨	٢٠٢
الجاثية	٢٣	٢٠٣
الأعراف	١٢	٢٠٨
النساء	٨٠	٢٠٨
آل عمران	٣١	٢٠٨
النساء	٦٥	٢٠٨
طه	٥	٢٠٩
فاطر	١٠	٢٠٩
الشورى	١١	٢٠٩
طه	١١٠	٢١٠
الفيل	١	٢١٣
الأنعام	١١٢	٢١٤
النحل	١٢٥	٢١٤
الأعراف	٥٣	٢١٥
يوسف	١٠٠	٢١٥
يوسف	٦	٢١٥
النساء	٥٩	٢١٥
الكهف	٧٨، ٨٢	٢١٥
آل عمران	٧	٢١٦
هود	١	٢١٧
الأحزاب	٣٢	٢١٩
البقرة	١٠	٢١٩
التوبة	١٢٥	٢١٩
الشورى	١١	٢١٩
ص	٧٥	٢٢٣
الزمر	٦٧	٢٢٣
القصص	٨٨	٢٢٣
الرحمن	٢٧	٢٢٣
المائدة	١١٦	٢٢٣
طه	٤١	٢٢٣
آل عمران	٢٨	٢٢٣
يس	٧١	٢٢٣
الحجر	٩١	٢٢٤
النجم	١١، ١٣، ٨، ٥	٢٣١
الإسراء	١	٢٣١
المدثر	٤٨	٢٤٢
الروم	٤٧	٢٤٥
الأعراف	٥٥	٢٤٦
آل عمران	١٥٤، ١٢٨	٢٤٨
الأعراف	٥٤	٢٤٨
الأعراف	١٧٢	٢٥٢
الأعراف	١٧٢	٢٥٦
فصلت	١١	٢٥٦
الأعراف	١٧٢	٢٥٧
النساء	١٦٥	٢٥٧
الأعراف	١٧٢-١٧٣	٢٥٧
لقمان	٢٥	٢٥٨

فهرس الأحاديث الواردة
فى الجزء الأول

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
٩٥	أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً أما قال لهم، وإما قالوا له: لما ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: أنه أنزلت على آنفاً سورة فقرأ ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى	٢٣٢
٩٦	قال رسول الله ﷺ: أنا فرطكم على الحوض من مرَّ على شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم	٢٣٣
٩٧	أنا أول شفيع فى الجنة	٢٤٢
٩٨	شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى	٢٤٢
٩٩	إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض، فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا إلى ربك فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى. الخ	٢٤٣
١٠٠	قال رسول الله ﷺ: يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء، ثم الشهداء	٢٤٤
١٠١	قوله ﷺ: يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده..؟ قال الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم	٢٤٥
١٠٢	أسألك بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك	٢٤٦
١٠٣	من حلف بغير الله فقد اشرك	٢٤٦
١٠٤	حديث الثلاثة: وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون	٢٤٨
١٠٥	اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء	٢٤٨

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
	قولاً رب رحيم ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يتلفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه	٢٩٤
١٤٨	قال ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات	٢٩٥
١٤٩	زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات..........	٢٩٥
١٥٠	قال ﷺ : «يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم»...............	٢٩٦
١٥١	قال ﷺ : «أنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون..؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فرفع أصبعه إلى السماء رافعاً لها إلى من فوقها وفوق كل شيء قائلاً: اللهم اشهد»..........	٢٩٨
١٥٢	قال ﷺ للجارية: «أين الله».........................	٢٩٨
١٥٣	قال ﷺ : «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحابكم خليل الرحمن»...............	٣٠٥
١٥٤	وقال: إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. وفي رواية: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً........................	٣٠٥
١٥٥	عن عمرو بن العاص: أي الناس أحب إليك..؟ قال: عائشة: قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها.........................	٣٠٦
	قال ﷺ : «اللهم صلى على آل أبي أوفى»...............	٣٠٧

* * *

حرف الألف

حرف الباء

حرف النون

فهـرس الأشعـار

يحللون بزعم منهم عقداً

وبالذى وضعوه زادت العقد ٢٠٦

نهاية إقدام العقول عقال

وغاية سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من حسومنا

وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة

فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها

رجال فزالوا والجبال جبال ٢٠٩

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها

وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

على ذقنه أو قارعاً سنّ نادم ٢١٠

فيك يا أغلوطة الفكر

حار أمرى وانقضى عمرى

سافرت فيك العقول فما

ربحت إلا أذى السفر

فلحى الله الأولى زعموا

أنك المعروف بالنظر

كذبوا، إن الذى ذكروا

خارج عن قوة البشر ٢١١

شـــهـــدتُ بـأن وعـــد الله حق

وأن النار مـــثـــوى الكافـــرين

وأن العـــرش فـــوق الماء طاف

وفـــوق العـــرش رب العـــالمينا

وتحـــمله مـــلائكة شـــداد

مـــلائكة الإله مـــســـومـــينا ٢٩٠

شـــهـــدت بإذن الله أن مـــحـــمـــداً

رســـول الذى فـــوق الســـمـــوات من عل

وأن أبا يحـــيى ويحـــيى كـــلاهمـــا

له عـــمـــل من ربه مـــتـــقـــبـــل

وأن الذى عـــادى اليـــهـــود ابن مـــريم

رســـول أتى من عند ذى العـــرش مـــرسل

وأن أخـــا الأحـــقـــاف إذ قـــام فـــيـــهم

يـجـــاهـد فى ذات الإله ويعـــدل ٢٩٤

ألـم ترَ أن الســـيف ينقص قـــدره

إذا قـــيل إن الســـيف أمـــضى من العـــصـــا ٣٠٠

قـــد تخللت مـــسلك الروح منى

ولذا ســـمـــى الخليل خليـــلا ٣٠٥

* * *

فهرس الموضوعات الواردة
فى الجزء الأول

مسلسل	الموضــوع	الصفحة

* * *